مطبوعات كتابي
يصدرها حلمي مراد



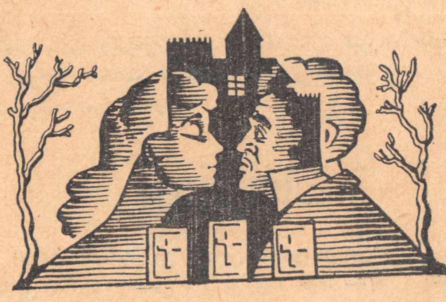
النصّ الكامل لقصة "إميلي برونتي" الخالدة

مرتفعات ويذرنج

إميلى برونتى

مرتفعات ويذرنج

ترجمة كاملة أمينة ، مزودة بصور فوتوغرافية تاريخية للأماكن التى جرت فيها أحداث القصة ، والأماكن التى عاشت فيها المؤلفة .



WUTHERING HEIGHTS

By

EMILY BRONTË

الثمن ١٢ قرشا

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الان ستة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثمانية وأربعون كتابا (ومجلدان كبيران خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ان يرسل القيمة بحوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

التـرجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب التاسع والأربعون

مرتفعات ويذرنج

(الجزء الأول)

نقلها الى العربية

شمس الدين الفريانى

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

الشقيقات الخالدات !

عزيزى القارىء ..

منذ قدمت لك الترجمة الكاملة لقصة « شارلوت برونتى » الخالدة (جين اير) - منذ نحو أربعة أعوام - وأنا اتوق الى أن اقدم لك هذه القصة « الشقيقة » بدورها ، (مرتفعات ويذرنج) ، التى تفوق (جين اير) روعة وخلودا .. بل وتفوقها مكانة فى موازين التراث الأدبى العالمى الذى تعتز به الانسانية جمعاء ..

وحين أضع هاتين القصتين « الكلاسيكيتين » الخالدتين فى مرتبة « الشقيقتين » فانما أعنى بذلك معناه المزدوج : فهما شقيقتان فى « جوهما » القصصى ، ولونهما الأدبى - كما سترى - من ناحية .. وهما من الناحية الأخرى نتاج عبقرية مؤلفتين شقيقتين هما « شارلوت برونتى » - مؤلفة (جين اير) - و « اميلى برونتى » ، مؤلفة (مرتفعات ويذرنج) .

أسرة العبقرية .. والفواجع !

وهذا يسوقنى الى كلمة قصيرة عن أسرة « برونتى » التى أنجبت الشقيقات الثلاث ، بل العبقريات الثلاث ، والمؤلفات الثلاث : « شارلوت » ، و « اميلى » ، ثم صغراهن « آن » برونتى !

ومن عجب ان الشقيقات الثلاث تشابهن فى .. كل شىء تقريبا ! .. تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت !

.. تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وخلودهن ، فاقترن اسم كل منهن بقصة من روائع الأدب الانسانى - وكان نصيب صغراهن « آن » من هذا الانتاج قصة (آجنس جراى) ،

التى تروى قصة مربية للاطفال ، وان كان نصيب هذه القصة من الشهرة أقل من نصيب (جين اير) و (مرتفعات ويذرنج) ..

.. وتشابهن فى هزال أبدانهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى اصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ــ وهو مرض السل ــ فماتت به شارلوت فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ــ ١٨٥٥) .. وماتت به « اميلى » فى سن الثلاثين (١٨١٨ ــ ١٨٤٨) .. ثم ماتت به « آن » فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ــ ١٨٤٩) !

طفولة حزينة

والواقع أن فواجع أسرة « برونتى » لا تقف عند هذا الحد ، (ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به قصصهن جميعا !) .. فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قس « ابروشية » بجهة (هاورث) بانجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، اليزابيث ، شارلوت ، برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم اميلى ، وأخيرا « آن » . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى « ماريا » فى سن السابعة ، والصغرى « آن » فى عامها الأول !

وهكذا صارت « ماريا » ، وهى بعد فى سن السابعة ، بمثابة « الأم » للصغار الخمسة الآخرين ! .. وبعد أربع سنوات ، ألحق الأب الحزين ابنتيه الكبيرتين « ماريا » و « اليزابيث » بمدرسة داخلية ــ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى قصة جين اير ، باسم « لوورد ») .. لذلك لم يكن غريبا ان ماتت الاختان الكبريان فى تلك المدرسة ، تاركتين لأبيهما الثاكل شقيقاتهما الثلاث ، وشقيقهما الوحيد « برانويل » .

فضل البيئة ، والتربية ، على موهبتهن الادبية

وجلب القس شقيقته لترعى أطفاله الأربعة . وكان بيته فى « الابروشية » فسيحا متعدد الحجرات ، تحيط به فى الخارج الأحراش والغابات ذات الجمال الأخاذ ، فى كافة فصول العام . وفى داخل الدار كانت الخادمة « تابى » تروى للصغار قصص العائلات الغريبة الأطوار التى تقطن القصور والضياع المتباعدة فى تلك المنطقة من مناطق مقاطعة (يوركشاير) !.. كما كان الأب يعنى بتعليم صغاره ويتحدث اليهم كما لو كانوا كبارا .. وعودهم أن يطالعوا الكتب والصحف ، ويناقشوه فى محتوياتها .. وهكذا شبوا وقد أنمى الاطلاع فيهم ملكة الخيال والتصور ..

ومنذ صباهن اتجهت ميول الشقيقات الثلاث نحو الأدب .. بينما مال شقيقهن الوحيد «برانويل» الى الرسم ، بالاضافة الى مواهبه الأخرى فى الكتابة ، والدراسة ، والحديث البارع ! .. على انه حين جاء أوان ترجمة هذه المواهب فى الحياة العملية ، منى بفشل ذريع فى جميع الميادين ، فأدمن الخمر .. ثم برزت موهبته الكبرى فى العثور على مبررات لهذا الفشل ! .. وهكذا صار الفتى الذى كان موضع فخر شقيقاته ، وآمالهن ، مجلبة للخجل والعار ! .. واذ يئسن من أن يصبح مصدر دخل للأسرة ، عمدن الى البحث عن أعمال كمربيات لدى الأسر الثرية ، وهى المهنة الوحيدة الشريفة للعوانس الفقيرات فى ذلك العصر .. ثم رحلت شارلوت واميلى الى (بروكسل) حيث اشتغلتا زمنا بالتدريس ، لكن صحة اميلى بدأت فى التدهور ، واشتد بها الحنين الى أحراش (يوركشاير) ، فعادتا الى وطنهما .. وهناك بدأتا تمارسان مع شقيقتهما الثالثة كتابة القصة ونظم الشعر ، فنشرن ديوانهن الأول بتوقيعات مستعارة لثلاثة أشقاء وهميين — من

الرجال - بأسماء : « كارر ، وايليس ، وأكتون بيل » !
ورغم فشل الديوان من حيث الرواج ولفت أنظار النقاد ، فان مجرد رؤية الشقيقات الثلاث لانتاجهن مطبوعا على الورق ، كان كافيا لاشعال حماسهن من أجل تحقيق أحلامهن الأدبية الواسعة ، فلم تعد تستطيع قوة أن توقف انطلاقتهن !
.. وهكذا عكفت « شارلوت » على كتابة (جين اير) ، و « آن » على كتابة (آجنس جراى) ، و « اميلى » على كتابة (مرتفعات ويذرنج) .. وكانت الأخيرة هى أول قصة من الثلاث ترى النور .. نور المطبعة !
وكانت « اميلى » قد « حملت » هذه القصة زمنا فى عقلها وقلبها ، وهى راقدة فوق أحواض نبات (الخلنج) ، تحت أشعة شمس الربيع ، أو وهى ترقب دوامات الجليد فى أيام ديسمبر القارسة . ورغم أن القصة نشرت تحت ذلك الاسم « الرجالى » المستعار ، فقد رجح القراء أن المؤلفة امرأة ، لكنهم تخيلوها امرأة مغامرة عركت الحياة الصاخبة ، والا لما استطاعت تصوير العواطف « بهذا العنف ، والجموح ، والقوة الدافقة ! » .. وما درى الواهمون ان المؤلفة لم تعش الا حياة الراهبات الناسكات !
وبدأت اميلى تسعل .. لكنها أبت الاستكانة لعلاج ، بل رفضت زيارة الطبيب .. فسارت نحو النهاية بخطى حثيثة . وحتى فى يوم وفاتها ذاته ، ارتدت ثيابها ، وهبطت من غرفتها ، وجلست تكتب كالعادة ! .. فماتت « واقفة » ، أو « على خشبة المسرح » كما يشتهى الممثلون !
ولم يستطع أحد أن يتعرف فى أبطال (مرتفعات ويذرنج) على أشخاص عرفتهم « اميلى » فى حياتها .. لكنهم أشخاص يستطيع أن يتعرف عليهم كل من يعرف الانسانية .. فى كل زمان ومكان ! .. فمن بوتقة أحراش (يوركشاير) الضارية الغامضة ، وبقايا قصص المربية « تابى » نصف المنسية ،

وببصيرة المتصوفة التى تنفذ الى حقائق الحياة والموت .. كتبت اميلى برونتى عن .. حب أقوى من الموت !

هل هى قصة حب ؟

على انها ليست قصة حب ، وان كانت هى قصة عن الحب ! .. فلقد عرفت اميلى بوحى من قلبها المستوحش أن الحب ليس على الدوام رقيقا ، سعيدا .. وانما هو قد يكون قاسيا ، ضاريا ، لا ضمير له ! .. وقد يمزق سكينة النفس كما تمزق العاصفة سكون الغابة ! .. لكنها عرفت أيضا انه قد يتسامى فيغدو أعظم ، وأجل قدرا من المحبين أنفسهم ! .. وتتوالى الأجيال ، ويشب كل جيل فيجد (مرتفعات ويذرنج) تنتظر نفرا منه ليجد فيها مصداقا لحبه ، العنيف ، العفيف ، المتسامى .. وسيظل هناك دائما عشاق يرون فيها مرآة لعواطفهم الشخصية ، التى تهيم فى وديان بعيدة عن تلك التى تهيم فيها عواطف عامة الناس !

وقد يروق لك اذا زرت انجلترا أن ترى البيت الذى يقولون انه مسرح أحداث هذه القصة .. وان لم تجد شخصا يؤمن حقا بأن شبح « كاثرين » قد تسلق يوما نافذته !

وقد يروق لك أن تزور البيت الذى عاشت فيه أسرة « برونتى » بضاحية (هاورث) ، وكتبت فيه « اميلى » (مرتفعات ويذرنج) .. الخ .. ومن أجل هذا حرصت على أن أزود هذه الطبعة بكل ما استطعت الحصول عليه من صور نادرة لتلك الأماكن التاريخية ..

والآن ، دعنى أخلى بينك وبين البدء فى قراءة هذه التحفة الأدبية الانسانية الرائعة ، التى ستوافيك ترجمتها الكاملة الأمينة هذه فى ثلاثة أجزاء من هذا الحجم ..

والله ولى التوفيق .

حلمى مراد

الفصل الاول

١٨٠١

عدت للتو من زيارة مالك الدار التى استأجرتها ، وهو الجار الوحيد الذى يكدر صفو العزلة التى أنشدها . . ولعمرى ان هذه قطعة من الريف رائعة الجمال حقا ، وما أحسبني كنت مهتديا - فى انجلترا كلها - الى مكان ينأى عن ضجة المجتمع وضوضائه مثلما ينأى هذا المكان . . انه الفردوس المنشود لعدو البشر ! . . وانا ومستر « هيثكليف » خير اثنين اتفقت مشاربهما بحيث نقتسم هذه الوحشة فيما بيننا . . ياله من شخص عظيم ! . . اننى لا أظنه قد أدرك كيف هفا اليه قلبى ومال ، عند ما رأيت عينيه السوداوين تضيقان فى حذر وريبة ، وتنسحبان تحت حاجبيه - بينما كنت أدنو منه على ظهر جوادى - ثم عند ما توغلت أصابعه فى عزم واصرار داخل أغوار صدريته - وأنا أعلن اسمى له - كأنما تحتمى بها حتى لا تمتد لمصافحتى . .

قلت : « مستر هيثكليف ! »

فكان الجواب ايماءة يسيرة . . واستطردت أقول :

- اننى مستر لوكوود ، المستأجر الجديد لبيتك ياسيدى . وقد بادرت الى الحضور للتشرف بزيارتك فى أول فرصة أتيحت لى بعد مقدمي ، لأعبر لك عن رجائى فى أن لا أكون قد أثقلت عليك بالحاحي فى طلب استئجار (ثرشكروس جرانج)، اذ علمت بالأمس انك كنت تفكر فى . .

فقاطعنى وهو يرتد الى الوراء مجفلا : « ان (ثرشكروس جرانج) مملوكة لى يا سيدى ، وما كنت لأسمح لمخلوق بأن

يثقل على مادام فى استطاعتى أن أحول دون ذلك . ادخل . . »

وقد انطلقت هذه الكلمة الأخيرة من بين أسنانه المطبقة وكأنما كانت تعبر عن رغبته فى أن « أذهب الى الشيطان » ! بل ان البوابة التى كان يستنداليها لم تبد أية حركة ودية تستجيب بها لهذه الدعوة .. وأحسب أن هذا الموقف منه انما حفزنى وشد من عزمى على تلبية دعوته ، اذ شعرت بالميل نحو رجل يبدو أشد منى غلوا فى التحفظ والنفور من الناس . .

واذ رأى صدر جوادى يدفع الحاجز فى رفق ، مد يده فأزاح السلسلة التى كانت البوابة مغلقة بها ، ثم استدار دفعة واحدة ، ومضى يتقدمنى فى الممر المرتفع .. حتى اذا ما بلغنا الفناء صاح مناديا : « جوزيف .. خذ جواد مستر لوكوود ، وأحضر بعض النبيذ »

وقد أوحى لى هذا الأمر المزدوج بفكرة خامرتني وحدثت بها نفسى قائلا : « لاريب أن هذا كل ما فى المؤسسة من خدم وحشم ! .. فلا عجب اذا ترعرع العشب بين البلاط وكانت الماشية هى الأداة الوحيدة لتشذيب الأسوار النامية ! »

أما جوزيف فكان رجلا مسنا ، لا بل شيخا عجوزا .. أو لعله كان مفرطا فى الشيخوخة رغم ما يبدو عليه من صحة قوية وعضلات مفتولة .. فتمتم فى همهمة مكتومة تنم عن السخط ، وهو يأخذ بعنان جوادى : « ليكن الله فى عوننا » .. بينما أخذ فى الوقت نفسه يحملق فى وجهى فى غلظة وتبرم ، بحيث حدست ـ امعانا منى فى السماحة ـ أنه لابد فى حاجة الى « العون الالهى » ليساعده على هضم غدائه ، وان ابتهالاته التقية لا شأن لها بمقدمى المفاجىء غير المنتظر !

و « مرتفعات ويذرنج » هو اسم الدار التى يسكنها مستر هيثكليف . وكلمة « ويذرنج » اصطلاح اقليمى ذو دلالة خاصة فى وصف جلبة الرياح التى يتعرض لها موقع الدار فى الأجواء العاصفة . وهم ولا ريب يستمتعون بالهواء النقى

المنعش طوال أيام العام فى هذا المكان المرتفع ، كما أن فى وسع المرء أن يحدس قوة الرياح الشمالية التى تهب على حافه المرتفعات حين يتأمل ذلك الانحناء الشديد لسيقان أشجار (الشربين) الضامرة القليلة المتناثرة خلف الدار ، وتلك السلسلة من الأغصان المدببة الخالية من الأوراق ، وقد مدت أطرافها جميعا فى اتجاه واحد كأنها تستجدى الشمس حرارتها ودفأها .. ومن حسن الحظ أن المهندس الذى شيد الدار كان من بعد النظر بحيث أقامها متينة قوية ، وجعل نوافذها ضيقة غائرة فى الجدران ، ووقى زوايا البناء بأحجار كبيرة بارزة .

وقبل أن أجتاز عتبة الدار تمهلت قليلا لأتأمل فى اعجاب عدداً من النقوش الغريبة الشكل المتناثرة فوق الواجهة ، وعلى الأخص فوق الباب الرئيسى ، حيث تبينت ـ وسط غمرة من الرسوم تمثل سباعا ذات أجنحة ومناقير ، وغلمانا عراة بغير حياء ـ تاريخا محفورا هو « ١٥٠٠ » ، واسما هو « هيرتون أيرنشو » .. وكنت أود أن أبدى بعض التعليقات أو اطلب نبذة موجزة عن تاريخ المكان من صاحبه المتجهم الوجه ، لولا أن هيئته عند الباب كانت تبدو كأنما تريد منى التعجيل بالدخول أو المبادرة الى الرحيل .. ولم يكن بى ميل أو رغبة فى الاستزادة من ضيق صدره وحدة خلقه قبل أن أتفحص خفايا مسكنه من الداخل .

وان هى الا خطوة خطوتها حتى وجدت نفسى فى حجرة الجلوس العائلية التى تلى الباب مباشرة ، دون أن يتوسطهما دهليز أو ردهة .. وهم يطلقون عليها فى هذه الأنحاء اسم « البيت » تجوزا ، اعلاء لقدرها عندهم ، وتشمل عادة المطبخ وحجرة الجلوس معا . ولكنى أعتقد أن المطبخ فى (مرتفعات ويذرنج) يقع فى مكان آخر من الدار ـ أو هذا على الأقل ما تبينته ـ اذ بلغت مسامعى من مكان سحيق غمغمة الكلام

وقعقعة الآنية ، وفى الوقت نفسه لم أجد حول الموقد الضحم أثراً للشواء أو السليق أو خبز الفطائر ، ولم ألمح على الجدران بريق القدور النحاسية أو المصافى اللامعة الحديثة الطلاء .. ومع ذلك كان أحد أركان القاعة يعكس الضوء والحرارة من صحاف واسعة مصنوعة من الصفيح السميك ، تناثرت بينها أباريق وقنانى من الفضة ، وقد رصت صفوفا طبقة بعد طبقة فوق (بوفيه) عريض يرتفع حتى يبلغ السقف .. وكان هذا الأخير غفلا لم تمسسه يد بطلاء أو دهان ، ودقائقه الداخلية ظاهرة للعيون المتفحصة ، الا رقعة منه كان يخفيها اطار من الخشب مثقل بما يتدلى منه من فطائر دقيق الشوفان المجففة وأفخاذ البقر والضأن والخنازير المقددة . وكانت على الجدار فوق المدفأة بنادق عتيقة مختلفة الأشكال قبيحة المنظر ، ومسدسان هائلان داخل جرابين من الجلد ، كما رصت على رف المدفأة ثلاث علب ذات رسوم زاهية صاخبة وضعت على سبيل الزينة .. وكانت أرضية القاعة من حجر أبيض مصقول ، والمقاعد من طراز عتيق ذات طلاء أخضر وظهور مرتفعة مستقيمة ، الا مقعداً أو اثنين من المقاعد السوداء الثقيلة كانا فى ركن معتم من القاعة .. وكانت تقبع فى فجوة تحت (البوفيه) كلبة رائعة الخلقة من كلاب الصيد ، ذات لون أحمر قاتم ، حديثة عهد بولادة فوج من صغارها ، وقد أحاط بها سرب من الجراء الصغيرة التى لا تكف عن الصراخ ، على حين كان عدد آخر من الكلاب ، رابضا فى بعض منافذ الحجرة الأخرى .

ولم يكن المسكن والأثاث يلوحان على شىء من الغرابة أو الشذوذ لو انهما كانا لريفى بسيط من أهل الشمال ، من أولئك الرجال ذوى الأسارير التى تنضح بقوة الشكيمة ، والسيقان القوية التى تنبض عضلاتها فى السراويل المحكمة الضيقة عند الركبتين ، و « الطزالق » الطويلة اللامعة .. ولو

أنك تجولت فى دائرة محيطها خمسة أميال أو ستة بين هذه التلال ، فى الوقت الملائم بعد العشاء ، لوجدت الكثيرين من أمثال هذا الانسان ، وقد جلس كل منهم فى مقعده المريح ذى المسندين ، وقدح الجعة يفور أمامه بالزبد والحبب فوق مائدة مستديرة .. أما مستر هيثكليف فان التباين العجيب كان واضحا بينه وبين مسكنه وطراز معيشته : فهو فى هيئته داكن البشرة أشبه بالغجر ، بينما هو فى ثيابه ومسلكه سيد مهذب لا يختلف عن سراة الريف ونبلائه . وقد يكون قليل الاحتفال بهندامه الى حد ما ، ولكنه ، مع ذلك الاهمال فى العناية بنفسه ، لا يبدو شاذا أو منفرا للابصار ، اذ كان ممشوق القوام رشيقا .. وهو الى ذلك يبدو مكتئبا ضيق الصدر دواما ، وربما خاله بعض الناس على قدر من الكبر والخيلاء السوقية التى تنم عن ضعة الأصل ، ولكن شعورا من الميل اليه انبعث من أعماقى يحدثنى بأن الأمر لم يكن كذلك البتة ، وأدركت بغريزتى أن تحفظه انما ينبع من نفوره من اظهار عواطفه فى ضجيج وعجيج ، ومن تبادل العواطف والمجاملات فى مظاهرات علنية ! .. فهو يسدل على حبه وبغضائه ستارا من الكتمان ، كما يرى أن ابداء الحب أو البغضاء نحوه ضرب من القحة .. ولكن لا .. أحسبنى أعدو سريعا نحو النتائج قبل الأوان ، وأرانى أغدق عليه من صفاتى الشخصية فى سخاء ، فقد تكون لدى مستر هيثكليف أسباب أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك التى لدى ، عندما يقبض يده ويخفيها فى طيات ثيابه حين يرى من يسعى الى التعرف به .. ومالى لا أعترف بأن تكوينى يكاد يكون غريبا غير مألوف ؟ .. لقد اعتادت أمى العزيزة أن تقول لى أننى لن يكون لى بيت مريح تسكن اليه نفسى ، وقد ثبت لى فى الصيف الماضى أننى لا أستحق البتة أن يكون لى بيت وأسرة . فبينما كنت استمتع بشهر من الطقس الجميل على شاطىء البحر ،

ألقت الى المصادفة برفقة مخلوقة من أوفر خلق الله فتنة وسحرا ، وكانت تلوح فى ناظرى الهة معبودة طالما انها لم تكن تعيرنى انتباها .. على انى لم أصارحها بحبى بالكلمات قط ، ومع ذلك فان كانت للنظرات لغة مفهومة فلا بد ان أشد الناس غباء أدركوا اننى غارق فى حبها حتى أذنى ! .. وقد شعرت الفتاة بعاطفتى أخيرا ، وراحت ترد لى النظرة بالنظرة وتنطق عيناها بأحلى وأشهى ما يتخيله انسان .. فما الذى فعلته أنا ؟ .. اننى أعترف بذلك والخجل يملؤنى .. لقد انكمشت فى نفسى فى برود عجيب ، أشبه بانكماش القوقعة ! .. كنت لدى كل نظرة منها أزداد انزواء وبرودا وانكماشا ، حتى أخذت البريئة المسكينة تشك فى صدق حدسها ، وتكذب ما أنبأتها به فراستها وحواسها ، وما لبثت أن غمرها الخجل والارتباك لخطئها المزعوم ، فأغرت أمها بالرحيل عن المكان ! .. وهكذا وصمنى هذا التحول الغريب فى مسلكى بصفة الرجل المجرد عن المشاعر الذى يتعمد القسوة ليحطم قلوب العذارى ، وأنا وحدى الذى أعلم كم كنت مظلوما فى هذه السمعة ..

* * *

واتخذت مجلسى عند طرف المدفأة قبالة المقعد الذى كان مضيفى يتقدم نحوه ، وأردت أن أقطع فترة الصمت الذى ساد بيننا لحظة ، فحاولت أن أربت على الكلبة الأم التى كانت قد فارقت صغارها وأتت تتشمم أقدامى من الخلف فى ضراوة ، وقد قوست شفتها الى أعلى وكشفت عن أنياب بيضاء يسيل منها اللعاب اشتهاء لشىء تنشبها فيه ! .. ولكن مداعبتى لم تلق منها قبولا ، وانما أثارت زمجرة طويلة مخيفة ما ان انبعثت من حلقها حتى تلتها زمجرة أخرى من مستر هيثكليف الذى ركلها ركلة شديدة وهو يقول لى :

— خير لك أن تدع الكلبة وشأنها ، فأنها لم تعتد أن نفسدها بالتدليل ، كما أننا لا نقتنيها لتكون مسلاة لنا ..

ثم مضى فى خطوات سريعة نحو باب جانبى وهو يصيح من جديد : جوزيف ! .. فغمغم جوزيف من أعماق القبو بألفاظ غير مفهومة ، ولكنه لم يبد ميلا الى الصعود ، فاندفع سيده يهبط الى القبو خلفه ، وتركنى وجها لوجه مع الكلبة الخبيثة ، وقد انضم اليها اثنان من كلاب الرعاة الخشنة الشعر البشعة المنظر ، شاركاها فى فرض رقابة دقيقة على حركاتى .. واذ كنت لا أتوق الى الاتصال من قرب أو من بعد بأنياب هذه الطغمة ومخالبها ، فقد جلست ساكنا بلا حراك . غير أننى وقد مللت السكوت وخيل الى أن الكلاب لا تفهم الاهانات الضمنية ، عكفت — لسوء الحظ — على تحريك وجهى حركات ساخرة من « الثلاثى الأثيم » .. وكأنما أثار « السيدة » شىء ما فى محياى ، فاذا بها تنقض على ركبتى فجأة وقد تملكها غضب شديد .. ودفعتها الى الخلف دفعة قوية ، وأسرعت أضع المائدة حائلا بينى وبينها ، غير أن هذا المسلك أثار « الخلية » بأسرها ضدى ، فاذا بستة من الأعداء ذوات الأربع ، من جميع الاحجام والاعمار تتدفق الى ميدان المعركة من أوكار خفية ، واذا بى أحس بأعقابى وأطراف سترتى هدفا لهجوم المعتدين .. فتناولت محرك النار من المدفأة ، ورحت أدفع به عنى كبار المحاربين بقدر ما وسعنى من جهد وحيلة ، غير أنى اضطررت فى الوقت نفسه الى الصياح عاليا فى طلب النجدة من بعض سكان المنزل ليعيد الأمن والسلام الى الحجرة !

وصعد مستر هيثكليف وخادمه سلم القبو فى تثاقل وقد لاح عليهما الغضب والحنق — ولست أظنهما قد أسرعا فى خطوهما ثانية واحدة عما ألفاه — رغم أن منطقة المدفأة كانت مسرحا لعاصفة عاتية من الزمجرة والنباح وصيحات الغضب !

.. ولكن أحد سكان المنزل كان – لحسن حظى – أسرع منهما الى المبادرة بنجدتى ، فقد أندفعت نحونا سيدة قوية البنية ذات ساعدين عاريين وثوب مشمر عند الوسط ، ووجنات متوردة من لفحات النار ، ومضت تفرق بينى وبين أعدائى وهى تستخدم مقلاة فى يدها تلوح بها ، ولسانا بليغا كان له أثره الحاسم فى وقف العدوان ، اذ هدأت الزوبعة فجأة كأنما مستها عصا ساحر بارع ! .. وكانت السيدة لا تزال تلهث كأمواج البحر حين تهب عليها عاصفة عاتية ، عندما دخل سيدها الى المسرح ، وسألنى وهو يحدجنى بنظرة سخط لم يكن فى وسعى أن أحتملها بعد هذه المعاملة الجافية :

– ماذا حدث بحق الشيطان ؟

فأجبته صاخبا : « بحق الشيطان فعلا يا مستر هيثكليف ! .. فان قطيعا من الخنازير تملكته الشياطين لا يؤوى فى جوفه من الأرواح الشريرة ما تؤويه حيواناتك هذه يا سيدى ! .. أنك كمن يترك شخصا غريبا بين فصيلة من النمور .. ! »

فقال وهو يضع الزجاجة أمامى ، ويعيد المائدة الى مكانها :

– انها لا تتحرش بالأشخاص الذين لا يمسون شيئا .. والكلاب اذا كانت يقظة ساهرة انما تؤدى واجبها المفروض .. هل لك فى كأس من النبيذ ؟

– كلا وشكرا ..

– انها لم تعضك ، أليس كذلك ؟

– لو انها فعلت لكنت قد تركت أثرا منى لا يزول على الفاعل الخبيث !

فلانت أسارير مستر هيثكليف فيما يشبه ابتسامة عابرة وقال :

– هيا .. هيا .. لقد استبد بك الانفعال يا مستر لوكوود ، فخذ قليلا من النبيذ .. والحق أن الضيوف فى هذه الدار نادرون ، وهم من القلة بحيث لا نعرف ، أنا والكلاب التى



« .. و (مرتفعات ويذرنج) هو اسم الدار التى يسكنها مستر هيثكليف . وكلمة « ويذرنج » اصطلاح اقليمى ذو دلالة خاصة فى وصف جلبة الرياح التى يتعرض لها موقع الدار فى الاجواء العاصفة. وهم ولا ريب يستمتعون بالهواء النقى المنعش طوال أيام العام فى هذا المكان المرتفع ، كما ان فى وسع المرء أن يحدس قوة الرياح الشمالية التى تهب على حافة المرتفعات ، حين يتأمل ذلك الانحناء الشديد لسيقان اشجار (الشربين) الضامرة المتناثرة خلف الدار (ص ١٢)

أقتنيها ، كيف نستقبلهم .. فى صحتك يا سيدى !

فانحنيت أمامه أرد له التحية ، ثم شربت نخبه ، وقد بدأت أتبين مبلغ السخف فى أن أجلس متجهما عبوسا بسبب سوء مسلك حفنة من الكلاب الأوغاد . وفضلا عن ذلك كرهت أن أتيح لمضيفى المزيد من التسلية على حسابى بعد أن اتجهت سخريته الى هذه الوجهة .. ولعله رأى بفطنته أن من الحمق أن يغضب مستأجرا طيبا ، فانه أطلق نفسه على سجيتها وانطلق يتحدث الى فى أسلوبه المقتضب ، عن الموضوع الذى خاله مشوقا لى ، وهو الحديث عن مزايا الدار التى استأجرتها لأعتكف فيها واستجم ، وعما قد يكون فيها من مساوىء .. ولقد وجدته جم الذكاء بارع الحديث ، يجيد معالجة المواضيع التى طرقناها ، حتى بلغت بى الجرأة - قبيل انصرافى - حدا جعلنى أندفع فأعده بزيارة أخرى فى اليوم التالى .. وما من ريب فى أنه لم يكن راغبا فى المزيد من تطفلى عليه ، ولكنى سوف أذهب لزيارته رغم ذلك ، فمن المذهل حقا أن أحس بنفسى رجلا اجتماعيا يحب الاختلاط ومعاشرة الناس ، بالمقارنة به !

الفصل الثانى

كان عصر الأمس قارس البرد كثيف الضباب ، فأحسست ميلا الى قضاء الأمسية بجوار المدفأة فى مكتبى، بدلا من خوض الوحول والأحراش الى (مرتفعات ويذرنج) .. فلما فرغت من تناول غدائى (ملحوظة : اننى أتغدى هنا بين الثانية عشرة والواحدة ، اذ أن مدبرة المنزل - وهى سيدة فى منتصف العمر ، تسلمتها مع البيت كأنها بعض أثاثه الثابت ! - لم تستطع ، أو لم تشأ ، أن تفهم رغبتى فى تناوله فى الخامسة) .. صعدت الدرج متثاقلا الى الطابق العلوى ، تتراوحنى هذه النية

المتكاسلة ، ثم خطوت الى حجرتى ، ففوجئت بفتاة من الخدم تبرك أمام المدفأة وقد أحاطت بها الفرش ودلاء الفحم ، محاوله اطفاء اللهب بأكوام من الرماد أثارت حولها غبارا كثيفا مروعا .. فردنى هذا المنظر على أعقابى ، وأسرعت بتناول قبعتى ، وما لبثت بعد مسيرة اربعة أميال أن بلغت بوابة حديقة « هيثكليف » فى اللحظة المناسبة بحيث نجوت من ندف الثلج الذى بدأ ينهمر فيملأ الجو بما يشبه الريش المتطاير ..

وكانت الأرض ، عند قمة التل الكئيبة الباردة ، صلبة يغطيها جليد أسود ، بينما كان البرد يبعث القشعريرة فى كل جارحة من بدنى .. واستعصت على السلسلة ولم أستطع نزعها ، فتسلقت البوابة وانطلقت أعدو فوق الممر المرصوف بالبلاط ، والذى تتاخمه من الجانبين شجيرات عنب الديب المتناثرة بغير نظام أو ترتيب .. فلما بلغت الباب رحت أطرقه ، وما من مجيب ، حتى آلمتنى مفاصل أصابعى ، وكان الجواب الوحيد الذى تلقيته من داخل المنزل هو نباح الكلاب وزمجرتها ...!

وجعلت أقول فى نفسى ساخطا : « لعنة الله عليكم أيها الأنذال المناكيد سكان هذا المنزل ! .. والله أنكم لتستحقون النفى الأبدى عن أمثالكم من البشر جزاء جلافتكم وسوء لقياكم للضيوف .. اننى ، على الأقل ، ما كنت لأدع بابى موصدا فى رائعة النهار ، ولكننى لن أبالى وسوف أدخل المنزل على كل حال ! »

واذ استقر عزمى على ذلك ، أمسكت بسقاطة الباب ورحت أهزها فى قوة وعنف ، فاذا بجوزيف ذى السحنة الكئيبة يطل برأسه من كوة مستديرة فى مخزن الغلال ، ويصيح بى :

ـ ماذا تريد ؟ .. ان السيد هناك فى الحقل ، وعليك أن تنعطف عند نهاية الممر اذا أردت أن تتحدث اليه ..

فهتفت أجيبه :

ـ ألا يوجد فى المنزل من يفتح لى الباب ؟

ـ لا يوجد سوى السيدة ، ولن تفتح لك ولو مكثت تطرق الباب حتى الليل !

ـ لماذا ؟ .. الا يمكنك أن تخبرها من أكون يا جوزيف ؟

ـ محال أن أفعل ، فلا شأن لى بهذا ..

وما لبث رأس الوغد أن توارى داخل الكوة !

وبدأ الثلج ينهمر غزيرا كثيفا ، فأمسكت بمقبض الباب لأشرع فى محاولة أخرى ، عندما أقبل من الفناء خلفى شاب فى مقتبل العمر ، لا يرتدى معطفا ، ويحمل فوق كتفه مذراة للدراس ، فصاح بى أن أتبعه .. وبعد أن اجتزنا حجرة للغسيل ومررنا بساحة مرصوفة تحوى مخزن فحم ، ومضخة مياه ، وبرج حمام ، وصلنا أخيرا الى القاعة الفسيحة الدافئة التى استقبلت فيها أول مرة . وكانت تشع بهاء وبهجة فى وهج النار العظيمة المستعرة فى المدفأة ، والتى تندلع من كتل الفحم وشرائح الحطب وأوراق الشجر الجافة .. وشد ما سررت اذ لمحت بجوار المائدة ـ التى كانت محملة بالكثير من الطعام المعد للعشاء ـ تلك السيدة التى ذكرها جوزيف ، فاذا بى أرى مخلوقة لم يخطر ببالى قط أننى ملاقيها فى هذا المكان .. وانحنيت أمامها محييا ، وانتظرت أن تدعونى للجلوس ، الا أنها راحت تتطلع الى .وقد استندت الى ظهر مقعدها ، وظلت جامدة فى مكانها لا تريم ولا تنبس ببنت شفة ! .. فقلت :

ـ يا له من جو فظيع !.. أخشى يا مسز هيثكليف أن يكون الباب قد حمل عواقب اهمال خدمكم وتراخيهم ، فقد لقيت عناء شديدا فى أسماعهم صوت طرقاتى ...

ولكنها لم تفتح فمها بكلمة . كنت أنظر اليها متفرسا ، فكانت تحدجنى بأنظارها دون أن تطرف عيناها ! .. ومهما يكن من أمر فانها ظلت تحملق فى بنظرات ثابتة باردة خالية

من أى معنى أو اكتراث ، حتى انتابنى الضيق والحرج .. وعندئذ قال الشاب فى غلظة : « أجلس .. سوف يحضر عما قليل .. »

فأطعته وجلست صامتا .. ثم تنحنحت وحاولت أن أنادى (جونو) الشريرة التى تنازلت فى هذا اللقـاء الثانى وهزت طرف ذيلها هزات يسـيرة دليلا على سابق تعارفنا .. وما لبثت أن قلت :

ــ هذه كلبة جميلة حقا ! .. هل تنوين التخلى عن الصغار يا سيدتى ؟

فقالت ربة الدار الجميلة فى اقتضاب : « انها ليست ملكى » .. ولكنها نطقت بهذه العبارة فى لهجة أشد تحفظا ونفورا مما كان يمكن أن يجيبنى بها هيثكليف نفسه ! .. ومع ذلك فقد استطردت أقول وقد تحولت نحو كومة تقبع فى مكان معتم وتكتظ بما يشبه القطط :

ــ آه ! .. أن حيواناتك الأليفة المفضلة بين هذه اذن ؟

فأجابتنى فى ازدراء : « ما أعجبها نخبـة من الحيـوانات المدللة ! » ــ فقد شاء سوء طالعى أن يكون ما أشرت اليـه كومة من الأرانب الميتـة ! ــ وارتبكت ، فتنحنحت ثانيـة واقتربت بمقعدى من النار ، ثم عدت أكرر تعليقاتى على سوء الحالة الجوية فى تلك الأمسية ، فقالت :

ــ ما كان ينبغى أن تغادر منزلك ..

ثم نهضت ومشت الى رف المدفأة وهى تهم بتناول اثنتين من العلب الملونة الموضوعة فوقه .. وكان مجلسها محجوبا عن الضوء ، أما الآن فقد استطعت أن أرى وجهها وقوامهـا فى جلاء . كانت نحيلة الجسم لا يكاد يبدو عليهـا أنها جاوزت سن المراهقة ، وكان قوامها فاتنا ، أما وجهها فكان أبدع وأرق وجه أتيح لى أن أراه من قبل : دقيق الملامح ، ناصع البياض ، وكانت خصلات شـعرها الشبيهة بلون سـنابل القمح ، أو

بالأحرى الذهبية اللون ، تنسدل على عنقها البض الجميل .. وكانت لها عينان لو لانت نظراتهما قليلا لغدا لهما سحر لا يقاوم ! .. ومن حظ قلبى السريع التأثر والحساسية ان العاطفة الوحيدة التى كانت تطل منهما كانت تتذبذب بين الزراية والاستخفاف وقلة الاكترات ، وبين نوع من اليأس والقنوط كان وجوده فيهما أمرا بالغ الغرابة والشذوذ !

وكانت العلب بعيدة نوعا عن متناول يدها ، فبدرت منى حركة لمعاونتها ، واذا بها تستدير نحوى فى وحشية كما يفعل البخيل الشحيح اذا هم أحد بمعاونته فى احصاء ذهبه ، وهى تندفع قائلة :

ـ لست فى حاجة لمعونتك، ففى وسعى أن آخذها بنفسى..

فأسرعت أقول لها : « أرجو المعذرة .. »

وأخذت تربط مرولة فوق ثوبها الأسود الأنيق ، ثم امسكت بملعقة ملأى بأوراق الشاى كانت تهم بوضعها فى الابريق، غير انها توقفت لتسألنى : « هل دعيت لتناول الشاى ؟ »

فأجبتها : « يسرنى أن أنال قدحا منه .. »

فعادت تقول : « ولكن هل دعيت ؟ »

عندئذ قلت وأنا أحاول الابتسام : « كلا .. ولكنك صاحبة الشأن فى دعوتى » . فطوحت بالشاى والملعقة معا الى داخل العلبة ثانية ، وعادت الى مقعدها فى نفور واشمئزاز ، وقد تغضن جبينها ، واختلجت شفتها السفلى القانية كطفل يهم بالبكاء !

وفى الوقت نفسه كان الشاب قد ألقى على كتفيه سترة رثة بادية القدم ، ثم وقف بقامته المنتصبة أمام النار المتأججة ، وهو يحدجنى من عل من ركنى عينيه بنظرة تفيض بالحقد والضغينة ، كأن بيننا ثأرا قاتلا لم ينتقم له بعد ! .. وبدأت أتساءل ان كان من الخدم أو السادة ، فقد كان ثوبه وحديثه كلاهما سواء فى الخشونة والغلظة ، كما كان خاليا تماما من مظاهر الرقى التى تبدو على مستر ومسز هيثكليف .. وكان

شعره الأسمر كثيفا مجعدا خشنا غير منسق، وشعر فوديه(١) يتدلى فوق صدغيه كالدببة ! .. أما يداه فكانتا سمراوين خشنتين أشبه بأيدى الفعلة والعمال .. ومع ذلك كان مسلكه يتسم بالحرية والانطلاق ، بل بالتعالى والانفة ، لا يظهر شيئا من ذلك الاحترام والاهتمام اللذين يبديهما الخدم نحو سيدة الدار .. واذ كنت لا أملك دليلا واحدا على حقيقة مركزه، فقد رأيت من الأفضل أن أكف عن الالتفات الى مسلكه العجيب .. وما لبث مقدم هيثكليف ، بعد دقائق خمس ، أن خلصنى من حيرتى وارتباكى الى حد ما ، فقلت له وأنا اصطنع الجذل لرؤيته :

— هأنت ذا ترى يا سيدى اننى حضرت وفاء بوعدى .. ولكنى أخشى ان يحبسنى هذا الجو الصاخب فى منزلك نصف ساعة ، اذا وسعنى رحابك هذه الفترة ..

فأجاب وهو ينفض رقائق الثلج البيضاء عن ثيابه :

— نصف ساعة ؟.. انى لأعجب كيف تختار ذروة العاصفة الثلجية للتجوال خارج منزلك خلالها ! .. هل تعلم انك انما تخاطر بتعريض نفسك للضياع وسط المستنقعات ؟ .. ان الذين ألفوا هذه البرارى غالبا ما يضلون الطريق فى ليلة كهذه ، وفى وسعى أن أؤكد لك بأنه لا ينتظر أن تتغير حالة الجو عن قريب ..

— ربما استطعت أن آخذ دليلا من بين غلمانك ، على أن يبقى فى (الجرانج) حتى الصباح .. فهل يمكنك أن تستغنى عن أحدهم ؟

— كلا .. لا يمكننى ذلك .

— آه .. حقا ؟.. حسنا ، لابد لى اذن من أن أعتمد على فطنتى ..

— هراء !

---

(١) الفود : ما يلي الاذن من شعر الرأس

وفى تلك اللحظة صاح ذو السترة البالية وهو يحول نظراته الثاقبة الضارية عنى الى السيدة الشابة : « ألا تريدين اعداد الشاى ؟ »

ولكنها قالت تسأل هيثكليف عنى : « هل سيتناول «هو» شيئا منه ؟ »

ـ أسرعى باعداده حالا !

وقد أنثالت هذه الكلمات من فمه فى وحشية منقطعة النظير بحيث انتفضت مجفلا .. وكانت اللهجة التى قيلت بها تنم عن خلق حاد وصدر ضيق ، حتى لم أعد ميالا الى وصف هيثكليف بأنه شخص عظيم كما خلته فى بادىء الأمر !

* * *

فلما تم اعداد المائدة دعانى اليها فى جفاء بقوله : « هيا يا سيدى .. قرب مقعدك الى الأمام » . وهكذا اجتمعنا جميعا حول المائدة ، بما فى ذلك هذا الشاب الفظ الخشن ، وأخذنا نلوك طعامنا وقد ران علينا صمت كئيب ..

وظننت من واجبى ان أبدد تلك السحابة التى تخيم فوقنا ، ما دمت السبب فى انعقادها فى الجو ـ فما أحسب من المعقول أن يجلسوا كل يوم على هذه الحال من العبوس والعزوف عن الكلام .. كذلك من المحال ، مهما يكن من حدة طباعهم وسوء خلقهم ، أن يكون ذلك التجهم الشامل هو طابع أساريرهم المألوف ـ وهكذا بدأت أقول فى الفترة بين ارتشاف قدح من الشاى واستقبال قدح آخر :

ـ ما أغرب ما تطبعه العادة من أثر فى أذواقنا وأفكارنا !.. ان الكثيرين لا يمكنهم أن يتصوروا امكان وجود السعادة فى حياة تقضى على هذا النمط من النفى المطلق عن العالم ، كالحياة التى تقضيها يامستر هيثكليف .. ومع ذلك أستطيع القول بأنك وقد أحاطت بك أسرتك ، ومعك زوجتك المحبوبة

كالملاك الحارس على بيتك وقلبك ..

فقاطعنى قائلا ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية ساخرة :

ـ زوجتى المحبوبة ؟ .. اين هى .. زوجتى المحبوبة ؟

ـ أعنى مسز هيثكليف .. زوجتك !

ـ حسنا .. نعم .. آه ! . لعلك تقصد أن روحها قد تولت مهام الملاك المشرف على (مرتفعات ويذرنج) ، وحامى أقداره ومصائره حتى بعد أن فنى جسدها .. هل هذا ما تعنيه ؟

واذ ألفيتنى قد ترديت فى زلة حمقاء ، رحت أحاول أن أصلحها .. وكان ينبغى لى أن ألحظ التفاوت العظيم فى السن بين الاثنين ، بما لا يجعلهما خليقين بأن يكونا رجلا وزوجته . كان أحدهما فى نحو الأربعين ، وهى سن النضج العقلى التى قلما ينتاب الرجل فيها هوس الزواج عن حب من الفتيات الصغيرات ـ فاننا انما نحتفظ بهذه الأحلام لتكون عزاءنا وسلوانا فى سن الشيخوخة الأخيرة ! ـ أما الأخرى فلا يبدو انها بلغت السابعة عشرة !

وعندئذ ومضت الحقيقة أمام خاطرى فقلت لنفسي : « لعل زوجها هو هذا المهرج الذى يجلس عند مرفقى ، ويشرب نصيبه من الشاى فى طست ، ويأكل خبزه دون أن يغسل يديه ! .. انه هيثكليف الصغير ولا ريب ، وهذه عاقبة من تدفن نفسها حية !.. لقد ألقت بنفسها بين يدى هذا الحيوان الشرس لمجرد انها تجهل وجود أشخاص خيرا منه بكثير .. يا لرحمة السماء ! .. لا بد لى من أن أكون على حذر مما قد أسببه لها من ندم على سوء اختيارها ! » .. وربما لاح هذا الخاطر الأخير مليئا بالغرور والخيلاء من جانبى ، ولكن الواقع انه لم يكن من ذلك فى شىء ، فقد روعنى من جارى أنه أدنى الى أن يكون منفرا حقا ، تعافه النفس .. أما أنا فكنت

أعلم ، من تجاربى الماضية ، اننى أدنى الى أن أكون ساحرا جذابا ! !

وفى تلك اللحظة كان هيثكليف يستطرد قائلا :

ـ ان مسز هيثكليف هى زوجة ابنى ..

فكان فى قوله ما طابق حدسى وتخمينى .. ولكنه اذ قال ذلك ، تحول نحوها يرمقها بنظرة غريبة تفيض بالحقد والكراهية ، الا أن تكون عضلات وجهه قد خلقت بالغة الشذوذ والانحراف بحيث لا تعبر ـ كسائر الناس ـ عما يعتمل فى نفسه ! وعندئذ تحولت الى جارى الفتى قائلا فى خفة ونزق :

ـ آه ! .. طبعا ، لقد فهمت الآن ، فأنت المالك المحظوظ لهذه الحورية الساحرة !

ولكن تلك الزلة الثانية كانت أدهى وأمر ! .. فقد رأيت وجه الفتى يحتقن بالدماء ، ورأيته يستجمع قبضته وينم مظهره عن النية المبيتة للانقضاض على .. غير أنه ما لبث أن استعاد سيطرته على مشاعره وانفثأت عاصفة غضبه فى سيل من اللعنات القاسية التى وجهها لشخصى ، فحرصت على التظاهر بعدم الالتفات اليها .. بينما قال مضيفى :

ـ لم تكن موفقا فى ظنونك يا سيدى ، فان أحدا منا لم يوهب حظ امتلاك حوريتك الساحرة .. لقد مات زوجها ، وسبق أن قلت أنها زوجة ابنى ..

ـ وهذا الشاب هو ؟

ـ انه ليس ابنى قطعا ..

وابتسم هيثكليف ثانية ، كما لو كانت نسبة أبوة هذا الدب اليه ضربا من المزاح الجرىء .. وفى الوقت نفسه كان الفتى يزمجر :

ـ ان اسمى هيرتون أيرنشو .. وانصح لك أن تحترمه !

فأجبته : « اننى لم أبد نحوه شيئا من عدم الاحترام »

وكنت أضحك فى سرى من تلك الخيلاء التى أعلن بها اسمه

.. ورأيته يحدجنى بنظرة طويلة لم أعن بمبادلته اياها طويلاً خشية أن يبعثنى الاغراء على صفعه ، أو تنطلق منى قهقهة السخرية عالية مدوية ..

وبدأت أشعر عن يقين بأن المكان يضيق بى فى محيط هذه العائلة البهيج ! .. فقد طغت كآبة الجو النفسى للمكان على المباهج المادية المحيطة بى وجردتها من سحرها الدافىء الجميل ، وعزمت على أن ألتزم الحذر فى الاقدام على زيارة هذا البيت مرة ثالثة ..

واذ كانت مهمة الأكل قد انتهى أمرها ، ولم ينبس واحد منهم بكلمة فى حديث مما يتبادله الناس فى مثل هذه الاجتماعات ، فقد اقتربت من النافذة لأتبين حالة الجو .. ويا لسوء ما رأيت ! .. كانت ظلمة الليل قد أسدلت أستارها قبل الأوان ، واختلطت معالم السماء والتلال فى دوامة واحدة رهيبة من الرياح الصاخبة والثلج الكثيف الخانق .. فلم أتمالك نفسى من الصياح :

ـ ما أحسبنى استطيع العودة لمنزلى الآن بغير دليل ، فالثلج يوشك أن يغمر الطرق ويخفى معالمها ، وحتى لو ظلت مكشوفة ، فان الظلام من الحلكة بحيث لا أكاد أميز خطوة واحدة أمامى !

وكان هيثكليف يقول للشاب : « هيرتون .. عليك أن تسوق هذه الشياه الاثنى عشر الى رواق المخزن ، وتضع أمامها لوحا من الخشب ليمنع تسربها منه .. فسوف يغمرها الجليد اذا بقيت فى الحظيرة طول الليل .. »

واستطردت أقول وقد تزايد انفعالى :

ـ ماذا ترانى فاعلا الآن ؟

ولم يجب أحد على سؤالى ، فلما التفت خلفى لم أجد غير جوزيف وقد أتى يحمل دلوا به عصيدة للكلاب ، بينما كانت مسز هيثكليف منحنية فوق نار المدفأة وهى تتسلى باشعال

حزمة من عيدان الثقاب كانت قد سقطت من فوق رف الموقد عندما أعادت علبة الشاى الى موضعها فوقه .. فلما وضع جوزيف حمله على الأرض أخذ يجيل فى الحجرة نظرات فاحصة ناقدة ، وما لبث أن قال بصوته الحاد الذى يشبه الصرير :

ـ شد ما أعجب كيف يطيب لك الوقوف هنا فى بلادة وخمول بينما انصرف الجميع لشأنهم .. ولكنك طبعت على السوء ولا فائدة من الكلام معك ، فلن يجدى ذلك فى اصلاح مسلكك الذميم الذى سينتهى بك الى الشيطان رأسا كما سبقتك اليه أمك من قبل !

وخيل الى لحظة أن هذه الدرة من درر الفصاحة كانت موجهة لشخصى ، واذ كنت قد بلغت من الحنق والسخط حدا لا يحتمل المزيد ، فقد خطوت نحو الوغد العجوز وفى عزمى أن أركله بقدمى ركلة تلقى به الى خارج الحجرة ، لولا أن مسز هيثكليف ردتنى الى الصواب عندما سمعتها تجيبه :

ـ الا تخشى أيها الشيخ المنافق المفترى أن يصيبك مس من الشيطان كلما ذكرت اسمه على لسانك ؟ .. اننى انذرك بأن تكف عن اثارتى والا رجوته أن يختطفك فيسدى الى بذلك جميلا خاصا ! .. مهلا .. انظر يا جوزيف ..

وتناولت من فوق أحد الأرفف كتابا طويلا أسود اللون ، ثم استطردت تقول : « سوف أريك كيف تقدمت فى دراسة السحر الأسود وممارسته شأوا بعيدا ، ولن ألبث أن أجعل منه عما قريب موطئا سهلا لى !.. ان البقرة الحمراء لم تمت بمحض الصدفة يا جوزيف ، وآلام الروماتيزم التى تحل بك ليست من نفحات العناية الالهية ! »

فغمغم الشيخ لاهثا : « آه ! . الشريرة ! . الشريرة ! . اللهم نجنا من السوء ! »

ـ كلا أيها الخبيث .. فأنت طريد رحمته ! .. امش من هنا والا أصابك منى أذى جسيم .. سوف أصنع لكم جميعا

تماثيل من الشمع والصلصال ، ومن يجرؤ منكم على تجاوز الحدود التى أرسمها فسوف .. لا ، لن أقول ماذا سيحل به ، ولكنكم سوف ترون .. اذهب .. امش من هنا ، فهأنذا أسلط عليك نظراتى ..

واصطنعت الساحرة الصغيرة نظرات تفيض بالحقد والكراهية ملأت بها عينيها الجميلتين ، واذا بجوزيف يهرول خارجا ، وقد سرت فى بدنه رعدة فزع حقيقى ، وهو يتمتم أثناء انصرافه بالصلوات والدعوات التى تتخللها كلمة « يا للشريرة !.. يا للشريرة ! » .. بينما كنت أغالب الضحك ظنا منى بأن مسلكها ليس الا نوعا من المزاح الرهيب ..

فلما وجدت بعد ذلك أننا أصبحنا منفردين ، حاولت أن أثير اهتمامها بما أنا فيه من كرب .. فقلت فى لهفة :

– أرجو أن تغفرى لى ازعاجك يا مسز هيثكليف ، فانى على يقين من أنك – وأنت صاحبة هذا الوجه الصبوح – لا يسعك الا أن تكونى طيبة القلب عطوفا .. فهلا أرشدتنى الى بعض علامات الطريق حتى أستهديها السبيل الى منزلى ؟ .. اننى الآن ليست لدى أية فكرة عن طريق الوصول اليه ، اكثر مما يمكن أن يكون لديك عن طريق الوصول الى لندن !

فأجابت وهى تتهاوى على أحد المقاعد ومعها شمعة موقدة وذلك الكتاب الطويل الأسود مفتوحا :

– خذ الطريق التى قدمت منها ! .. هذه نصيحة موجزة ولكنها الوحيدة المجدية التى أستطيع أن أسديها اليك ..

– واذا سمعت أننى وجدت ميتا فى بركة ماء أو حفرة مليئة بالجليد ، فهلا يهمس لك ضميرك بأنك مسئولة عن ذلك الى حد ما ؟

– وكيف ذلك ؟ .. ليس فى وسعى أن أرافقك بنفسى ، وهم لن يسمحوا لى بالذهاب الى نهاية سور الحديقة ..

فهتفت قائلا :

ـ أنت ؟ .. انه ليسوؤنى أن أسألك اجتياز عتبة هذه الحجرة ، مرضاة لى ، فى مثل هذه الليلة .. انما وددت أن تدلينى على الطريق لا أن ترينى اياها .. أو تقنعى مستر هيثكليف بأن يرسل معى دليلا يرشدنى ..

ـ من تريد ؟ .. ليس هنا سواه وسوى أيرنشو وزيلا وجوزيف .. فأينا تريد أن يكون الدليل ؟

ـ ألا يوجد غلمان فى المزرعة ؟

ـ كلا ، هذه جماعتنا كلها ..

ـ اننى اذن مضطر الى البقاء هنا ..

ـ هذا أمر يمكنك أن تتفق عليه مع مضيفك ، أما أنا فلا شأن لى به ..

وعندئذ انبعث صوت هيثكليف الصارم من ناحية المطبخ وهو يصيح بى :

ـ لعل لك فى ذلك درسا يعلمك ألا تقوم بمزيد من تلك الجولات الطائشة بين هذه التلال . أما عن بقائك هنا ، فليس لدى معدات لايواء الضيوف ، وعليك أن تشاطر هيرتون أو جوزيف فراشه اذا فعلت ..

ـ يمكننى أن أنام على مقعد فى هذه الحجرة ..

فأجابنى الشقى البذىء اللسان :

ـ كلا .. كلا .. فالغريب غريب سواء أكان غنيا أم فقيرا .. وليس مما يوافقنى أن أبيح حرمات مسكنى لكائن من كان عندما أكون غافلا عنه !

وبلغ صبرى نهايته بهذه الاهانة الصارخة ، فصحت معربا عن اشمئزازى ، واندفعت أتخطاه نحو الفناء ، مرتطما بأيرنشو فى عجلتى ، فقد كان الظلام من الحلكة بحيث لم أتبين مسالك الخروج .. وبينما كنت أهيم على وجهى فى الظلام سمعت (عينة) أخرى من المجاملات الرقيقة المهذبة التى يتبادلونها فيما بينهم ! . فقد لاح الشاب بادىء ذى بدء مظاهرا لى

متطوعا لنصرتى ، اذ قال :

ــ سوف أذهب معه حتى المتنزه ..

فصاح به سيده ــ أو كيفما كانت الصلة التى بينهما ــ قائلا :

ــ سوف تذهب معه الى الجحيم ! .. ومن الذى سيعنى بالجياد ؟

فغمغمت مسز هيثكليف فى رقة كانت أكثر مما توقعت :

ــ ان حياة رجل لهى أكثر أهمية من اهمال الجياد ليلة واحدة .. ولا بد لشخص ما أن يذهب معه ..

فتحول هيرتون نحوها قائلا فى غلظة :

ــ لن أذهب بأمر منك ! .. واذا كنت تقيمين وزنا له ، فخير لك أن تصمتى ..

فأجابته فى حدة :

ــ أرجو أن يراود شبحه أحلامك اذن ! .. كما أرجو ألا يجد مستر هيثكليف مستأجرا آخر للجرانج حتى يصبح ركاما وأنقاضا !

وعندئذ غمغم جوزيف ، الذى كنت أتقدم ناحيته ، قائلا :

ــ اسمعوا ! . اسمعوا ! . انها تصب اللعنات عليهم !

وكان يجلس على مرمى السمع منا ، يحلب الأبقار فى ضوء فانوس يضعه على الأرض بجانبه ، فبادرت الى التقاطه دون استئذان أو اعتذار ، واندفعت نحو أقرب باب جانبى فى السياج ، وأنا أهتف بهم اننى سوف أعيده لهم فى الغد ..

ولكن الشيخ المأفون انطلق يصيح وهو يطاردنى :

ــ يا سيد ! .. يا سيدى ! .. لقد سرق الفانوس ! .. هيا يا « جناشر » ، هيا يا وولف اذهبا وراءه .. امسكاه !

وهكذا ما كدت أهم بفتح الباب الصغير ، حتى كان الوحشان ذوا الشعر الكثيف قد انقضا على عنقى ، فألقيا بى الى الأرض ، وانطفأ المصباح ، بينما انفجر هيثكليف وهيرتون

معا يقهقهان فى سرور وابتهاج جعل شعورى بالغضب والهوان يبلغ الذروة .. ومن حسن الحظ أن الوحشين كانا أكثر اهتماما بالزمجرة والنباح ، ونشر مخالبهما ، والتلويح بذيليهما ، من تذوق لحمى وهما ينهشانى حيا ! .. ولكنهما ما كانا يطيقان منى حركة أو نهوضا ، فاضطررت برغمى أن أظل راقدا فى مكانى حتى طاب لسادتهما الأشرار أن يخلصونى من هذا الكرب .. ووقفت أنتفض حنقا وغيظا ، وقد طارت قبعتى ، فرحت أهيب باللئام أن يدعونى انصرف على الفور – والا تعرضوا لخطر جسيم اذا احتجزونى دقيقة واحدة أخرى ! – كما انثالت من فمى عبارات الوعيد والتهديد ، مختلطة غير متناسقة أشبه بالهذيان ، منذرة اياهم بالانتقام الرهيب ، فكانت بما تنطق به من حقد عميق غير ذى قرار ، أشبه بأقوال الملك لير بطل شكسبير المعروف !

واشتد بى الانفعال ، واستعر أوار الغضب ، حتى سال الدم من أنفى غزيرا ، وما زال هيثكليف يقهقه مسرورا ، وما زلت ماضيا فى التعنيف والتأنيب .. ولست أدرى كيف كان يمكن أن ينتهى هذا المشهد ، لولا تدخل شخص أكثر منى تعقلا وأكثر من مضيفى رحمة واحسانا .. تلك هى زيللا – مدبرة المنزل البدينة – التى **اندفعت** أخيرا من داخل الدار لتسأل عن سبب هذه الجلبة .. وكانت تظن أن بعضهم قد اعتدى على اعتداء عنيفا ، واذ كانت لا تجرؤ على مهاجمة سيدها ، فقد مضت تطلق « مدفعية » لسانها على الوغد الصغير ، وهى تصرخ قائلة :

– الله الله يا مستر أيرنشو ! .. انى لأتساءل عما أنت بسبيله بعد ذلك ! .. ترى هل بلغ بنا الأمر الى حد ذبح الناس على عتبة دارنا ؟ .. أرى أن هذا المنزل لم يعد يصلح لى بعد الآن ! .. انظر الى الفتى المسكين .. انه يوشك على الاختناق .. تعال يا هذا .. تعال .. فما ينبغى أن تذهب وانت

على هذه الحال .. أدخل ، وسوف أعالجك مما حل بك .. والآن ، أمسك نفسك !

واذ كانت تنطق بهذه الكلمات الأخيرة ، أراقت فوق رأسى فجأة اناء من الماء المثلج ، انحدر فوق ظهرى ، ثم جذبتنى الى داخل المطبخ .. وتبعنا مستر هيثكليف ، وقد تلاشى مرحه العارض سريعا ، وحل محله ذلك التجهم المألوف ..

ولما كنت فى أسوأ حالات المرض ، وقد حل بى الدوار والاعياء ، فقد اضطررت رغم انفى الى قبول البقاء تحت سقف منزله .. أما هو فقد أمر « زيللا » بأن تعطينى كأسا من البراندى ، وما لبث أن توارى فى الحجرات الداخلية .. وفيما كانت المرأة الطيبة تشاطرنى الأسى على ما أصابنى من سوء الحال ، وقد بدأت انتعش قليلا على أثر الشراب الذى قدمته لى تلبية لأمر سيدها ، راحت تساعدنى فى الوصول الى الفراش ..

الفصل الثالث

أوصتنى زيللا ، وهى تتقدمنى على الدرج ، بأن أخفى ضوء الشمعة، وألا أحدث صوتا يكشف أمري ، اذ أن لسيدها رأيا عجيبا فى الحجرة التى كانت تود ان تضعنى فيها ، ولا يرضى بالسماح لأى انسان بأن يدخلها .. وسألتها عن السبب فأجابتنى بأنها لا تعرف لذلك سببا ، فلم تقض فى هذا المنزل الا عاما أو عامين ، كما أن أعمالهم الغريبة المحيرة كانت من الكثرة بحيث لا تستطيع ملاحقتها بالفضول وحب الاستطلاع !

واذ كان الاعياء والحذر قد نالا منى بما لا يجعلنى أهلا للفضول بدورى ، فقد أغلقت باب الحجرة وتلفت حولى باحثا عن الفراش .. كان أثاث الحجرة كله مؤلفا من مقعد واحد وصوان صغير للثياب ، ثم خزانة كبيرة من خشب البلوط

ذات فتحات مربعة فى أعلاها أشبه بنوافذ العربات .. فاقتربت من تلك الخزانة وتطلعت بداخلها فوجدتها نوعا فريدا من المضاجع العتيقة الطراز ، أقيمت على نحو ملائم لتماشى ضرورة تخصيص حجرة لكل فرد من أفراد العائلة .. والواقع أنها كانت مخدعا صغيرا ، كما كانت قاعدة النافذة التى تقع بداخلها تصلح كمنضدة .. ودفعت مصراع الباب المنزلق ، ثم دخلت تلك المقصورة ومعى الشمعة المضيئة ، ورددت الباب الى مكانه فأغلقته .. وعندئذ فحسب شعرت بالطمأنينة والأمن من رقابة هيثكليف الصارمة ، وكل انسان سواه !

وكانت قاعدة النافذة ، حيث وضعت شمعتى ، تحوى فى ركن منها كومة من الكتب قليلة العدد تعلوها الرطوبة والعفن ، كما كانت هى نفسها مغطاة بكتابة مختلفة تخدش طلاءها .. ومع ذلك فلم تكن تلك الكتابة الا اسما واحدا تكرر نقشه بمختلف أنواع الحروف ، الكبيرة والصغيرة ، فكنت أرى تارة « كاثرين أيرنشو » ، ثم يتغير الى « كاثرين هيثكليف » ، ويتغير من جديد الى « كاثرين لينتون » .. الخ

أسندت رأسى الى النافذة فى تراخ وخمول ، ومضيت أعيد هجاء اسم كاثرين أيرنشو ـ هيثكليف ـ لينتون ، مرة تلو الأخرى ، حتى غمضت عيناى .. ولكنى ما كدت أغفو خمس دقائق ، حتى انبثق من الظلام وميض ساطع من الحروف البيضاء التى راحت تتراقص كالأشباح الوثابة وتملأ الجو باسم كاثرين على مختلف صوره وأشكاله ! .. فجاهدت حتى أيقظت نفسى لأطرد ذلك الاسم الدخيل ، وعندئذ تبينت أن ذبالة الشمعة قد مالت على أحد الكتب العتيقة وعطرت المكان برائحة الجلد المحترق ! .. فسحقت طرف الفتيل بين أصابعى ، وجلست مكروبا مما أعانيه من البرد والغثيان ، ناشرا الكتاب المعطوب فوق ركبتى ، فوجدته نسخة من التوراة طبعت بحروف صغيرة ، تفوح منه رائحة العطن المروعة ، ووجدت

فى أوله صفحة بيضاء تحمل هذه العبارة: « هذا كتاب كاترين أيرنشو » ، ثم تاريخا يصل الى ربع قرن مضى .. وما لبثت أن تركته ورحت أتناول باقى الكتب واحدا بعد الآخر ، حتى فحصتها جميعا ، ووضح لى أن « كاترين » هذه كانت تعنى بانتقاء مكتبتها ، كما تبينت من رثاثة الكتب أن صاحبتها كانت تحسن استعمالها ، وان كان ذلك فى غير أغراض القراءة فحسب .. فقلما كان يخلو فصل من فصول هذا الكتاب أو ذاك من تعليقات – أو هذا ما يبدو ، على الأقل – كتبت بالمداد فى كل فراغ تركته المطبعة ! .. وكان البعض لا يعدو جملا غير متماسكة ، بينما اتخذ البعض الآخر شكل مذكرات يومية منتظمة ، كتبت بخط صبيانى سقيم .. وشد ما ابتهجت عندما رأيت فى الجزء العلوى من ورقة بيضاء خالية من الكتابة ، (لعلها اعتبرت كنزا ثمينا عندما اكتشف أمرها أول مرة) ، رسما كاريكاتوريا بديعا لصديقنا جوزيف، كان بالغ الاتقان رغم بدائيته ! .. وكأنما أضرم ذلك نيران الاهتمام فى نفسى بكاترين المجهولة ، فبدأت على الفور أفك رموز خطها الهيروغليفى الباهت ، وكان أول ما طالعنى منه :

« انه يوم أحد فظيع ! .. ولكم أود أن يعود أبى ثانية ، فان (هندلى) ينوب عنه على نحو بغيض .. ومسلكه نحو هيثكليف يزداد شناعة ... لذا عزمت أنا وهيثكليف على التمرد .. وخطونا الخطوة الأولى هذا المساء . كان المطر ينهمر طول اليوم غزيرا ، فلم نستطع الذهاب الى الكنيسة ، ومن ثم كان لا بد لجوزيف من أن يجمعنا للصلاة فى المخزن العلوى الصغير .. وبينما كان هندلى وزوجته يستمتعان بالجلوس فى الطابق السفلى أمام نار المدفأة المريحة – وأقسم انهما كانا يفعلان أى شىء الا القراءة فى الانجيل – كنت أنا وهيثكليف وصبى الحقل المسكين نتلقى الأمر بحمل كتب الصلوات والصعود الى المخزن العلوى حيث جلسنا صفا

واحدا ، فوق زكيبة ملأى بالقمح ، ونحن نئن ونتأوه ونرتجف من البرد ، وندعو الله أن تمشى القشعريرة فى بدن جوزيف أيضا لعله يوجز فى العظة التى سيلقيها على مسامعنا .. ولكنه كان أملا خائبا ! .. فقد دام القداس ثلاث ساعات كاملة .. ومع ذلك كان أخى من الصفاقة بحيث صاح متعجبا ، وهو يرانا نهبط الدرج : « ماذا ؟ .. هل انتهت الصلاة بهذه السرعة ؟ »

« وكان مباحا لنا عادة ، فيما مضى ، أن نقضى أمسيات أيام الآحاد فى اللعب ، على شرط ألا نثير جلبة أو ضوضاء .. أما الآن فالضحكة الخافتة تكفى لارسال كل منا ليركع فى ركن قصى . وكان الطاغية يقول : « انكما تنسيان أن لكما سيدا هنا .. ولكنى سوف أسحق أول من تسول له نفسه أن يخرجنى عن طورى .. اننى مصر على الهدوء الشامل والصمت المطلق .. آه ! . هل أنت الذى فعلت هذا يا ولد ؟ .. فرانسيس يا عزيزتى ، شديه من شعره عند مرورك به فقد سمعته يطقطق أصابعه ! .. » فجذبته فرانسيس من شعره عن طيب خاطر ، ثم مضت لتجلس على ركبتى زوجها ، حيث مكثا ساعة يتضاحكان ويتبادلان القبل والأحاديث الفارغة كأنهما طفلان غريران ، فى مداهنة سخيفة يخلق بنا أن نخجل منها ! .. أما نحن فقد قبعنا فى فجوة (البوفيه) ، ودبرنا لنفسينا جلسة مريحة بقدر ما سمحت به امكانياتنا فى هذا المكان الضيق .. وكنت قد ربطت مرولتينا معا ، وعلقتهما ستارا ، عندما قدم جوزيف من جولته فى حظائر الماشية ، فاذا به يجذب الستار فينتزعه من مكانه ، ثم يلطمنى ويقول فى صوت كنقيق الضفادع : « ان السيد لم تجف دماؤه فى قبره بعد ، ولم ينقض يوم الأحد المقدس ، وما زال صوت تلاوة الانجيل فى آذانكما ، ومع ذلك تجسران على اللعب والضحك ؟ .. العار لكما واللعنة عليكما ! .. اجلسا فى سكون أيها الطفلان

الفاسدان ، فهناك كتب طيبة تكفيكما للقراءة اذا أردتما .. اجلسا خاشعين وفكرا فى صلاح روحيكما الشريرتين ! »

« واذ قال ذلك أرغمنا على الجلوس فى وضع يتيح لنا أن نتلقى شعاعا خافتا من وهج المدفأة البعيدة يكفى لأن نتبين سطور الكتب السخيفة التى ألقى بها الينا .. ولم أستطع احتمال هذا التكليف ، فأمسكت بالكتاب القذر الذى كان من نصيبى وطوحت به الى وجار الكلب مقسمة على أننى أمقت الكتب الطيبة ! .. أما هيثكليف فقد رمى بكتابه الى نفس المكان ولكن بركلة من قدمه .. وعندئذ انقضت الصاعقة ، فقد صاح قسيسنا الورع :

— يا سيد .. يا مستر هندلى ! . تعال الى هنا حالا ! .. لقد مزقت مس كاثى ظهر غلاف « درع الخلاص » .. ووضع هيثكليف قدمه على الجزء الأول من « الطريق الفسيحة نحو الدمار ! » .. انه لعار كبير أن تتركهما يمعنان فى هذا المسلك الذميم .. آه ! . ان الرجل العجوز ما كان ليدعهما دون علقة ساخنة .. ولكنه ذهب !

« فأسرع الينا هندلى من فردوسه بجوار المدفأة ، وأمسك أحدنا من قفاه ، والآخر من ذراعه ، ثم قذف بنا الى المطبخ الخلفى حيث أكد لنا جوزيف تأكيدا قاطعا بأن الشيطان سوف يأتى فى طلبنا .. واذ ارتاح بالنا الى ذلك ، مضى كل منا الى أحد الأركان وجلسنا ننتظر مقدمه ! .. أما أنا فقد أخذت هذا الكتاب ومحبرة كانت فوق رف فى المطبخ ، وفتحت باب المنزل قليلا ليسمح بدخول الضوء ، وظللت أكتب نحو عشرين دقيقة .. وأما رفيقى فقد نفد صبره واقترح أن نستولى على معطف المرأة التى تمخض الزبد ، ونحتمى به من المطر ثم نمضى لنركض بين البرارى — وهو اقتراح لطيف حقا ، فلو حضر عندئذ العجوز ذو السحنة الكئيبة فربما اعتقد أن

نبوءته قد تحققت ــ ولن نزداد بللا أو بردا تحت المطر عما نحن عليه هنا .. »

. . . .

وأحسب أن كاثرين قد نفذت مشروعها ، لأن العبارة التى تلت ذلك طرقت موضوعا آخر .. ويبدو أنها كتبتها والدموع تنهمر من عينيها ، قالت :

« ما كنت أحلم البتة أن هندلى سوف يجعلنى أبكى بمثل هذه الحرقة يوما من الأيام ! .. ان رأسى يؤلمنى ألما شديدا حتى لا أكاد أطيق وضعه فوق الوسادة ، ومع ذلك لاأستطيع أن أكف عن البكاء .. يا لهيثكليف المسكين ! .. ان هندلى يصفه بالمتشرد ، ولا يريد أن يدعه يجلس معنا أو يأكل معنا بعد الآن ... كذلك يقول اننى وهيثكليف لا ينبغى أن نلعب معا ، وينذر بطرده من المنزل اذا عصينا أوامره .. بل لقد راح يوجه اللوم لوالدنا (رباه ! . كيف يجرؤ على ذلك ؟) لأنه أحسن معاملة هيثكليف ، ثم أقسم بأن يلزمه حده ويضعه فى الموضع اللائق به ! »

. . . .

وبدأ النعاس يراود أجفانى ، فهومت فوق صفحة الكتاب المعتمة ، وسرح بصرى من الكتابة المخطوطة الى الحروف المطبوعة ، فرأيت عنوانا طبع بالمداد الأحمر على سبيل الزخرفة ، كان نصه : « سبعون فى سبعة (١) ، وأول الواحد والسبعين الأولى !..عظة تقية ألقاها المحترم جابس براندرهام فى كنيسة جيمردون صو . » وبينما كنت أكد عقلى ، وأنا بين النوم واليقظة ، لاستنتاج ما يمكن أن يعالجه جابس براندرهام فى موضوعه هذا ، تهاويت على الفراش واستغرقت

(١) اشارة الى عدد المرات التى أوصى الانجيل بأن يغفرها الانسان لمن يخطىء اليه ، فقد ورد فى انجيل متى (١٨ – ٢١) : « حينئذ تقدم بطرس الى المسيح وقال : يا رب كم مرة يخطىء الى اخى وانا اغفر له . هل الى سبع مرات؟ قال له يسوع لا اقول لك الى سبع مرات بل الى سبعين مرة سبع مرات. »

فى النوم .. ولكن واأسفاه ! .. لقد تآمرت على آثار الشاى الردىء والخلق السيىء ! والا فأى شىء آخر يمكن أن يجعلنى أقضى مثل هذه الليلة المروعة ؟.. اننى لا أذكر البتة ليلة أخرى أستطيع مقارنتها بهذه ، منذ أن ادركت معنى الاحساس بالألم والفزع .. !

وقد بدأت الأحلام تطيف بى ، حتى قبل أن انقطع عن الشعور بالمكان الذى أرقد فيه .. فخيل الى أن الصباح قد حل ، واننى خرجت منصرفا الى منزلى ، ومعى جوزيف مرشدا لى .. وكان الثلج يغمر طريقنا ، عميقا كثيفا ، فكنا نتخبط فى مسيرنا ، عند ما أخذ رفيقى يضجرنى بلومه المتكرر لى اذ لم أحضر معى « عكاز الحاج » ، قائلا اننى لن أستطيع دخول الدار مالم يكن معي واحد منها ، بينما كان فى الوقت نفسه يلوح فى زهو بهراوة ضخمة ذات رأس ثقيل ، فهمت أنها هى التى يطلق عليها هذا الاسم .. وظللت لحظة أعدها سخافة بالغة منه أن يزعم احتياجى لمثل هـذا السلاح حتى استطيع دخول منزلى الخاص .. وما لبثت أن ومض فى فكرى خاطر جديد : اننى لست ذاهبا الى هناك ، وانمـا نحن نمضى الى حيث نسمع السيد جابس براندرهام الشهير يلقى عظتـه : « سبعون فى سبعة » ، وان واحدا منا ـ جوزيف ، أو الواعظ أو أنا ـ قد يكون « أول الواحد والسبعين الأولى » .. واننا سـوف يشهر بنا علانية ، وتوقع علينـا عقوبة الحرمان من الكنيسة ..

ووصلنا الى الكنيسة .. وكنت قـد مررت بها فى اليقظة أثناء جولاتى بين البرارى ، مرتين أو ثلاثا .. وهى تقع فيما يشبه الكهف المرتفع ، على مستشرف من الأرض ، بين تلين ، بالقرب من مستنقع يقال أن النفايات الرطبة التى تملؤه تفى بجميع أغراض التحنيط للجثث القليلة التى أودعت الأرض هناك ! .. وقد ظل سقف الكنيسة قائما حتى الآن ، ولـكن

لما كانت مخصصات القس لا تعدو عشرين جنيها فى العام ، ومنزلا من حجرتين ينذر الجدار الفاصل بينهما بتحويلهما عاجلا الى حجرة واحدة ، فان أحدا من رجال الدين لم يعد يقبل القيام بأعباء وظيفة القس لهذه الكنيسة ، سيما وقد ذاع أمر تلك الحقيقة الواقعة ، وهى أن قطيع رعيته يفضل أن يدعه يموت جوعا على زيادة راتبه بنسا واحدا يدفعونه من جيوبهم ! .. ومهما يكن من أمر ، فقد كان الاجتماع الذى عقده جابس ، فى الحلم ، حافلا بحشد من المستمعين الذين أرهفوا سمعهم له .. وبدأ يلقى عظته .. يا الهى !.. أى قداس هذا ؟ .. لقد قسمه الى أربعمائة وتسعين قسما ، كل منها من الامتلاء بحيث يكفى خطبة منبرية عادية ، وكل يناقش خطيئة مستقلة !.. ولست أدرى من أين أتى بكل هذا العدد من الخطايا ؟ .. كذلك كانت له طريقته الخاصة فى تفسير عبارته ، فكان يبدو أن « الأخ » منا لابد أن يأثم عدة آثام مختلفة فى أية مناسبة .. وكانت كلها ذات طابع مفرط فى الغرابة ، وكلها خطايا عجيبة لم تخطر لى على بال قط من قبل !

أواه ! .. ما أشد الكلال الذى حل بى ! .. فكم تلويت ، وتثاءبت ، وهومت ، ثم انتعشت ! .. وكم قرصت نفسى ، ونخست جلدى ، وفركت عينى ، وكم نهضت ثم جلست ، وكم وكزت جوزيف بمرفقى ليخبرنى بما اذا كان القس المحترم سوف يفرغ من عظته قط !.. ولكن كان قد قضى على بأن أسمعها كلها .. وأخيرا بلغ « أول الواحد والسبعين الأولى »! .. وعند هذه المصيبة الداهمة ، هبط على الوحى فجأة وشعرت بدافع يحركنى للقيام واتهام جابس براندرهام باقتراف الخطيئة التى لا يحتاج المؤمن معها الى غفران .. فهتفت أقول :

– لقد احتملت يا سيدى ، وأنا أجلس بين هذه الجدران

الأربعة فى وضع واحد لا يتغير ، رؤوس مواضيع خطبتك الاربعمائة والتسعين ، وغفرتها لك ! .. كنت ، سبعين مرة فى سبع ، أختطف قبعتى وأوشك على الانصراف .. ولكنك كنت ، سبعين مرة فى سبع ، ترغمنى - على نحو لا يصدقه العقل - على استعادة مقعدى .. والاربعمائة والتسعون الأولى هى أكثر مما نطيق .. أيها الاخوة الشهداء ، عليكم به ! .. جروه من منبره ، واسحقوه سحقا حتى تحولوه الى ذرات ، وحتى لا يعود المكان الذى طالما عرفه من قبل ، يعرفه بعد ذلك ..

وتمهل جابس لحظة وهو يحدجنى فى رصانة وقد اتكأعلى وسادته ، وما لبث أن صاح فجأة :

- أنت الرجل المنشود ! .. لقد كنت ، سبعين مرة فى سبع ، تفغر فاك متثائبا ، فيتقلص وجهك .. ولكنى ظللت ، سبعين مرة فى سبع ، أراجع نفسى ، وأتشاور مع روحى !.. أنظروا .. هذا ضعف بشرى ! .. وهو أيضا مما يمكن غفرانه ! .. لقد أتى أول الواحد والسبعين ، أيها الأخوة ، فهاكم نفذوا فيه العقاب المكتوب .. انه شرف لا يناله الا القديسون !

وعند هذه العبارة الختامية ، اندفع الجمع كله محيطا بى فى كتلة واحدة ، وقد رفع كل منهم « عكاز الحاج » الذى يحمله .. واذ كنت لا أحمل سلاحا أرفعه دفاعا عن نفسى ، فقد بدأت أناضل جوزيف ، الذى كان أقرب المهاجمين لى وأشدهم ضراوة ، محاولا انتزاع عكازه .. وفى غمرة هذا الحشد الزاخر ، كانت الهراوات تتقارع معا ، وكانت اللطمات الموجهة الى تهوى على رؤوس وجماجم أخرى ! .. وما لبثت الكنيسة كلها ان أصبحت تردد صدى رنين الطرقات والطرقات المضادة ، وأصبحت يد كل رجل مرفوعة على جاره .. أما براندرهام ، الذى لم يرد البقاء عاطلا ، فقد تدفقت حميته

فى وابل من الدقات العالية على ألواح منبره ، كان لها دوى ورنين بحيث أدت فى النهاية ، لفرط ارتياحى الصامت ، الى ايقاظى من النوم ! .. وماذا كان ذلك الشىء الذى أوحى بهذه الضجة الهائلة ؟..ما الذى لعب دور جابس فى ذلك الشغب ؟ .. انه لم يكن الا غصنا من شجرة شربين ، كان يمس نافذتى كلما هبت الريح ، فتقرع ثماره الجافة زجاج النافذة .. ورحت أصغى لحظة ، بين الشك واليقين ، حتى تحققت من سبب انزعاجى ، فاستدرت فى الفراش وأغفيت من جديد.. وعندئذ بدأت أحلم ثانية ، فكان حلما أشد سوءا من سابقه !

فى هذه المرة رأيتنى أرقد فى خزانة البلوط ، وأسمع فى وضوح زفيف الرياح وهطول الثلوج ، وأسمع كذلك غصن الشربين اللعين وهو يعود الى معاكساته الصوتية السابقة ، فكنت أنسبها الى مصدرها الحقيقى .. ولكنه أضجرنى كثيرا الى حد جعلنى أصمم على اسكاته ما استطعت .. وخيل الى أننى نهضت من رقادى ، وحاولت رفع مزلاج النافذة ، فوجدت الخطاف مثبتا فى الحلقة باللحام ــ وهى حالة لاحظتها فى يقظتى ونسيتها فى الحلم ! ــ فغمغمت محنقا : « لابد لى من اسكاته مع ذلك » .. ثم دفعت قبضة يدى فى النافذة دفعة قوية اخترقت الزجاج ، ومددت ذراعى الى الخارج لأمسك بالغصن اللجوج ، فاذا بأصابعى تطبق ــ بدلا منه ــ على أصابع يد صغيرة باردة كالجليد ! .. وأصابنى هذا الكابوس بفزع هائل غزير ، وحاولت أن أجذب يدى الى داخل النافذة ، ولكن اليد الصغيرة تعلقت بها فى قوة ! واذا بصوت يفيض بالحزن والألم يغمغم بما يشبه الأنين ، قائلا : « دعنى أدخل .. دعنى أدخل » ، فسألت وأنا لا أكف عن النضال لتخليص يدى : « ومن أنت ؟ » فأجاب الصوت فى نبرات متهدجة : « كاثرين لينتون » .. (لست ادرى لماذا فكرت فى اسم « لينتون » مع اننى قرأت اسم « ايرنشو » أكثر من

لينتون عشرين مرة ؟ !) . واستطرد الصوت الحزين يقول : « ها أنذا أعود الى منزلى ، وكنت قد ضللت طريقى بين البرارى والأحراش » ، وبينما كان يقول ذلك تبينت وجه طفلة صغيرة ، غير واضح المعالم تماما ، يطل على من خلال النافذة .. فأمدنى الفزع المروع بقسوة رهيبة ، فاننى عندما وجدت محاولاتى لدفع هذا المخلوق الفظيع بعيدا ، غير مجدية ، جذبت معصمه نحو حافة الزجاج المحطم ورحت أحكه ذهابا وجيئة حتى انبثق الدم منه وتدفق على الفراش .. وكان لا يزال ينوح : « دعنى أدخل » ، وهو يتشبث بقبضته الباردة على أصابعى ، فكاد الفزع يؤدى بى الى الجنون ، وأخيرا قلت : « وكيف أستطيع ؟ .. خل عنى أولا اذا شئت أن أدعك تدخل ! » .. وعندئذ تراخت الأصابع النحيلة ، فأسرعت بسحب يدى الى الداخل خلال الثغرة ، وأخذت أكوم الكتب فى صف هرمى أمامها ، ثم سددت أذنى لأحول دون بلوغ هذه التوسلات الأليمة الى مسامعى .. وخيل الى أننى مكثت أسدهما زهاء ربع ساعة ، ومع ذلك ففى اللحظة التى رحت أصغى فيها ثانية ، عادت صيحات الأنين الأليمة تتردد من جديد ، فصحت قائلا : « اذهبى لحالك ، فلن أدعك تدخلين قط ، ولو ظللت تتوسلين عشرين عاما ! » .. فقال الصوت الحزين : « انها عشرون عاما ! .. عشرون عاما ! .. لقد لبثت ضالة شريدة عشرين عاما ! .. » وفى الوقت نفسه بدأت أسمع صرير احتكاك خافت فى الخارج ، وأخذت كومة الكتب تترنح كأن يدا تدفعها .. فحاولت أن أقفز من الفراش ، ولكننى عجزت عن تحريك جارحة فى جسدى ، فأطلقت صيحة مدوية ، وقد غمرنى فزع جنونى .. وسرعان ماتبينت ، فى خزى وارتباك ، أننى انما أرسلت صيحة حقيقية ، ليست من تصوير الخيال فى الحلم ، اذ سمعت وقع أقدام مسرعة تقترب من باب الحجرة ، واذا

بشخص يدفع الباب بيد قوية فيفتحه ، بينما أخذ بصيص خافت من الضوء يلوح خلال الفتحات المربعة بأعلى الخزانة. وجلست فى الفراش ، والرعدة ماتزال تسرى فى بدنى ، أجفف العرق المتصبب من جبينى .. وبدا التردد على الداخل ، وكان يغمغم بكلمات غير مفهومة كأنما يحدث نفسه ، حتى قال أخيرا فيما يشبه الهمس ، وفى لهجة من لا يتوقع أن يسمع جوابا : « هل من أحد هنا ؟ » وقدرت أن من الخير أن أعترف بوجودى ، لأننى تبينت صوت هيثكليف ولهجته ، وخشيت أن يمضى فى تفتيش الحجرة لو لبثت صامتا .. واذ استقر عزمى على ذلك ، استدرت وفتحت باب الخزانة المنزلق ..

ولن أنسى ما حييت ما أحدثته هذه الحركة من أثر !

كان هيثكليف يقف بالقرب من المدخل ، يرتدى قميصه وسراويله ، ويحمل فى يده شمعة تتساقط قطراتها الذائبة على أصابعه ، وقد شحب وجهه حتى غدا فى لون الجدار الأبيض القائم خلفه ! .. وما أن انبعث صرير الخشب وأنا أفتح الباب ، حتى أجفل مرتاعا كأنما أصابته صدمة كهربائية ، وطارت الشمعة من يده الى مسافة بضعة أقدام ، فبلغ من شدة اضطرابه أنه لم يستطع التقاطها الا بصعوبة بالغة ..

وودت أن أجنبه هوان الظهور بمظهر الجبان الرعديد بعد ذلك ، فهتفت قائلا : « انه ليس الا ضيفك يا سيدى !.. ومن سوء الحظ اننى صرخت أثناء نومى بسبب كابوس مخيف أصابنى .. وانى آسف اذا كنت قد أزعجتك ! »

فوضع مضيفى الشمعة على أحد المقاعد ، بعد أن تبين استحالة حملها فى يده ثابتة ، وبدأ يقول : « يا الهى ! .. أخزاك الله يا مستر لوكوود ! .. ألا ليتك كنت فى .. »

وكان يغرس أظافره فى راحتيه ، ويشدد الضغط على أسنانه ليخفى رعدة فكيه ، وهو يستطرد قائلا :

— ومن الذى أرشدك الى هذه الحجرة ؟ .. من هو ؟ ..

فقد استقر عزمى على طرده من البيت فى التو واللحظة !

فقفزت من الفراش الى الأرض ، ورحت أجمع ثيابى فى عجلة وأهم بارتدائها ، قائلا :

ـ انها خادمتك زيللا .. ولن أبالى اذا طردتها يا مستر هيثكليف ، فانها تستحق ذلك عن جدارة ! .. وأحسبها أرادت الحصول على دليل جديد ـ على حسابى ـ بأن المكان تسكنه الأرواح الشريرة .. حسنا ! .. انه يموج بالأشباح والعفاريت فعلا ! .. وقد أحسنت صنعا باغلاقك هذه الحجرة ومنعك أحدا من دخولها ، فان أحدا لن يحمد لك أن تأخذه سنة من النوم فى وكر الشياطين هذا !

فقال هيثكليف : « ما الذى تعنيه ؟ .. وما هذا الذى تفعله ؟ .. ألا عد الى فراشك وأتمم ليلتك مادمت هنا .. ولكن بحق السماء لا تكرر هذه الضجة الفظيعة ، فما من شىء يمكن أن يبررها الا أن يكون هناك من حاول ذبحك ! »

ـ لو أن تلك الشيطانة الصغيرة استطاعت الدخول من النافذة لخنقتنى على الأرجح ! .. ولكن ليس فى نيتى أن أحتمل المزيد من قسوة أسلافك الكرام الميامين مرة أخرى . ألم يكن المحترم جابس براندرهام من أخوالك ؟ .. وتلك الشيطانة الصغيرة ، « كاثرين لينتون » ـ أو « أيرنشو » ، أو كيفما كان اسمها ـ لا ريب أنها كانت ذات روح خبيثة متقلبة . لقد أخبرتنى أنها ظلت تذرع الأرض طوال هذه الأعوام العشرين ، ولعمرى أنه لجزاء حق على خطاياهاالمميتة ، ما فى ذلك شك أو ريب !

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى ذكرت اقتران اسم هيثكليف باسم كاثرين فى الكتاب الذى كان قد تسرب من ذاكرتى حتى عاد اليها ثانية على هذا النحو .. وأحسست بالخجل والخزى لقلة تبصرى ، ولكنى ، دون أن أظهر شيئا من الشعور بجرمى ، أسرعت أتابع القول : « الحقيقة ياسيدى

هى أننى قضيت الشطر الأول من الليل فى .. »

وعند هذا الحد توقفت ثانية ، فقد كنت على وشك أن أقول : « فى تصفح هذه الكتب القديمة » ، وبذلك كنت أفشى علمى بمحتوياتها من الكتابة المطبوعة والمخطوطة .. فتراجعت ومضيت أقول : « .. فى هجاء الاسم المنقوش على حافة النافذة ، مرة بعد مرة ، وهى كما ترى مهمة رتيبة قصدت منها جلب النوم الى جفونى ، كعد الأرقام أو .. »

.. واذا بهيثكليف يقاطعنى فى صوت كقصف الرعد ، وقد تملكته سورة غضب ضارية : « ماذا يمكن أن يكون قصدك من مخاطبتى على هذا النحو ؟ .. كيف ؟ .. كيف تبلغ بك الجرأة الى هذا الحد ، وتحت سقف بيتى ؟ .. يا الهى ! . لابد أنه مجنون اذ يقول ذلك ! »

وراح يقرع جبهته فى غضب مروع .. أما أنا فقد حرت بين استنكار لهجته ، أو متابعة تفسيرى لما حدث .. ولكنه كان يبدو من شدة التأثر وعمقه ، بحيث أشفقت عليه واستطردت فى الحديث عن أحلامى ، مؤكدا أننى لم أسمع قط باسم « كاثرين لينتون » من قبل ، ولكن ادمانى قراءته مرة بعد مرة طبع فى ذهنى أثرا لم يلبث أن تجسد على هيئة شخص عند ما لم تعد لى أية سيطرة على خيالى ..

وكان هيثكليف ، أثناء حديثى ، يتقهقر خطوة بعد أخرى الى ما وراء الفراش ، وما لبث أخيرا أن جلس على الأرض حتى كاد الفراش يحجبه عن أنظارى .. وأدركت من أنفاسه اللاهثة المتقطعة أنه يناضل نضالا شاقا فى سبيل التغلب على تأثره العنيف المفرط ، واذ كنت لا أحب أن أظهر له أننى قد لحظت نضاله هذا ، فقد رحت أتابع ارتداء ملابسى ، محدثا جلبة مقصودة ، ثم نظرت فى ساعتى ، وناجيت نفسى عن طول الليل ، قائلا :

ـ ماذا ؟ .. الساعة لم تبلغ الثالثة بعد ؟ .. لقد كدت

أقسم أنها تجاوزت السادسة ! .. ان الوقت فى ركود هنا ، ولا بد أننا أوينا الى فراشنا حقا فى الثامنة !

فأجابنى مضيفى ، وهو يكتم أنينه ، ويكفكف عبرة ترقرقت فى عينيه ، كما وضح لى من حركة ذراعه التى رأيت ظلها على الجدار : « بل دائما نأوى الى الفراش شتاء فى التاسعة ، ونستيقظ فى الرابعة . »

ثم أضاف بعد لحظة : « يمكنك أن تذهب الى حجرتى يا مستر لوكوود .. فنزولك الآن فى هذا الوقت المبكر سوف يحدث ارتباكا فى المنزل، كما أن صرختك الصبيانية قد ذهبت بالنوم من عينى الى الشيطان ! »

— ومن عينى أيضا .. ولكن سوف أتمشى فى الفناء حتى يطلع النهار ثم أنصرف لشأنى .. ولا حاجة بك لأن تخشى تكرار تطفلى عليك بالزيارة ، فقد شفيت تماما الآن من داء نشدان المتعة بصحبة الناس ، سواء فى الريف أو المدن .. فالعاقل انما ينبغى له أن يجد فى نفسه صحبة كافية !

فغمغم هيثكليف : « انها صحبة ممتعة ! .. والآن ، خذ الشمعة واذهب حيثما تشاء ، وسوف ألحق بك بعد قليل .. ولكن عليك أن تتجنب الفناء لأن الكلاب مطلقة السراح فيه ، وحجرة الجلوس لأن (جونو) تقوم بالحراسة هناك .. ويمكنك أن تقصر طوافك بين السلالم والممرات .. ولكن اذهب عنى الآن ، وسوف أنزل بعد دقيقتين .. »

فأطعته ، لمجرد رغبتى فى مغادرة هذه الحجرة .. ولكنى اذ وقفت حائرا لا أدرى الى أين تقودنى تلك الممرات الضيقة، شهدت — رغم أنفى — منظرا أشبه بتمثيلية عن الخرافات والخزعبلات يقوم بها مضيفى ، ويناقض — على نحو عجيب — ما يبدو عليه من عقل واتزان .. فقد مضى نحو الفراش ، وانتزع رتاج النافذة من مكانه ففتحها على مصراعيها ، وهو ينفجر فى نوبة من النشيج والبكاء المتصل ، كأنما أفلت منه

زمام سيطرته على مشاعره ، ويقول فى عويل : « ادخلى ! .. ادخلي ! .. تعالى ياكاثى .. آه ! . تعالى مرة أخرى ! . أواه ! .. ياحبيبة القلب .. اصغى الى هذه المرة ياكاثرين أخيرا ! »

غير أن الشبح أظهر تلك النزوة المألوفة لدى الأشباح ، فلم يبد أية اشارة تنم عن وجوده .. وهكذا الأشباح اذا دعيت لم تلب ! .. ولكن الثلج والرياح كانت قد أقتحمت النافذة وراحت تزمجر فى أنحاء الحجرة ، واذ بلغت مكانى أطفأت لهب شمعتى ..

وكان فى ذلك الفيض من اللوعة والأسى ، الذى صاحب هذيانه ، ماينم عما يلاقيه من عذاب فظيع ، بحيث أخذتنى الشفقة عليه ورثيت لحاله ، وأغضيت عن جنونه ، فبادرت الى الانسحاب وقد تملكنى الأسف اذ أنصت له ، واستبد بى الضيق اذ قصصت عليه ذلك الكابوس المضحك ، بعد ان شهدت ما سببه له من حزن بالغ ، وان كان سبب ذلك مما يدق على فهمى .. وهبطت الدرج فى حذر الى الطابق الأسفل ، حتى استقر بى المقام فى المطبخ الخلفى ، واستطعت أن أشعل شمعتى ثانية من لهب نار خافتة كومت جذواتها فى المدفأة .. ولم يكن فى المكان حس أو حركة الا قطة رمادية اللون مخططة الفراء ، نهضت فى تراخ من مجثمها بجوار المدفأة ، وحيتنى بمواء يفيض بالتذمر والسخط !

وكان أمام الموقد دكتان خشبيتان ، على شكل قوسين ، يكادان يحيطان به ، فاستلقيت على احداهما ، بينما ارتقت القطة (جريمالكين) الدكة الأخرى .. وكنا كلانا نهوم من النعاس قبل أن يغزو أحد مكان خلوتنا هذه ، ثم اذا بجوزيف يهبط علينا فوق سلم خشبى كان يختفى فى السقف خلال باب مسحور ، أحسب أنه يؤدى الى مخزنه العلوى ، فألقى نظرة منكرة على اللهب الضئيل الذى كان يتراقص بين قضبان



« اميلي جين برونتي » كما رسمها أخوها « برانويل برونتي » في لوحة زيتية معروضة الآن في متحف (ناشيونال جاليرى) المشهور بمدينة لندن . وقد كانت اميلي وسطى الشقيقات الثلاث («شارلوت»، و«اميلي» ،و«آن») ..فقد ولدت الكبرى «شارلوت» - مؤلفة قصة (جين اير) الخالدة - في ٢١ ابريل عام ١٨١٦ بجهة (هاورث) بانجلترا ، وماتت فيها بعد ٣٩ عاما ، في ٣١ مارس عام ١٨٥٥ . أما اميلي فقد ولدت بعدها بنحو عامين ونصف عام (في ٢٠ أغسطس عام ١٨١٨) ، وماتت في ١٩ ديسمبر ١٨٤٨ ، وهي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها . وولدت الشقيقة الثالثة الصغرى « آن » في ٢٥ مارس ١٨٢٠ ، وماتت في ٢٨ مايو ١٨٤٩ .. في سن التاسعة والعشرين !.. فيالها من أسرة غنية بالعبقريات .. والفواجع !

الموقد بعد أن حركت جذوات الفحم ، ثم أزاح القطة عن مرقدها المرتفع بحركة من يده ، واحتل مكانها ، وبدأ يحشو بالطباق غليونه القصير ، الذى لا يعدو الثلاث بوصات طولا .. وكان من الواضح أن وجودى فى خلوته المقدسة كان يعدضربا من القحة المخجلة التى تجاوزت الحد بحيث لا يجدى معها احتجاج أو اعتراض .. ومن ثم فقد وضع أنبوبة الغليون بين شفتيه دون أن ينطق بكلمة ، وشبك ذراعيه فوق صدره ، وراح ينفث الدخان فى قوة .. فتركته يستمتع بلذته دون أن أعكر عليه صفوه ، حتى اذا ما فرغ من امتصاص آخر حلقات الدخان ، وأطلق من صدره تنهدة عميقة ، نهض من مجلسه وغادر المكان فى رصانة ووقار مثلما جاء ..

وما لبثت أن ولجت المطبخ خطوات أخرى أكثر خفة ومرونة ، ففتحت فمى لأقول : « صباح الخير » ، ولكنى أطبقته ثانية دون أن أنطق بهذه التحية ، فقد كان هيرتون أيرنشو يتمتم «بصلواته » فى غمغمة خافتة ، وفى سلسلة من اللعنات يوجهها لكل شىء يلمسه ، بينما كان ينقب فى أحد الأركان عن معول أو مجرفة ليزيح بهما الجليد أو ليشق طريقا خلاله ، بعد أن ألقى على الأريكة نظرة خاطفة ، وهو يبسط منخريه ، دون أن يفكر فى تبادل التحية معى أو مع القطة !.. وحدست ، من هذه الاستعدادات التى يقوم بها ، ان الخروج أصبح مباحا ، فتركت مقعدى الصلب ، وهممت بأن أتبعه الى الخارج .. ولكنه لحظ حركتى هذه ، فأشار بطرف معوله نحو باب داخلى ، مبينا لى فى تمتمة غير مفهومة أن ذلك هو المكان الذى ينبغى أن أذهب اليه ان اردت تغيير موضعى .

ووجدت الباب يؤدى الى حجرة الجلوس - أو «البيت» كما يسمونها - حيث كانت نساء الدار قد استيقظن فعلا وانصرفن الى شئونهن .. كانت « زيللا » تستحث الشرر المتطاير من لهب الموقد على دخول المدخنة ، بواسطة منفاخ

كبير الحجم ، بينما ركعت مسز هيثكليف بجوار المدفأة، وهى تقرأ فى كتاب على وهج النار ، وترفع يدها أمام عينيها لتتقى حرارة الموقد . وكانت تبدو مستغرقة فى القراءة ، لا تنقطع عنها الا لتؤنب الخادمة عند ما يتطاير الشرر ناحيتها ، أو لتدفع عنها ، بين آن وآخر ، أحد الكلاب الذى كان يمد أنفه الى الأمام ليتشمم وجهها . ودهشت أذ رأيت هيثكليف أيضا هناك . كان يقف بجوار النار ، وظهره الى ناحيتى ، وهو يختتم مشهداً عاصفا مع « زيللا » المسكينة التى كانت بين الحين والآخر تتوقف عن عملها لترفع طرف مرولتها وتكتم بها أنينا مؤلما ..

وفى اللحظة التى ولجت فيها باب القاعة كان يتحول نحو زوجة ابنه ، وينفجر صائحا فيها ، مستخدما صفة لا يمكن اثباتها كتابة :

ـ وأنت .. أنت أيتها الـ .. الحقيرة !.. هاأنتذى تعودين الى كسلك وخمولك ثانية .. ان الباقين يخدموننى نظير لقمتهم ، أما أنت فتعيشين على صدقتى واحسانى !.. دعى هذه النفايات التى فى يدك ، وابحثى عن عمل تؤدينه.. سوف تدفعين لى غاليا ثمن ابتلائى بوباء وجودك أمام ناظرى دائما .. هل تسمعين أيتها الفاجرة اللعينة ؟

فأطبقت السيدة الشابة كتابها ورمت به فوق أحد المقاعد، وقالت :

ـ سوف أدع النفايات التى فى يدى ، لأن فى وسعك أن ترغمنى على ذلك لو رفضت .. ولكنى لن أعمل شيئا ، مهما أطلقت لسانك بالسباب والشتائم ، الا مايروق لى أن أفعله !

فرفع هيثكليف يده ، بينما وثبت السيدة الى مسافة تأمن فيها تلك اليد التى يبدو من الواضح أنها ذاقت وطأتها من قبل .. واذ كنت لا أحب ان أستقبل بمشهد عراك كالذى ينشب بين القطط والكلاب ، فقد تقدمت الى الأمام بفتة ،

كأننى متلهف ألى مشاركتهم دفء النار ، وكأننى خالى الذهن عن اى شىء من هذا الشجار الذى قطعته عليهم . والحق أن كلا منهما كان من الكياسة بحيث أرجأ اظهار المزيد من هذه الخصومة ، ووضع هيثكليف قبضتيه فى جيوبه ، ليكون بمنجاة عن الاغراء باستحدامهما ، أما مسز هيثكليف فقد قوست شفتها ، ومشت الى مقعد بعيد حيث وفت بوعدها ألا تفعل شيئا بأن جلست ساكنة كالتمثال خلال بقية الفترة التى مكثتها بينهم . ولم تكن فترة طويلة ، فقد رفضت مشاركتهم فى طعام الافطار وانتهزت فرصة بزوغ أول شعاع من الفجر للفرار الى الهواء الطلق الذى وجدته وقتئذ صافيا ، ساكنا ، شديد البرودة كالثلج ..

وهتف بى مضيفى يستوقفنى قبل أن أبلغ نهاية الحديقة ، ثم عرض على أن يرافقنى خلال البرارى والمستنقعات .. وحسنا فعل ! .. فان سفح التل من الناحية الأخرى كان أشبه ببحر عجاج من الجليد الابيض .. وكانت النتوءات والفجوات لاتكشف عما يقابلها من مرتفعات أو منخفضات فى الأرض .. أما الكثير من الحفر فقد امتلأت الى حافتها ، على حين اختفت سلاسل بأكملها من الاكمات والروابى — مما تلفظه المحاجر — من الصورة التى ارتسمت فى ذهنى أثناء مسيرى بالأمس . وكنت قد لاحظت على جانب من الطريق صفا من الحجارة القائمة ، تفصل بين الواحد والآخر ست ياردات أو سبع ، يمتد على طول البرارى المقفرة ، وقد أقيمت تلك الحجارة وطليت بالجير لتكون مرشدا للمارة فى الظلام ، أو عندما ينهمر الثلج كما حدث بالأمس فيطمس معالم المستنقعات العميقة على كلا الجانبين فلا تبين من الطريق الصلدة .. ولكن ، فيما عدا نتوء قذر يبدو للاعين هنا وهناك ، فقد اختفت قوائم الحجارة حتى لكأنها تلاشت من الوجود !

وكان رفيقى كثيرا ما يجد من الضرورى أن يحذرنى ويطلب

منى أن أتحول الى اليمين أو الى اليسار ، بينما كان يخيل الى أننى أتبع المنعرجات الصحيحة للطريق . ولم نتبادل الا القليل من الحديث حتى توقف عند مدخل حديقة (ثراشكروس) ،قائلا أننى لن أكون عرضة للخطأ بعد ذلك .. وكان وداعنا قاصرا على انحناءة سريعة ، مالبثنا أن افترقنا بعدها ، وتابعت مسيرى معتمدا على معلوماتى الشخصية ، اذ كان كوخ الحارس مهجورا لم يجد من يسكنه بعد . وكانت المسافة من البوابة حتى « الجرانج » لا تعدو ميلين ، ولكنى أعتقد أننى جعلتها أربعة أميال بما حدث لى من التيه بين الاشجار ومن الغوص حتى رقبتى فى حفائر الثلج !
– وهى حالة لا يقدرها إلا أولئك الذين خبروها فعلا ! – ومهما يكن من أمر ، وكيفما كان تجوالى فى الحدائق ، فقد كانت الساعة تدق الثانية عشرة عندما كنت ألج باب المنزل ، ومعنى ذلك أننى قطعت فى كل ساعة ميلا واحدا من المسافة العادية بين منزلى ومرتفعات ويذرنج ..

واندفعت مدبرة منزلى وتوابعها لتحيتى وهن يهتفن فى ضجة عالية انهن قد قطعن الأمل نهائيا فى عودتى سليما . كان كل انسان يظننى قد هلكت فى الليلة الماضية ، وكانوا فى حيرة من طريقة البحث عن جثمانى ! .. فطلبت الى الجميع أن يركنوا الى الهدوء والسكون بعد أن رأونى أرجع سالما ، ثم مضيت أجر قدمى المتثاقلتين الى الطابق العلوى ، وقد سرت البرودة فى جسدى حتى شغاف قلبى ، فأصابته بالخدر .. وبعد أن استبدلت بملابسى ثيابا جافة ، ورحت أذرع الأرض ذهابا وجيئة نحو ثلاثين أو أربعين دقيقة استجلابا للدفء ، مضيت الى حجرة المكتب خائر القوى كأننى قطيطة صغيرة .. بل لقد كنت من الضعف والخور بحيث لم أشعر بمتعة النار المتأججة فى الموقد ، ولا بالقهوة الساخنة ، التى ينبعث البخار منها ، والتى أعدتها لى الخادم لأستعيد بها قواى الضائعة ..

الفصل الرابع

ألا ما أعجب تقلباتنا مع الأهواء ، كأننا ديك « دوارة الريح » المختال ! .. فأنا .. أنا الذى كنت عاقدا العزم على الاحتفاظ بنفسى بمنأى عن أية صلة اجتماعية ، والذى حمدت حسن طالعى اذ هدانى الى النزول ببقعة تكاد مثل هذه الصلة فيها أن تكون مستحيلة عمليا . . أنا ، ذلك التعس الضعيف الارادة ، قد اضطررت فى النهاية الى الاستسلام والقاء السلاح ، بعد أن ظللت حتى الغسق أصارع الوحدة والسأم ، فاتخذت من الرغبة فى الاستفسار عن بعض الشئون الخاصة باحتياجات المنزل ، ذريعة لأرغب الى « مسز دين » ـ عندما أحضرت لى العشاء ـ بأن تجلس معى ، ريثما أتناول طعامى ، راجيا فى قرارة نفسى أن تكون ثرثارة عريقة ، فأما أن ينشطنى حديثها ، أو يسلمنى الى النعاس ..

وبدأت أقول لها :

ـ لقد عشت هنا زمنا طويلا .. ألم تقولى انك فى خدمة السيد منذ ستة عشر عاما ؟

ـ بل ثمانية عشر ياسيدى .. فقد حضرت عندما تزوجت سيدتى ، لأقوم على خدمتها ورعاية شئونها .. وعندما قضت نحبها ، احتفظ بى السيد لأكون مدبرة منزله ..

فغمغمت قائلا : « ذلك حق .. »

وتلت ذلك فترة من الصمت ـ حتى لقد خشيت ألا تكون ثرثارة كما رجوت ـ فيما عدا الحديث عن شئونها الخاصة التى لا تكاد تهمنى فى كثير أو قليل .. ومهما يكن من أمر فانها بعد أن أخلدت الى التفكير برهة ، وقد وضعت قبضتيها على ركبتيها ، وخيمت على محياها المتورد سحابة من التأمل وامعان الفكر ، انبعثت تقول :

ـ آه ! .. شدما تبدلت الأحوال منذ ذلك الحين !
ـ نعم .. وأحسبك شهدت الكثير من التغيرات ؟
ـ أجل .. ومن المتاعب كذلك ..

فقلت لنفسى : « آه ! .. سوف أنحو بالحديث ناحية مالك الدار وأسرته ، فهو خير موضوع نبدأ به .. ثم أننى أود أن أعرف تاريخ تلك الفتاة الأرملة الحسناء ، وهل هى من أهل الاقليم أم أنها ، كما هو الأرجح ، غريبة عنه ، حتى أن ذلك « الوطنى » العبوس لا يعترف بقرابتها له .. »

واذ عزمت على ذلك ، سألت مسز دين لماذا أجر هيثكليف (ثراشكروس جرانج) ، مفضلا أن يعيش فى مركز ومسكن يقلان عنه شأنا ؟ ! .. وختمت السؤال بقولى :

ـ أم أنه ليس من الثراء بحيث يستطيع الاحتفاظ بالقصر فى مستوى رفيع ؟

فقالت :

ـ الثراء ياسيدى ؟ .. ان أحدا لا يعرف كم لديه من المال الذى يزداد سنة بعد أخرى !.. نعم .. نعم .. انه من الثراء بما يكفيه للاقامة فى دار خير من هذه بكثير ، ولكنه شحيح بخيل ، ويده مغلولة الى عنقه .. ولو فكر مرة فى أن ينقل عشه الى الجرانج ، فانه ما ان يسمع عن مستأجر طيب حتى لا يطيق أن تفوته فرصة اقتناء بضع مئات أخرى .. وانى لأعجب كيف يستبد الجشع بالناس الى هذا الحد عندما يكونون وحيدين فى هذه الدنيا !

ـ يبدو أنه كان له ولد ؟
ـ نعم ، كان له ولد ومات ..
ـ وهذه السيدة الشابة ، مسز هيثكليف ، أهي أرملة ذلك الابن ؟
ـ نعم ..

ـ من أين ترينها قدمت أصلا ؟

ـ لماذا ياسيدى ؟ .. انها ابنة سيدى السابق ، رحمه الله .. وكان اسمها وهى عذراء « كاثرين لينتون » . اننى أنا التى غذوتها وربيتها ، تلك الصغيرة المسكينة .. كم أود لو ينتقل مستر هيثكليف الى هنا ، حتى يجتمع شملنا ثانية .

فهتفت فى دهشة : « ماذا ؟ .. كاثرين لينتون ؟ »

ولكنى ماكدت أفكر لحظة حتى أدركت أنها لا يمكن أن تكون « كاثرين ذات الشبح » التى ظهرت لى .. فأردفت قائلا :

ـ اذن فان شاغل هذه الدار قبلى كان اسمه لينتون ؟

ـ لقد كان كذلك ..

ـ ومن هو أيرنشو .. هيرتون ايرنشو الذى يعيش مع مستر هيثكليف ؟ هل هما قريبان ؟

ـ كلا ، فهو ابن أخ مسز لينتون الراحلة ، والدة « كاثرين » ..

ـ هو ابن خال السيدة الشابة أذن ؟

ـ نعم .. كما كان زوجها ابن عمتها .. فقد تزوج هيثكليف شقيقة مستر لينتون ..

ـ لقد رأيت اسم « ايرنشو » منقوشا فوق الباب الأمامى لمرتفعات ويذرنج ، فهل هى أسرة قديمة ؟

ـ وعريقة جدا يا سيدى .. وهيرتون هو آخر سلالتها كما أن عزيزتنا « مس كاثى » ـ « كاثرين » ـ آخر سلالة أسرة لينتون .. ولكن هل ذهبت الى مرتفعات ويذرنج ياسيدى ؟ .. اننى أسألك المغفرة لتطفلى ، ولكنى وددت ان أعرف كيف حالها !

ـ مسز هيثكليف ؟ .. انها تبدو فى خير صحة ، كما أنها رائعة الحسن .. ومع ذلك فانى أحسبها غير سعيدة تماما !

ـ آه ! .. لهف قلبى عليها ! .. ان ذلك لا يدهشنى .. ولكن كيف كان مبلغ ارتياحك الى السيد ؟

ـ انه شخص أدنى الى الغلظة والخشونة يا مسز دين ..

أليس هذا خلقه ؟

ـ انه خشن كحد المنشار ، وصلب كالصخر الصلد .. وكلما أقللت من التداخل معه كلما كان ذلك خيرا لك وأجدى ..

ـ لابد أن تكون الحياة قد تداولته بين سرائها وضرائها حتى غدا بهذه الغلظة والفظاظة .. هل تعرفين شيئا عن تاريخ حياته ؟

ـ انها كحياة الطائر الفضولى يا سيدى ! .. وانى أعرف كل شىء عنه ماخلا أين ولد ، ومن كان أبواه ، وكيف حصل على المال بادىء ذى بدء .. أما هيرتون فقد خرج صفراليدين كالعصفور الذى نتف ريشه !.. ان الفتى المنكود هو الوحيد، فى هذه المنطقة كلها ، الذى لا يعرف كيف كان ضحية الغش والخداع !

ـ حسنا يامسز دين .. انك تسدين الى معروفا لو حدثتنى بطرف من أنباء جيرانى ، فانى أشعر بأننى لن أنال الراحة التى أنشدها لو أويت الآن الى الفراش . لذلك أرجو أن تجلسى معى ساعة فنتحدث معا ..

ـ آه ! . بالتأكيد ياسيدى ! .. سوف أحضر معدات الحياكة ثم أجلس معك ما طاب لك أن تستبقينى .. ولكنك أصبت ببرد ، فقد رأيتك ترتعش ، ولابد لك من عصيدة ساخنة لتخرج البرد من بدنك !

وهرولت المرأة الطيبة خارجة من الحجرة ، فاقتربت بمقعدى من النار ، وقد أحسست برأسى ينبض بالحرارة المرتفعة ، على حين كانت القشعريرة لا تكف عن جسدى لحظة .. وفضلا عن ذلك ، كنت شديد الانفعال ، الى درجة السخف ، وقد ازداد التوتر فى أعصابى وفكرى .. وقدسبب لى ذلك أن شعرت ، لا بالتعب والأعياء ، بل بالخوف (ولا يزال ذلك شأنى حتى الآن) من العواقب الخطيرة التي سوف تنجم عن أحداث اليوم والأمس .. وما لبثت مسز دين أن

رجعت بعد قليل ، تحمل اناء ينبعث منه البخار ، وسبتا لأدوات الحياكة ، فوضعت الأول على الرف المجاور للمدفأة ، ثم قربت مقعدها ، وقد بدت عليها الغبطة بأن وجدتنى محبا للرفقة والعشرة !

وبدأت تقول ، دون أن تنتظر دعوة جديدة للحديث :

« قبل أن أحضر لأقيم هنا ، كنت أقيم بصفة دائمة فى مرتفعات ويذرنج ، اذ كانت أمى مربية مستر « هندلى ايرنشو » ، وهو والد « هيرتون » ، واعتدت أن أمضى الوقت فى اللعب مع الأطفال ، كما كنت أقوم بقضاء بعض الحاجات أيضا ، وأساعد فى تذرية (الدريس) ، وأحوم حول المزرعة متأهبة لأداء ما يمكن أن يكلفنى به أي شخص هناك ..

« وفى صباح يوم من أيام الصيف الجميلة — وأذكر أن ذلك كان فى بداية موسم الحصاد — نزل مستر ايرنشو الكبير ، جد هيرتون ، مرتديا ثياب السفر . وبعد أن ألقى الى جوزيف بأوامره عما ينبغى عمله خلال ذلك اليوم ، تحول نحو هندلى وكاثى (١) ، ونحوى — اذ كنت أجلس معهما وأشاركهما طعام الافطار — وقال مخاطبا ولده : « والآن أيها الرجل الصغير ، اننى راحل الى ليفربول اليوم ، فما الذى تريد أن أحضره لك معى ؟ فى وسعك أن تختار ما تريد ، ولكن ليكن شيئا صغير الحجم لأننى سأذهب وأعود سيرا على الأقدام ، والمسافة ستون ميلا ذهابا ومثلها فى الاياب ، وهى كما ترى شقة طويلة ! » .. فطلب هندلى كمنجة ، وعندئذ تحول نحو مس كاثى ، ولم تكن وقتئذ قد جاوزت السادسة من العمر وان كان فى استطاعتها أن تمتطى صهوة أى جواد فى الحظيرة ، فاختارت أن تكون هديتها سوطا .. ولم ينسنى ، فقد كان طيب القلب عطوفا ولو انه كان يعمد الى القسوة والصرامة

---

(١) كاثى او كاثرين « ايرنشو » شقيقة هندلى ، هى غير كاثى او كاثرين « لينتون » التى سبق الحديث عنها ، وستظهر صلة القرابة بينهما فيمابعد)

أحيانا ، فوعدنى بأن يحضر لى ملء جيبه من التفاح والكمثرى .. وبعدئذ قبل طفليه ، وودعنا جميعا ، ثم انطلق فى رحلته ..

وقد بدت أيام غيابه الثلاثة دهرا طويلا لنا جميعا ، وكانت كاثى الصغيرة لا تفتأ تسأل عن موعد عودته .. وكانت مسز ايرنشو تتوقع حضوره فى موعد العشاء من مساء اليوم الثالث، فراحت تؤجل تناول الطعام ساعة بعد أخرى ، دون أن يظهر ما يدل على مقدمه .. وأخيرا أدرك الطفلين الاعياء من كثرة ماذهبا الى البوابة ليطلا على الطريق ... ثم أطبق الظلام واحتلك الليل وأرادت أمهما أن تضعهما فى الفراش ولكنهما توسلا اليها فى أسى أن تدعهما ينتظران والدهما .. واخيرا ، فى الساعة الحادية عشرة تماما ، اذا بمزلاج الباب (السقاطة) يرفع فى هدوء ، واذا بالسيد يدخل فيلقى بنفسه على أحد المقاعد ، وهو يضحك ويتأوه فى وقت معا ، ويأمر الجميع بأن يبتعدوا عنه ، لأنه يكاد يقع صريعا من التعب ، ثم يقسم بأنه لن يمشى مثل هذه المسافة مرة أخرى ولو أوتى تيجان الممالك الثلاث .. .

وأردف قائلا : « ولقد كنت فى نهايتها أجرى حتى كدت أهلك ... »

وتمهل لحظة ثم فتح معطفه الفضفاض الذى كان يضم طرفيه بين ذراعيه ، واستطرد يقول :

ــ أنظرى هنا يا زوجتى ! .. اننى لم أغلب على أمرى من شىء فى حياتى كهذه المرة .. ولكن يجب أن ننظر اليه كهبة من الله ، وان كان لونه القاتم يجعله أشبه بعطية من الشيطان ! ..

وتزاحمنا جميعا حوله ، أما أنا فقد تلصصت من فوق رأس مس كاثى لأرى غلاما قذرا أسود الشعر يرتدى أسمالا مهلهلة ، وفى سن تسمح له بالمشى والكلام ، بل الواقع ان وجهه كان يبدو أكبر سنا من مس كاثى ، ومع ذلك فعندما وقف على

قدميه ، راح يحملق بأنظاره حواليه وينطلق فى رطانة لم يستطع أحدنا أن يفهم شيئا منها .. وقد تملكنى الذعر ، بينما كادت مسز ايرنشو تطوح به خارج الباب ، وهى تثور فى وجه زوجها لتسأله كيف استساغ أن يجلب الى المنزل هذا الجرو الغجرى ، على حين أن لهما طفلين يقومان باطعامهما والعناية بهما ؟ .. ثم ما الذى ينوى أن يفعله بهذا «الشىء» ؟ وهل أصابه الجنون حتى يحضره ؟ .. وقد حاول السيد أن يشرح لها الأمر ، ولكنه كان شديد الاعياء حقا ، يكاد التعب يورده حتفه ، وكل الذى استطعت أن أتبينه ، خلال صياحها وتعنيفها له ، ماذكره عن رؤيته لهذا « الشىء » فى شوارع ليفربول شريدا يكاد يهلك جوعا ، وهو كالأبكم لايستطيع أن يرشده الى داره أو أهله ، فحمله وراح يسأل عن أهله ، ولكن أحدا فى المدينة لم يعرف من أين أتى ، ومن صاحبه .. واذ كان وقته ونقوده محدودين ، فقد فضل أن يعود به الى داره بدلا من البقاء وانفاق المزيد من النقود فى غير طائل هناك ، لأنه كان قد قرر ألا يتركه حيث وجده .. حسنا ! . لقد كان ختام هذا المشهد أن هدأت سيدتى وسكنت حدة غضبها وتذمرها ، وأن طلب الى مستر ايرنشو أن آخذ الغلام فأغسل بدنه وألبسه ثيابا نظيفة ، وأدعه ينام مع الطفلين ..

وكان هندلى وكاثى قد اكتفيا بالنظر والاصغاء ، حتى عاد السلام بين الزوجين ، وعندئذ بدأ كلاهما يفتشان جيوب أبيهما بحثا عن الهدايا التى وعدهما بها .. وكان هندلى صبيا فى الرابعة عشرة ، ولكنه عندما أخرج من المعطف العظيم ذلك الشىء الذى كان يدعى « كمنجة » قبل أن يصبح حطاما ، أجهش بالبكاء فى صوت عال .. أما كاثى فعندما علمت أن السيد قد فقد سوطها أثناء عنايته بالغلام الغريب ، فقد عبرت عن شعورها بأن ابتسمت ، ثم بصقت على الغلام الصغير ، فاستحقت أن تنال ، جزاء ما تجشمت من عناد ،

لطمة عنيفة من والدها ، لتتعلم كيف يكون مسلكها أكثر رقة وأدبا فى المستقبل ! .. وقد أصر الطفلان على رفض السماح للقيط بالنوم معهما فى الفراش ، أو حتى فى حجرتهما .. ولم أكن أكثر منهما سماحة ، فوضعت الطفل على (بسطة) السلم ، مؤملة أن أجده فى الصباح وقد اختفى من الدار .. وشاءت الصدفة ، أو لعل صوت مستر أيرنشو قد اجتذبه ، فاذا به يزحف حتى باب حجرة السيد ، فوجده راقدا أمام الباب عندما غادر حجرته فى الصباح ... وقام السيد بالتحقيق فى كيفية وجوده هناك ، فاضطررت الى الاعتراف ، وكان جزاء خستى وقسوتى أن طردت من المنزل ! ..

وكانت هذه بداية العهد بدخول هيثكليف فى نطاق الأسرة ..

فلما عدت ثانية بعد أيام قلائل (اذ أنى لم أعتبر طردى نهائيا) وجدت انهم قد عمدوه باسم « هيثكليف » ، وهو اسم ابن لمستر أيرنشو مات طفلا ، وأصبح هذا الاسم بمثابة اسم ولقب له منذ ذلك الحين ... كما وجدت أنه ومس كاثى قد أصبحا صديقين حميمين ... أما هندلى فكان يبغضه ، واذا شئت الحق فاننى كنت أكرهه كذلك ، وهكذا تعاونا معا على ايذائه والايقاع به على نحو مزر .. لأننى لم أكن من التعقل بحيث أدرك ما اقترفه من ظلم ، كما أن السيدة لم تقف يوما فى صفه ، أو تنطق بكلمة لانصافه ، عندما كانت تراه موضع الاساءة ...

أما هو فكان طفلا صبورا دائم التجهم . ولعل سوء المعاملة قد جعله أشد صلابة ، فانه كان يحتمل لطمات هندلى دون أن يطرف عينا أو يذرف دمعة ، كما أن قرصاتى لم تكن تحرك فيه أكثر من شهقة عميقة وهو يحملق بعينيه كأنه هو الذى أصاب نفسه مصادفة دون أن يكون لأحد ذنب فيما أصابه ! وكان هذا الاحتمال سبب ثورة مستر أيرنشو الكبير عندما اكتشف اضطهاد ابنه للغلام اليتيم المسكين ، كما كان يدعوه .. وكان

قد اشتد تعلقه بهيثكليف الى حد غريب ، وأصبح يصدق كل ما يقوله (وهو من هذه الناحية لم يكن يقول الا القليل كما كان يلتزم الصدق عادة) ويدلله أكثر مما يدلل كاثى التى كانت شقية عنيدة لا تستحق التدليل ! ..

وهكذا كان هيثكليف منذ البداية ينمى المشاعر الشريرة فى المنزل ، حتى اذا ما قضت مسز أيرنشو نحبها ، وكان ذلك بعد أقل من عامين من مقدمه ، كان السيد الشاب هندلى قد تعلم أن يعتبر أباه طاغية لا صديقا ، وأن يعد هيثكليف مغتصبا لعواطف ابيه ، ولامتيازاته الخاصة .. وكان يزداد مرارة كلما أمعن التفكير فى هذه الاساءات ، وكنت أماثله وأعطف على مشاعره ... فلما مرض الأطفال بالحصبة ، وكان على أن أرعاهم ، وأن آخذ على عاتقى للتو مسئولية العناية بهم وتمريضهم باعتبارى المرأة الوحيدة بالمنزل ، تغيرت آرائى ... وكان هيثكليف مريضا الى حد خطير ، وبينما كان يرقد فى أسوأ حالاته كان يود دائما أن أظل بجوار وسادته .. وأحسبه قد شعر بأننى فعلت الكثير من أجله ، ولم يكن من الفطنة بحيث يحدس أننى ما فعلت ذلك الا مضطرة .. ومهما يكن من أمر ، فلا بد لى من القول بأنه كان أهدأ طفل نهضت بالعناية به ممرضة قط .. وكان الفرق بينه وبين الطفلين الآخرين هو الذى أرغمنى على أن أغدو أقل تحيزا .. فقد ضايقتنى كاثى وأخوها الى حد مروع ، بينما كان هو كالحمل لا يشكو ولا يتوجع ، وان كانت صلابته ـ لا رقته ـ هى التى جعلته أقل اثارة للمتاعب ...

ونجا هيثكليف من الخطر واجتاز المحنة بسلام ، فأكد الطبيب أن الفضل فى ذلك يرجع لى الى حد كبير ، وامتدحنى لعنايتى به .. وكنت فخورا مزهوة بهذا الثناء ، ورقت مشاعرى نحو ذلك المخلوق الذى نلت الثناء بسببه ، وهكذا فقد هندلى آخر حليف له ... ومع ذلك فانى لم أكن

مشغوفة بهيثكليف ، وكنت كثيرا ما تأخذنى الدهشة مما كان سيدى يراه فى ذلك الغلام العبوس المتجهم حتى يعجب به الى هذا الحد ، مع أنه لم يبد قط ، فيما أذكر ، أية اشارة تنم عن عرفان الجميل والحمد لقاء هذا الرفق والعطف ! .. ولم يكن وقحا أو سفيها مع المحسن اليه ، بل كان فقط مجردا من الشعور والاحساس باحسانه اليه ، مع انه كان يعرف تماما المنزلة التى يحتلها فى قلبه ، ويعلم أنه لو أراد شيئا فما عليه الا أن يتكلم حتى ينحنى المنزل بكل من فيه أمام رغباته ... وأذكر - علي سبيل المثال - أن مستر أيرنشو اشترى مهرين من سوق الأبرشية ذات مرة ، واعطى كلا من الغلامين واحدا فأخذ هيثكليف أجمل المهرين ، الا انه ما لبث أن أصيب بالعرج .. وما كاد يكتشف ذلك حتى قال لهندلى :

- يجب أن تبادلنى مهرك بمهرى ، فلست أحبه .. ولئن لم تفعل فسوف أخبر أباك بضربات العصى الثلاث التى ضربتنيها هذا الأسبوع ، وأريه ذراعى التى لا تزال زرقاء داكنة حتى الكتف ...

فأخرج له هندلى لسانه ، وصفعه على أذنيه .. ففر هيثكليف الى شرفة الحظيرة (بعد أن كانا بداخلها) ولكنه أصر على تنفيذ رغبته ، وقال لهندلى : « خير لك أن تفعل ذلك فى الحال ، قبل أن تفعله رغم أنفك ... فلو اننى تحدثت عن هذه الضربات ، لردت اليك ثانية ، مع فوائدها ! .. » فصاح به هندلى : « امش من هنا يا كلب .. » وهو يهدده بثقل حديدى يستعمل فى وزن البطاطس والدريس ، ولكن الآخر وقف فى مكانه ساكنا ، واكتفى بأن قال : « أقذفه .. وعندئذ سوف أخبره كيف كنت تتباهى بأنك ستطردنى من الدار بمجرد وفاته ، وسترى اذا لم يطردك أنت توا » ...

فقذفه هندلى بالثقل الحديدى وأصابه فى صدره فسقط على الأرض ، ولكنه ما لبث أن نهض على الفور وهو يترنح ، وقد شحب وجهه وتقطعت أنفاسه .. ولولا أننى منعته لذهب الى السيد للتو ، ولنال ثأره كاملا ، تاركا حالتــه تؤيد دعواه ، متهما هندلى بأنه السبب فيما حدث ..

وعندئذ قال أيرنشو الصغير :

ــ خذ مهرى اذن ، أيها النورى ! .. ولكنى أرجو أن يدق عنقك ! .. خذه أيها الفضولى الدنىء ، ولتحل عليك اللعنة ! .. اذهب فجــرد أبى من كل ما يملكه ، بملقك ومداهنتك ، ولكن أره بعد ذلك ما أنت عليه حقا ، يا سليل الأبالسة ! .. خذ هذا المهر ، ولكنى أرجو أن يركلك فيحطم رأسك وينثر مخك !

وكان هيثكليف قد مضى ليفك زمام الدابة ، وينقلها الى المربط الخاص به .. وكان يمــر خلفها عندما ختم هنــدلى كلامه بركلة قوية وجهها أليه من بين سيقان المهر ، ثم انطلق يعدو هاربا دون أن يتمهل ريثما يطمئن الى استجابة دعواته .. ولقد استبدت بى الدهشة اذ رأيت الغلام يستجمع قواه فى هدوء ورباطة جأش منقطعة النظير ، ويمضى فى تنفيــذ غرضه ، فيستبدل السروج وباقى معدات المهر ، حتى اذا ما أتم كل شىء ، جلس فوق حزمة من الدريس ليتغلب على الألم الذى سببته له تلك الركلة العنيفــة ، قبل أن يدخل المنزل ... وقد أقنعته ، دون جهد أو عناء ، بأن يدع لى مهمة الزعم بأن اصابته كانت بسبب المهر الجديد .. فمــا كان يبالى بما يقال عن هذا الموضوع ما دام قد نال بغيته ... وكان فى الحق قلما يتذمر أو يشكو من هذه التوافه حتى لقد ظننته ــ حقا ــ متسامحا غير حقود ، ولكننى كنت مخدوعة تماما ــ على ما سوف تسمع منى !

الفصل الخامس

أخذت صحة مستر أيرنشو تسوء وتذوى على مر الزمن .. وبعد أن كان يفيض بالصحة والنشاط ، فارقته قوته فجأة ، والجأه المرض الى ملازمة مقعده بجوار المدفأة ، كما غدا سريع الهياج والاثارة .. كان يغضب للاشيء ، وتسبب له أقل شبهة من الاستهانة بسلطته وجبروته ، نوبات عنيفة من الثورة الجامحة ... وكان ذلك يشاهد بصفة خاصة عندما يحاول أحد أن يسيطر على غلامه الأثير ، أو يعامله بشيء من الغطرسة .. وكان يحرص فى دقة شديدة على أن لا تقال للفتى كلمة تجرح شعوره ، وقد دخل فى روعه أن الجميع يبغضون هيثكليف ويتوقون الى الاساءة اليه بسبب حبه له وحدبه عليه .. ولقد أضر ذلك بالفتى واساء عاقبته ، اذ كان أكثرنا عطفا عليه لا يود اغضاب السيد ، فعمدنا الى مداهنته وارضاء رغباته المتحيزة له ، وكانت هذه المداهنة غذاء دسما لغرور الفتى وسوء خلقه ... ولكن مسلكنا هذا كان ضروريا الى حد ما .. فقد حدث مرتين أو ثلاثا أن أظهر هندلى زرايته بالغلام واستهانته به على مرأى ومسمع من أبيه فكان ذلك يثير ثائرة العجوز ، ويمسك بعصاه ليضربه ، ثم يرتجف حنقا وغيظا عندما كان يفلت منه ...

وأخيرا نصح قسيسنا (فقد كان لنا فى ذلك العهد قسيس يكسب لقمته من تعليم أبناء لينتون وأبناء أيرنشو ، ومن زراعة قطعة الأرض التى يملكها بنفسه) بارسال أيرنشو الشاب الى المدرسة الثانوية ، فوافق مستر أيرنشو على ذلك فى تثاقل وتردد ، حيث قال : « ان هندلى لن يصلح لشيء ، ولن يفلح فى شيء قط أينما ذهب .. »

ولشد ما كنت أرجو أن يسود السلام ربوعنا بعد ذلك ..

فقد كان يؤلمنى أن أرى السيد مسلوب الراحة منغص العيش من جراء عمله الخيرى ، ويخيل الى أن ضيق صدره الناجم عن السن والمرض انما ينبعث من هذه الخلافات العائلية التى تحوطه ، وكأنما أراد ذلك فكان له ما أراده .. ولكن الحقيقة يا سيدى ، كما تعلم ، أن ذلك كان ناجما عن اضمحلاله الجسمانى المتزايد ...

ورغم ذلك كله ، كان يمكن أن يمضى عيشنا هينا محتملا ، لولا شخصين اثنين ، هما مس كاثى ، وجوزيف الخادم ، وأحسبك قد رأيته هناك .. فقد كان — وما يزال على الأرجح — من غلاة المتنطعين فى الدين ومن أشدهم تزمتا وغرورا .. أولئك الذين ينقبون فى الانجيل (ويمشطونه) ، ليستخلصوا لأنفسهم ما به من وعود ورحمات ، ويهيلون على جيرانهم ما يحويه من وعيد ولعنات ! .. وكان ببراعته فى القاء المواعظ والخطب الدينية يسعى الى بسط سلطانه على مستر أيرنشو ، وكلما ازداد السيد ضعفا وخورا كلما ازداد هو قوة ونفوذا عليه .. وكان يعمد ، فى غير شفقة أو رحمة ، الى بث القلق فى نفسه من ناحية همومه الروحية ، والى الايحاء اليه بوجوب أخذ أبنائه بالشدة والصرامة ! .. كان يشجعه على اعتبار هندلى شخصا ساقطا لا أمل فيه .. كما كان ، ليلة بعد ليلة ، ينسج شبكة من القصص حول هيثكليف وكاثرين ، ولكنه كان يعنى دائما بتملق أيرنشو واستغلال ضعفه بالقاء اللوم كله على كاهل الأخيرة !

ومن المحقق أن الفتاة كانت غريبة الأطوار على نحو لم أر عليه طفلة قط من قبل ، وكانت تخرجنا جميعا عن طورنا ، وتمزق أهداب الصبر التى نستمسك بها أكثر من خمسين مرة كل يوم .. فمنذ الساعة التى تنزل فيها الى الطابق الأسفل حتى ساعة ذهابها الى الفراش ، لم نكن نحس لحظة بالأمن والسلامة من (شقاوتها) ... كانت خفتها ومرحها

دائما فى ذروة ارتفاعهما ، وكان لسانها دائما فى ذروة نشاطه واندفاعه : فى الغناء ، والضحك ، وايذاء كل امرىء لا يريد أن يجاريها فى ذلك ! .. كانت نبتة وحشية غير صالحة ! .. ولكن كانت لها أجمل عينين وأحلى ابتسامة وأرشق خطى فى الأبروشية كلها ... ورغم كل شىء فأحسبها لم تكن تضمر لأحد شرا ، لأنها اذا حدث مرة أن دفعتك الى البكاء عن عمد ، فهى قلما تفارقك أو تدعك وشأنك حتى ترغمك على الهدوء مرضاة لها واراحة لضميرها ! .. وكانت مولعة أشد الولع بهيثكليف ، فكان أعظم عقاب يمكن أن توقعه بها هو أن تفرق بينها وبينه ، ومع ذلك كان ما تلقاه من التقريع والتأنيب بسببه أكثر مما يلقاه أى منا .. وكانت اذا ما لعبت معنا ، تذوب حبا فى القيام بدور السيدة الصغيرة ، فتستخدم يديها فى حرية وتصدر الأوامر الى زملائها فى اللعب .. وكانت تفعل ذلك معى ، ولكنى ما كنت لأحتمل الايذاء وتلقى الأوامر ، فأفهمتها ذلك صراحة ..

وكان مستر أيرنشو وقتئذ لا يطيق المزاح من أطفاله ، فقد كان دائما صارما رصينا معهم ، وكانت كاثرين من جانبها لا تدرى لماذا غدا والدها أشد مشاكسة وأقل صبرا فى مرضه عما كان وهو فى عنفوان صحته ... وكانت تأنيباته اللاذعة القارصة توقظ فيها رغبة خبيثة فى اثارته .. ولم تكن تبلغ من السعادة غايتها الا عندما نشترك جميعا فى تقريعها ، فتتحدانا كلنا بنظراتها الجريئة ، وكلماتها السليطة المتدفقة من بديهة حاضرة ، فتحيل لعنات جوزيف الدينية الى مهزلة مضحكة ، وتغيظنى وتعاندنى ، وتفعل أشد ما كان أبوها يمقته ويبغضه ، وهو اظهار كيف تحدث قحتها المفتعلة — التى كان يظنهـا أصيلة حقيقية — من الأثر القوى على هيثكليف أكثر مما تحدثه رقته هو معه وحدبه عليه ، وكيف ينفذ الغلام أوامرها أيا كانت ، بينما لا ينفذ من أوامره هو الا ما يروقه ويلائم ميوله

... وكانت بعد أن تسلك أثناء النهار أسوأ مسلك تستطيعه ، تأتى أحيانا الى ابيها فى المساء تلاطفه وتلاعبه ، لتصلح ما أفسدته ، وعندئذ يقول لها الشيخ : « كلا يا كاثى .. اننى لا أستطيع أن أحبك، فأنت أسوأ من اخيك ... اذهبى يا طفلتى فاتلى صلواتك وادعى الله أن يغفر لك ... واحسب اننى وأمك يجب أن نتحسر ونأسف على أن أنجبناك وربيناك » ... فكان ذلك يجعلها تبكى وتنتحب فى بادىء الأمر ، وما لبثت أن زادها الصد المستمر صلابة وقسوة ، فكانت تضحك ساخرة عندما أطلب اليها أن تقول انها آسفة على ما تأتيه من أخطاء وانها ترجو الصفح عنها ومسامحتها ...

. . . .

وأخيرا حانت الساعة التى أنهت متاعب مستر أيرنشو على الأرض ، فلفظ أنفاسه الأخيرة فى هدوء وسكينة ، مساء يوم من أيام شهر أكتوبر ، بينما كان يجلس فى مقعده بجوار المدفأة .. وكان الجو عاصفا وحشيا ، وأن لم يكن باردا ، والرياح تزمجر حول المنزل فيدوى زئيرها فى المدخنة ، بينما كنا مجتمعين جميعا ... كنت منهمكة فى حبك الصوف (التريكو) وقد انتحيت ناحية بعيدا عن الموقد ، وكان جوزيف يطالع فى الانجيل بالقرب من المائدة (فقد كان الخدم وقتئذ يجلسون عادة فى البيت (حجرة الجلوس) بعد انتهاء عملهم) وكانت مس كاثى مريضة فى ذلك اليوم ، مما جعلها ساكنة هادئة وهى تجلس مستندة الى ركبة أبيها ، بينما استلقى هيثكليف على الأرض واضعا رأسه فى حجرها ... وما زلت أذكر كيف راح السيد - قبل أن تأخذه سنة من النعاس - يربت على شعرها الجميل ، اذ كان يسره كثيرا أن يراها عاقلة لطيفة - وقلما كانت كذلك ! - ويقول : « لماذا لا تكونين دائما فتاة طيبة يا كاثى ؟ .. » وكيف رفعت

وجهها نحوه وانطلقت تضحك وهى تجيبه : « ولماذا لا تكون دائما رجلا طيبا يا أبتاه ؟ ! .. » ولكنها ما كادت تراه وقد انتابه الضيق ثانية ، حتى قبلت يده وظلت ممسكة بها وهى تقول انها سوف تغنى له حتى ينام ... وقد بدأت تغنى فى صوت شديد الخفوت ، حتى تراخت أصابعه وأفلتت من يدها ، وانحنى رأسه فوق صدره ... فأشرت اليها ان تصمت ، وأن تكف عن الحركة خشية أن توقظه ، كما لبثنا جميعا ساكنين صامتين كالجرذان ، حتى انقضى نصف ساعة ، كان يمكن أن يزيد ، لولا أن جوزيف نهض من مجلسه بعد أن أتم قراءة الفصل الذى كان يطالعه فى الانجيل ، وقال انه سوف يوقظ السيد ليتلو صلواته ويأوى الى فراشه .. وتقدم جوزيف الى الأمام وناداه باسمه ، ثم لمس كتفه فى رفق ، ولكنه لم يتحرك ، فتناول شمعة وقربها اليه وأخذ يتأمله ، فأدركت للتو عندما نحى الضوء بعيدا ، أن هناك شيئا غير عادى قد حدث ، وأمسكت بالطفلين من ذراعيهما وهمست لهما بأن : « يذهبا معا الى الطابق العلوى ، ولا يحدثا جلبة كبيرة — وأن فى وسعهما تلاوة الصلوات وحدهما ذلك المساء — فان جوزيف لديه عمل آخر سوف يقوم به » .. ولكن كاثرين قالت :

— سوف ألقى على أبى تحية المساء أولا ..

وأسرعت تطوق عنقه بذراعيها قبل أن نتمكن من الحيلولة بينها وبينه .. ولكن الصغيرة المسكينة تبينت للتو خسارتها الفادحة ، فصرخت : « آه ! .. انه ميت ! .. لقد مات يا هيثكليف ! .. » وراح الاثنان يبكيان فى نحيب يقطع نياط القلوب ..

وشاركتهما الولولة والبكاء فى عويل مرير ، غير أن جوزيف سألنا عما نقصده من الزئير على هذا النحو فوق قديس رفع الى السماء ! .. ثم طلب منى أن أرتدى معطفى وأسرع الى

(جيمرتون) لأحضر الطبيب والقس ، فلم أستطع أن أحدس الفائدة من حضـور أى منهما وقتئذ ... ومهمـا يكن من أمر فقد مضيت وسط الرياح والأمطار ، فلما رجعت كان معى أحدهما ، وهو الطبيب .. أما الآخر فقد قال أنه سـوف يحضر فى الصباح ... وتركت لجوزيف مهمة ايضـاح الأمر للطبيب وأسرعت أعدو نحو حجرة الطفلين ، فوجدت بابهـا مواربا ، وألفيتهما مستيقظين لم يأويا الى الفراش بعد ، رغم أن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل ، ولكنهما كانا أشد سكينة ، وفى غير حاجة الى أن أسرى عنهما ... كان الصغيران البريئان يروح كل منهما عن الآخر بكلام وأفكار أفضل كثيرا مما كان يمكن أن أقوله لهما ، وما من قس فى العالم كان يمكنه البتة أن يصور السماء والجنة بأجمل مما كانا يصورانهما به فى حديثهما البرىء .. وبينما كنت أصغى اليهما باكية ، لم أملك الا أن أتمنى لو اننا كنا جميعا هناك سالمين معا ..

الفصل السادس

عاد مستر هندلى ليحضر الجنازة ، ولكن الشىء الذى أثار عجبنا ودهشتنا ، وجعل الجيران يلغطون بالأحاديث يمنـة ويسرة ، هو أنه لم يحضر وحده ، وانما أتى معه بزوجته ... أما من تكون ، وأين ولدت ، فانه لم يخبرنا بذلك قط ... ولعلها كانت عاطلا عن مال أو اسم رفيع يشفعان لها . والا لما كتم عن أبيه أمر زواجه منها ..

ولم تكن هى بالتى تحدث فى المنزل اضطرابا كبيرا بسبب وجودها فيه .. وكان كل شىء تقع عليه أنظارها منذ اجتازت عتبة الدار ، يبـدو كأنما يثير اعجابهـا وسرورها ، وكذلك الشأن فى كل حدث يجرى حولها ، فيما عدا معدات الجنازة والدفن ووجود المعزين المرتدين ثياب الحزن .. وقد حسبتها

شبه بلهاء بسبب مسلكها الذى اتخذته بينما كانت هذه الاستعدادات تمضى فى طريقها ، اذ هرعت الى حجرتها وجعلتنى أمضى اليها معها - بينما كان ينبغى أن أتولى الباس الطفلين ثيابهما - ثم جلست ترتعد فرقا وهى تهصر أصابعها المتشابكة ، وتتابع سؤالى مرة بعد مرة : « ألم يذهبوا بعد ؟ » .. وبدأت تصف لى ، فى انفعال وعصبية ، الأثر الذى يحدثه فى نفسها مرأى السواد ، وما لبثت أن انتفضت وارتجفت ثم انخرطت فى بكاء أليم ... فلما سألتها عما أصابها ، أجابت بأنها لا تدرى ، غير أنها تحس بخوف مروع من أن تموت .. وخلتها لا تزيد تعرضا للموت عنى ، فمع أنها نحيلة نوعا ، الا أنها كانت فى مقتبل الشباب ، نضرة المحيا ، تتألق عيناها كأنهما قطعتان من الماس ... بيد أننى لاحظت ، حقا، ان ارتقاءها الدرج قد جعل أنفاسها تتتابع فى سرعة لاهثة ، وأن أقل جلبة مفاجئة تبعث الرعدة فى بدنها كله ، وأنها كانت تسعل أحيانا سعالا أليما .. ولكنى لم أكن أدرى شيئا عما تنذر به هذه الأعراض ، ولم اشعر بدافع الى الرثاء لحالها ، فاننا عادة لا نألف الغرباء هنا يا مستر لوكوود ، ما لم يأنسوا الينا أولا ..

وكان أيرنشو الشاب قد تغير كثيرا فى السنوات الثلاث التى استغرقتها غيبته .. كان قد ازداد نحولا ، كما ازداد لونه شحوبا ، وغدا يتكلم ويرتدى ثيابه على نحو يختلف عما كان عليه من قبل .. بل أنه فى يوم عودته بالذات ، أمرنى وجوزيف بأن نجعل اقامتنا - من الآن فصاعدا - فى المطبخ الخلفى ونترك (البيت) ... والواقع انه كان يود اتخاذ حجرة صغيرة خالية كحجرة جلوس له ولزوجته ، فيفرش أرضها بالسجاد، ويكسو جدرانها بالورق ، ولكن زوجته أعربت عن سرورها البالغ بالبلاط الناصع البياض ، والموقد الضخم المتوهج ، وصحاف القصدير الواسعة ، وخزانة الخزف ، ووجار الكلب ،

وسعة المكان الذى اعتادا أن يجلسا فيه بما يسمح لها بالتجوال فى أنحائه ، بحيث وجد هندلى من غير الضرورى لراحتها أن يتخذ تلك الحجرة ، وهكذا عدل عن فكرته ..

كذلك أعربت الزوجة عن غبطتها اذ وجدت لزوجها أختا بين معارفها الجدد ، فراحت - فى بادىء الأمر - تثرثر مع كاثرين ، وتقبلها ، وتطوف معها هنا وهناك ، وتمنحها الكثير من الهدايا ، ولكن هذا الود ما لبث أن خارت قواه وشيكا .. وعندما غدت كثيرة التقطيب سريعة الغضب ، غدا هندلى طاغية جبارا .. وكانت بضع كلمات قليلة منها - توحى بكراهيتها لهيثكليف - كافية لأن توقظ فى هندلى حقده القديم نحو الصبى ، فنحاه عن رفقتهم الى رفقة الخدم ، وحرمه من الدروس التى كان يتلقاها على القس ، وأصر على أن يعمل ، بدلا من ذلك ، فى خارج الدار ، مرغما اياه على أداء أشق الأعمال فى الحقل ، شأنه فى ذلك شأن غيره من عمال الزراعة ..

واحتمل هيثكليف هذا الهوان فى صبر وجلد فى بادىء الأمر ، لأن كاثى كانت تلقنه ما تتعلمه من دروس ، وتشاركه فى اللعب أو العمل فى الحقول .. وكانا كلاهما ينذران بأنهما سيشبان طليقين ضاريين كالمتوحشين .. فان السيد الشاب ما كان يبالى البتة أى مسلك يسلكان ، أو أى شىء يفعلان ، طالما كانا بعيدين عن طريقه وعن ناظريه .. بل أنه ما كان ليعنى بالتحقق من ذهابهما الى الكنيسة فى أيام الآحاد ، لولا أن جوزيف والقس كانا يعنفانه على تراخيه كلما تغيب الفتى والفتاة عن القداس ، فكان ذلك يذكره بأن يأمر بجلد هيثكليف بالسياط ، وحرمان كاثى من الغداء أو العشاء ... وكانت متعتهما الكبرى أن يخرجا الى الأحراش منذ الصباح فيمرحا ويرتعا طول اليوم ، وأصبح ما يحل بهما من عقاب بعد ذلك ، مجرد شىء يضحكان منه ويسخران .. كان بوسع

القس أن يفرض على كاثى قدر ما يشاء من الفصول لحفظها عن ظهر قلب ، وكان بوسع جوزيف أن يظل يضرب هيثكليف حتى تدمى ذراعه ، ولكنهما سرعان ما ينسيان كل شىء فى اللحظة التى يجتمعان فيها معا ، أو على الأقل فى اللحظة التى يدبران فيها خطة خبيثة للانتقام ! .. وكم من مرة بكيت فيها اشفاقا على مصيرهما ، وأنا أرقبهما وهما يزدادان طيشا يوما بعد يوم ، دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة أو مقطع من كلمة ، خشية أن أفقد ذلك النزر اليسير من السلطة الذى كنت لا أزال أحتفظ به على الصغيرين اللذين حرما الأصدقاء ...

وقد حدث فى مساء يوم من أيام الآحاد أن أقصى الصغيران من حجرة الجلوس ، لضجة أحدثاها أو ما أشبه ذلك من التوافه ، فلما ذهبت لأدعوهما لتناول العشاء ، بحثت عنهما فى كل مكان فلم أجدهما .. ورحنا نفتش المنزل من عاليه الى أسفله ، وكذلك الفناء والحظائر ، ولكنهما كانا مختفيين تماما .. فثار هندلى أخيرا ، وأمرنا بأن نوصد الأبواب ونحكم رتاجها وأقسم ألا يفتح لهما أحد أو يدعهما يدخلان الدار فى تلك الليلة ..

وذهب أهل الدار جميعا الى مضاجعهم ، الا أنا فقد كنت من القلق واللهفة بحيث استحال على الرقاد ، ومن ثم فتحت نافذتى ومددت رأسى خارجها أرهف السمع لكل حركة ، على الرغم من المطر المنهمر ، وقد عزمت على ادخالهما اذا عادا ، غير مكترثة لأمر السيد بتحريم المنزل عليهما فى تلك الليلة ... وما مضت هنيهة حتى ميزت بين أيقاع المطر ، وقع خطوات قادمة من أول الطريق ، ولمحت بصيص ضوء يلتمع عند البوابة .. فبادرت بالقاء وشاح فوق رأسى ، وسارعت لأفتح لهما الباب قبل أن يوقظا مستر ايرنشو ان هما طرقاه .. ولكنى وجدت

هيثكليف وحده ، فارتعت اذ رأيته بمفرده ، وهتفت به قائلة في عجلة :

ـ أين مس كاثرين ؟ .. أرجو ألا يكون قد أصابها شيء ؟ ..

فأجابني : « انها في ثرشكروس جرانج .. وكان يمكن أن أكون هناك بالمثل لولا أنهم لم تكن لديهم فضلة من الذوق والأدب بحيث يدعونني للبقاء ! » .. فقلت له : « حسنا ، سوف تلقى جزاءك .. ولعمري لن تقنع قط حتى تطرد من هنا ، ويرمى بك لتدبر شئونك بنفسك .. ثم ما الذي دفعكما الى التجوال حتى ثرشكروس جرانج بحق السماء ؟ » .. فأجابني : « دعيني ريثما أنزع ثيابي المبللة يا نللي ، وسوف أخبرك بكل شيء عن ذلك » ... وطلبت اليه أن يحذر من ايقاظ السيد ، وفيما كان يخلع ثيابه ، بينما وقفت أنتظر حتى أطفىء الشمعة ، استطرد يقول :

ـ لقد فررنا ، كاثي وأنا ، من حجرة الغسيل لنقوم بجولة في الخلاء نستمتع فيها بحريتنا ، فلما لمحنا أضواء « الجرانج » من بعد ، خطر لنا أن نذهب للتو فنرى ان كان لينتون الصغير وشقيقته يقضيان أمسيات أيام الآحاد واقفين في الأركان يرتعدان من البرد ، بينما يجلس والدهما ووالدتهما ينعمان بالطعام والشراب والغناء والضحك والدفء المنبعث من نار الموقد المتأججة .. هل تظنينهما يفعلان ذلك يانللي ؟ .. أم ترينهما يقرآن العظات ويدرسان اللاهوت على يد خادم عجوز يرغمهما على حفظ أعمدة برمتها من الأسماء المعقدة التي ذكرت بالتوراة اذا هما لم يحسنا الاجابة على أسئلته ؟ ..

فأجبته : « انهما لا يفعلان ذلك على الأرجح ، فلا ريب أنهما طفلان طيبان لا يستحقان المعاملة التي تلقيانها جزاء سلوككما السيىء ! . » فابتدرني مجيبا : « دعي عنك هذا النفاق يانللي .. فأنت تهذين .. حسنا .. لقد انطلقنا نعدو من قمة المرتفعات حتى الحديقة ، دون توقف ، وقد غلبت كاثرين تماما

فى هذا السباق لأنها كانت حافية القدمين - وعليك ان تبحثى غدا عن حذائيها وسط مستنقعات الأوحال ! - ثم تسللنا خلال ثغرة فى السياج ، وتلمسنا طريقنا فى الممر المرتفع حتى وقفنا أخيرا فوق أصيص زهر تحت نافذة حجرة الجلوس ، وهى التى كان يتسرب خلالها الضوء الذى رأيناه ، اذ كانت مصاريعها الخشبية غير موصدة وستائرها منفرجة .. وكان فى وسع كل منا أن ينظر الى داخل الحجرة اذا وقفنا فوق الاصيص وتعلقنا بأفريز النافذة .. وما الذى رأيناه ؟ .. لقد صافحت عيوننا منظرا خلابا ! .. كان المكان رائع الجمال تغطى أرضه طنافس قرمزية اللون ، وتكسو مقاعده وموائده مفارش من اللون نفسه ، والسقف ناصع البياض مموه الحواشى بالذهب ، تتدلى منه ثريا من قطع البللور الشبيهة بقطرات الدموع ، وقد علقت الى السقف بسلاسل من الفضة وتألقت بأضواء شموع دقيقة رقيقة .. ولم يكن مستر ومسز لينتون الكبيران هناك ، وانما اختص بالحجرة كلها أدجار وشقيقته .. أفلا يخلق بهما أن يكونا سعيدين هانئين ؟ .. اننا لو كنا فى مكانهما لحسبنا نفسينا فى الفردوس !.. والآن، هل يمكنك أن تحدسى ما كان « طفلاك الطيبان » يفعلان ؟.. كانت ايزابيلا - وأحسبها فى الحادية عشرة وتصغر كاثى بعام واحد - مستلقية على الأرض فى الطرف القصى من الحجرة وهى تصيح وتصرخ كأنما اجتمعت عليها الساحرات يغرسن فى لحمها ابرا محماة فى النار ! .. أما ادجار فكان يقف بجوار الموقد ، وهو ينتحب فى سكون ، بينما قبع فى وسط المائدة جرو صغير يهز ذراعه وينبح نباحا خافتا ، وفهمنا من الاتهامات التى كانا يتبادلانها أنهما كادا يشطرانه بينهما وهما يتجاذبانه .. يالهما من أخرقين ! .. أبهذه الوسيلة يلهوان ويلعبان ؟ .. أن يتشاجرا متنازعين على أيهما يمسك هذه الكومة من الشعر الدافىء ، ثم يأخذ كل منهما فى البكاء

لأن كلا منهما ، بعد ان ناضل رفيقه على اقتنائها ، يأبى أن يأخذها ! .. لقد أمعنا فى الضحك ساخرين من هذين الأبلهين اللذين أفسدهما التدليل ، وامتلأت نفسانا ازدراء لهما واحتقارا لصغارهما .. بربك يا نللى هل ضبطتنى يوما راغبا فى شىء تريده كاثى ؟.. أوهل وجدتنا منفردين يوما ننشد اللهو والمرح فى الصراخ والعويل ، والتدحرج على الأرض ، تفصلنا الحجرة بأسرها ؟.. اننى لا أرضى قط ـ ولو عشت ألف حياة ـ بأن أستبدل بحالتى هنا ، حياة ادجار لنتون فى ثرشكروس جرانج ، حتى ولو اختصصت بميزة القدرة على القاء جوزيف من أعلى قمة فيه ، أو طلاء واجهة البيت بدم هندلى ! .. »

فقاطعته قائلة : « صه ! .. صه ! .. ثم انك لم تخبرنى بعد يا هيثكليف كيف خلفت كاثى وراءك ؟ . »

فاستطرد يقول :

ـ قلت لك أننا ضحكنا ساخرين ، وعندئذ سمعنا الطفلان فاندفعا نحو الباب فى وقت معا كأنهما قذيفتان من السهام .. وخيم الصمت لحظة ، ثم انبعثت صيحة تهتف : « آه .. ماما .. ماما .. آه .. بابا .. تعاليا هنا » .. والواقع أن كليهما كانا يعويان بكلمات من هذا النوع ، فأخذنا نحدث ضوضاء مخيفة لنزيد من رعبهما ، ولكننا ما لبثنا أن تركنا افريز النافذة ، وهوينا الى الأرض ، اذ كان أحد سكان الدار يرفع المزاليج من خلف الباب ، فشعرنا بأن من الخير لنا أن نعمد الى الفرار .. وكنت أمسك بيد كاثى ، واستحثها على الاسراع ، عندما وجدتها تسقط فجأة على الأرض دفعة واحدة ، ثم تهمس لى قائلة : « اجرِ يا هيثكليف .. أسرع .. لقد أطلقوا البولدوج فى أثرنا وها هو يمسك بى ! .. » وكان الشيطان يمسك بعقبها يانللى ، فكنت أسمع زمجرته المروعة ... أما هى فلم تصرخ قط .. كلا .. وانها لخليقة بأن

تأنف من الصراخ لو حملتها بقرة ثائرة وسلكتها فى قرنيها !.. ومع ذلك كنت انا الذى صحت وأعولت .. وتدفقت من فمى اللعنات التى تكفى لتدمير أى شيطان خبيث ! .. وتناولت حجرا ودفعته بين فكى الكلب ، ثم حاولت بكل قواى أن أحشره فى حلقه .. وأخيرا أقبل بهيم من الخدم يحمل مصباحا ، وهو يهتف بالوحش : « شدد القبض ياسكلكر .. شدد قبضتك !. » ولكنه ما أن رأى فريسة سكلكر حتى بدل من لهجته ، ثم أمسك بعنق الكلب حتى خلصها من بين فكيه ، فتدلى لسانه الضخم القانى زهاء نصف قدم خارج فمه وقد فاضت شفتاه باللعاب الدامى .. ورفع الرجل كاثى عن الأرض ، وكانت قد أغمى عليها ، لا من الخوف – يقينا – وانما من الألم .. وحملها الى الداخل ، فتبعته دون أن أكف عن اطلاق ألفاظ السباب واللعنات والوعيد بالانتقام .. وهتف لنتون من الداخل : « مانوع الفريسة ياروبرت ؟ » فأجابه : « لقد أمسك سكلكر بفتاة صغيرة يا سيدى » ثم أردف وهو يتشبث بكتفى : « وهنا أيضا غلام يلوح فى وجهه الشر ، ويبدو أن اللصوص كانوا يريدون ادخالهما من النافذة ليفتحا الأبواب للعصابة بعد أن ينام أهل الدار جميعا ، حتى يتاح لهم بذلك أن يفتكوا بنا فى يسر بغير عناء .. امسك لسانك أيها اللص ذو الفم الدنس ، واعلم أنك سوف تشنق جزاء فعلتك هذه .. وانت يا سيدى مستر لنتون ، لاتدع مسدسك يغيب عنك قط ! » .. فقال العجوز المأفون : « كلا .. كلا ياروبرت .. لقد علم الاوغاد أن الأمس كان يوم تحصيل الايجارات ، وحسبوا أنهم سوف ينالوننى فى براعة .. ادخل ، فسوف اهيىء لهم استقبالا رائعا .. وأنت ياجون ، ثبت السلاسل فى مكانها .. ضعى للكلب بعض الماء يا جينى !.. آه ! .. أيجترئون على قاض فى عرينه المنيع ، وفى يوم أحد أيضا ؟.. الى أى حد سيمضون فى قحتهم وفجورهم ؟..آه !..أنظرى

هنا ياعزيزتى مارى .. لاتخشى شيئا فانه ليس الا غلاماصغيرا، وان كان الشر مرتسما على وجهه فى جلاء ! .. أليس من الرحمة بالمجتمع أن يشنق للتو واللحظة، قبل أن تظهر طبيعته فى أعماله الشريرة، كما تظهر فى محياه ؟.. » ثم جذبنى تحت الشموع ليتفرس فى وجهى، على حين وضعت مسز لنتون عويناتها فوق أنفها وما لبثت أن رفعت ذراعيها فى هلع شديد .. أما الصغيران فقد ازدادا التصاقا بأمهما فى جبن واضح، وتمتمت ايزابيل بلثغتها القبيحة : « ياله من (شىء) رهيب! .. اسجنه فى القبو يا أبتاه، فانه يشبه تماما ابن قارئة البخت الذى سرق دجاجتى البرية الأليفة .. أليس كذلك يا ادجار ؟ »

وبينما كانوا يتفحصوننى ويتفرسون فى وجهى، أفاقت كاثى من غشيتها .. وسمعت العبارة الأخيرة، فانبعثت تضحك بملء فيها، وعندئذ حملق ادجار لنتون فيها بنظرات متسائلة، استجمع على أثرها من وشائج فطنته ما يكفى لأن يعرفها .. فهم يروننا فى الكنيسة، كما تعلمين، وان كناقلما نقابلهم فى أى مكان آخر .. وما لبث أن همس لوالدته قائلا: « هذه مس ايرنشو .. انظرى كيف عقرها سكلكر، وكيف تدمى قدمها ! »

فصاحت السيدة : « مس ايرنشو ؟ .. هراء ! .. مس ايرنشو ترتاد الريف فى رفقة ولد من الغجر ؟ .. ومع ذلك .. يا الهى ! .. ان الغلام يرتدى ثياب الحداد – انه كذلك حقا – ولقد كان من المحتمل أن تفقد قدمها الى الأبد ! »

فهتف مستر لنتون متعجبا وهو ينقل أنظاره منى الى كاثرين :

– يا له من استهتار اجرامى من جانب شقيقها ! .. لقد فهمت من حديث شيلدر (كان هذا اسم القس يا سيدى) انه يدعها تنشأ وتنمو فى الوثنية المطلقة .. ولكن من هذا ؟

.. ومن أين التقطت هذا الرفيق ؟ .. أوه ! .. أوه ! .. أرى أنه ليس سوى ذلك الغلام الغريب الذى اقتناه المرحوم جارى الراحل أثناء رحلته الى ليفربول ، ولا ريب انه شرير صغير ألقت به البحار من الهند أو أمريكا او اسبانيا ..

فقالت السيدة الكهلة : « مهما يكن من أمر فانه غلام شرير ، ولا يليق البتة ببيت محترم .. هل لاحظت ألفاظه ولهجته يا لنتون؟.. شد ما يضايقنى أن يضطر طفلاى الى سماعها .. »

فعاودت السباب واللعنات من جديد - وبالله لا تغضبى يا نللى ! - وهكذا صدر الأمر الى روبرت بأن يخرجنى من البيت .. ورفضت الذهاب ما لم تصحبنى كاثى ، ولكنه جرنى جرا الى الحديقة ، ودفع المصباح فى يدى ، قائلا أن مستر أيرنشو سوف يحاط علما بمسلكى ، ثم أمرنى بأن أمضى فى طريقى قدما ، وسرعان ما أوصد الباب فى وجهى ... وكانت الستائر لا تزال منفرجة عند أحد أركان النافذة ، فعدت الى موقفى مسترقا النظر من جديد ، وفى نيتى ، اذا رأيت كاثرين راغبة فى العودة معى ، ان أحطم ألواح الزجاج الكبيرة الى ملايين الشظايا ، أو يسمحوا لها بالخروج .. ولكنها كانت تجلس فوق الأريكة فى هدوء وطمأنينة ، بينما كانت مسز لينتون تنزع عنها معطف الغسالة الأغبر الذى كنا قد استعرناه لرحلتنا هذه ، وهى تهز رأسها وتبدو كأنما تعاتبها على مسلكها ... لقد كانت سيدة صغيرة ، وكانوا ، من ثم ، يفرقون فى المعاملة بينها وبينى .. وأحضرت الخادم وعاء به ماء دافىء ، وراحت تغسل قدميها ، على حين وقف مستر لينتون يعد لها شرابا ساخنا ، هو مزيج من الليمونادة والنبيذ ، وأتت ايزابيلا بطبق ملىء بالكعك أفرغته فى حجرها ، بينما وقف أدجار على مبعدة يحدق النظر اليها فاغر الفم

مبهوتا ! .. وما لبثوا أن راحوا يجففون شعرها الجميل ويمشطونه ، وأتوها بخف كبير الحجم ، ثم قادوها الى المدفأة ... فخلفتها وهى أوفر ما تكون مرحا وغبطة ، تقتسم طعامها مع الكلب الصغير ومع (سكلكر) الذى كانت تقرص أنفه وهو يمضغ الطعام ، وتشعل وميضا من الحيوية فى عيون آل لينتون الزرقاء الجوفاء ، وميضا ينعكس من جمالها الساجر ووجهها الصبيح ... ورأيتهم جميعا وقد ملأهم الاعجاب والذهول ، اذ كانت أعظم منهم سموا فلا يتطاولون الى منزلتها ، بل أنها لأرفع من أى انسان آخر على وجه الأرض .. أليست كذلك يا نللى ؟! »

فأجبت وأنا أدثره بالأغطية وأطفىء الشمعة : « لسوف تجلب هذه المسألة من العواقب أكثر مما تقدره وتحسبه .. فأنت شخص لا يرجى صلاحك يا هيثكليف ، وسوف يذهب مستر هندلى فى عقابك الى أقصى الحدود .. سوف ترى اذا كان لا يفعل ! .. » ولقد تحققت نبوءتى الى أبعد مما قدرت وأردت .. فان تلك المغامرة التعسة أثارت ثائرة أيرنشو ، وزاد الطين بلة مقدم مستر لينتون فى الغداة لاصلاح الأمر ، فاذا به يلقى على السيد الشاب محاضرة طويلة عن الطريق التى يسلكها فى قيادة أسرته ورعاية شئونها ، بحيث جن جنون هندلى وراح يتلفت حواليه فى لهفة .. ولكن هيثكليف ــ هذه المرة ــ لم يجلد أو يعاقب ، وانما قيل له انه اذا وجه الى مس كاثرين كلمة واحدة فسوف يطرد من المنزل فورا !.. كما أخذت مسز أيرنشو على عاتقها أن تحول دون اتصال هيثكليف بشقيقة زوجها بعد عودتها ، على أن تستخدم الحيلة والدهاء فى ذلك ، لا العنف والقسر اللذين كانا خليقين بأن يجعلا مهمتها شاقة بل مستحيلة ..



« .. ولم يكن بعيدا ، اذ وجدته فى الاسطبل يطعم الدواب ويمسح
على جلد المهر الجديد اللامع المصقول .. فقلت له .. » (أنظر ص ٨٨)

الفصل السابع

مكثت كاثى فى «ثرشكروس جرانج» خمسة أسابيع ، حتى حل عيد الميلاد .. وفى خلال تلك المدة كان عقبها قد شفى تماما ، وتحسنت أخلاقها وسلوكها كثيرا ... وقد قامت السيدة مرارا بزيارتها فى هذه الاثناء ، حيث بدأت خطتها فى اصلاح الفتاة ، بمحاولة رفع روحها المعنوية ، وزيادة شعورها باعتبارها ، وذلك باهدائها الثياب الفاخرة ، وتملقها ، الأمر الذى تقبلته الفتاة عن طيب خاطر ... وهكذا فاننا بدلا من أن نرى فتاة وحشية نافرة عارية الرأس تقفز الى داخل المنزل وتندفع الى كل منا لتهصره بين ذراعيها حتى تتقطع منا الأنفاس ، اذا بنا نرى التى تهبط ، من فوق ظهر مهر أسود جميل ، آنسة رفيعة القدر تتدلى غدائرها الكستنائية من تحت قبعة من الفراء المزين بالريش ، وترتدى معطفا طويلا من القماش الفاخر راحت تجمع أطرافه بكلتا يديها حتى تستطيع السير فى يسر .. ورفعها هندلى من فوق ظهر الجواد بين ذراعيه ، وهو يهتف جذلا : « ما هذا يا كاثى ؟ .. انك رائعة الجمال ... لقد كدت لا أعرفك ، فانك تبدين الآن مثال السيدة الرفيعة .. ان ايزابيلا لينتون لا تقاس بها شيئا ، أليس كذلك يا فرانسيس ؟ .. » فأجابت زوجته : « ان ايزابيلا ليست على شىء من جمالها ومزاياها .. ولكنها يجب أن تتعقل فلا تعود الى وحشيتها هنا ... ساعدى مس كاثرين فى خلع ثيابها يا ايلين ! .. آه ! .. انتظرى يا عزيزتى حتى لا تفسدى غدائرك ، ودعينى أخلع قبعتك بنفسى ... »

ونزعت المعطف ، فتألق تحته ثوب نفيس من الحرير اللامع المتعدد الألوان ، وسراويل بيضاء ، وحذاء يخطف بريقه الأبصار ! .. وبينما تألقت عيناها سرورا عندما تدافعت

الكلاب حولها مرحبة بها ، فانها لم تجرؤ على مداعبتها حتى لا تلعقها فتفسد ثوبها وزينتها ... بل انها قبلتنى فى رفق ، وعن بعد ، اذ كان ثوبى ملوثا بدقيق كعكة عيد الميلاد التى كنت أقوم بصنعها ، فلم تر من الملائم أن تضمنى الى صدرها ! .. وما لبثت أن تلفتت باحثة عن هيثكليف ، وهى اللحظة التى كان مستر أيرنشو وزوجته يرقبانها فى لهفة وقلق ، اذ يريان أن لقاءهما سوف يمكنهما من الحكم ، الى حد ما ، على احتمالات الأمل فى نجاح خطتهما فى التفريق بين الصديقين !

وظل هيثكليف مختفيا عن الأنظار فى بادىء الأمر .. واذا كان ، قبل غيبة كاثرين الطويلة ، قليل الاهتمام بنظافته ، ولا يجد من يعنى به ، فقد غدا ، منذ ذلك الحين ، أسوأ من ذلك عشر مرات ... ولم يجد أحد ممن فى الدار فى نفسه نازعة من نوازع الشفقة به حتى ينبهه الى قذارته ، سواى .. فكنت آمره بغسل وجهه ولو مرة كل أسبوع ، اذ أن الصبيان فى سنه قلما يجدون بهجة فى لقاء الماء والصابون ... لذلك فانه ، بغض النظر عن ثيابه التى صحبته فى الخدمة فى الوحل والتراب ثلاثة شهور دون أن يستبدلها ، وعن شعره الملبد الذى لم يمشطه طوال تلك المدة ، فقد كان وجهه ويداه تخفيها الأقذار الى حد مروع .. ولعله توارى خلف أحد الحواجز ، عندما رأى آنسة وضاءة الطلعة ، بهية المظهر ، تدخل المنزل بدلا من تلك الفتاة المشعثة الشبيهة به ، كما كان يتوقع .. وأخيرا قالت وهى تنزع قفازيها وتكشف عن أنامل ابيض لونها ورقت بشرتها من قلة استعمالها ومن مكثها داخل الدار طويلا : « أليس هيثكليف هنا ؟ »

وعندئذ صاح مستر هندلى ، منتشيا بما أصاب الفتى من سوء الحال وخيبة الأمل ، مستمتعا بأن يراه مضطرا الى الظهور بهذا المظهر المزرى الخسيس : « يمكنك أن تتقدم

يا هيثكليف .. يمكنك أن تأتى لترحب بمس كاثى كباقى الخدم ! .. »

وما أن لمحت كاثى صديقها فى مخبئه ، حتى اندفعت نحوه مسرعة ، كأنها خفقة من جناح طائر ، لتحتضنه وتعانقه ، وأمطرت وجهه بسبع قبلات أو ثمان فى أقل من ثانية واحدة ، ولكنها ما لبثت أن توقفت بغتة ، وتراجعت الى الوراء ، ثم انفجرت ضاحكة وهى تقول : « عجبا ! .. ما أشد سواد طلعتك وتقطيب أساريرك ! .. ثم .. لماذا تبدو متجهما مضحكا ؟ .. ولكن لعل ذلك بسبب تعودى على رؤية أدجار وايزابيلا لينتون .. حسنا يا هيثكليف ، هل نسيتنى ؟ »

وكان لها العذر فى القاء هذا السؤال عليه ، لأن الخزى والكبرياء ألقيا على محياه جهامة وعبوسا فوق جهامته وعبوسه المألوفين ، وسمراه فى مكانه بلا حراك .. وعندئذ قال مستر أيرنشو فى تنازل :

ـ صافحها يا هيثكليف !.. اننا نسمح بذلك هذه المرة !

فأجاب الغلام وقد استطاع النطق أخيرا : « لن أفعل .. ولن أقف لأكون أضحوكة لها .. فهذا أمر لا أستطيع احتماله ! »

وهم بالفرار من وسط الحلقة ، لولا أن مس كاثى أمسكت به ثانية وقالت : « لم أكن أقصد أن أضحك منك ، وان كنت لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك .. ألا صافحنى ياهيثكليف على الأقل ! .. ما الذى يثيرك هكذا ؟ .. ان الأمر لا يعدو أننى استغربت منظرك العجيب . ولو انك تغسل وجهك وتمشط شعرك لأصبح كل شىء على ما يرام ، فالحق أنك شديد القذارة ! »

وراحت تحدق النظر فى امعان الى أصابعه القذرة الكابية التى كانت تمسك بها بين يديها ، وتقلب البصر بينها وبين ثوبها النظيف ـ كأنما تخشى أن يناله شىء من القذارة من

ملامسته لثياب هيثكليف — وكان يتبع نظراتها فى فهم وادراك ، فاذا به ينتزع يده من يدها فى عنف وقوة ، ويقول :

— لم تكن بك حاجة لأن تلمسينى .. سوف أكون قذرا بالقدر الذى يروق لى .. فأنا أحب القذارة وسأظل قذرا !

ثم اندفع خارجا من الحجرة فى انفعال شديد ، وسط قهقهة السيدة والسيد ، وقلق كاثرين وانزعاجها البالغ ، فلم يكن فى استطاعتها أن تفهم كيف تثير ملاحظتها البسيطة هذا المظهر الواضح من سوء الخلق !

وبعد أن قمت بدور الوصيفة للقادمة الجديدة ، ووضعت الكعك فى الفرن ، وأوقدت فى مدفأتى المطبخ وحجرة الجلوس نيرانا حامية تشيع فيهما الدفء والبهجة ، بما يليق وعشية عيد الميلاد ، اتخذت لنفسى مجلسا ورحت أسلى نفسى بالترنم بأناشيد العيد ، وحدى ، ضاربة صفحا عن تأكيد جوزيف بأنه يعتبر الأنغام المرحة التى آثرت الترنم بها أقرب الى الأغانى الخليعة ! ! وكان قد اعتكف فى حجرته ليؤدى صلاته الخاصة ، بينما كان مستر ومسز أيرنشو يثيران اهتمام الآنسة بتلك التوافه الخلابة المختلفة التى أحضراها كى تقدمها هدية للشقيقين الصغيرين ادجار وايزابيلا لينتون ، عرفانا منها بحسن صنيعهما معها .. فقد وجهت اليهما الدعوة لقضاء اليوم التالى فى (مرتفعات ويذرنج) ، وقبلت الدعوة من جانبهما بشرط واحد ، اذ رجت مسز لينتون أن يظل طفلاها الحبيبان بمنأى تماما عن ذلك « الولد الشرير البذىء اللسان » !

وازاء هذه الظروف ، مكثت جالسة وحدى ، أشم تلك الرائحة الدسمة المنبعثة من الفطائر الناضجه فى الفرن ، وأتأمل فى اعجاب أوانى المطبخ اللامعة ، وساعة الحائط المجلوة وقد أحاطت بها أوراق شجرة عيد الميلاد ، والأقداح الفضية المصفوفة فوق صفحة كبيرة ، انتظارا لملئها بالجعه الساخنة

وقت العشاء ، ثم فوق كل شيء ، ذلك البلاط اللامع المصقول الذي يعزى صفاؤه ونقاؤه الى عنايتي بصقله ومسحه ! .. وكنت في قرارتي أصفق استحسانا لكل شيء يقع عليه بصري ، فذكرت كيف اعتاد أيرنشو العجوز أن يأتي بعد أن يتم اعداد كل شيء وترتيبه ، فيدعوني ب « البنت المهياصة » ! .. ثم يدس في يدي « شلنا » ، كمنحة عيد الميلاد .. واستطرد بي التفكير من ذلك الى ولعه الشديد بهيثكليف ، وفزعه مما قد يلقاه من اهمال بعد أن يطويه الموت .. وقادني هذا التفكير ، بطبيعة الحال ، الى التأمل فيما بلغته حال الفتى المسكين من السوء الآن ، وعندئذ غيرت رأيي فتحولت من الترنم بالغناء الى البكاء والنواح ! .. ولكن سرعان ما خطر لي أن الأجدى والأصوب هو محاولة اصلاح بعض ما أصابه من مظالم بدلا من ذرف الدموع عليها ، وهكذا نهضت ومضيت الى الفناء في طلبه ، ولم يكن بعيدا ، اذ وجدته في الاسطبل يطعم الدواب ويمسح على جلد المهر الجديد اللامع المصقول ، فقلت له :

ــ أسرع يا هيثكليف ، فان المطبخ شديد الاغراء ، وجوزيف في الطابق العلوي .. أسرع ودعني ألبسك وأهندمك قبل أن تأتي مس كاثي ، حتى تستطيعا الجلوس معا برهة منفردين بجوار المدفأة ، وتتحدثا حديثا طويلا الى أن يحين موعد النوم ..

فاستمر يقوم بعمله دون أن يحول رأسه نحوي البتة .. فاستطردت أتابع القول :

ــ هيا .. ألست قادما معي ؟ .. ان لدي كعكة صغيرة لكل منكما تكفي لاشباعكما .. هيا ، فان لبسك وتهيئتك تحتاج الى نصف ساعة على الأقل ..

وانتظرت خمس دقائق ، فلما لم أتلق منه ردا ، سواء بكلمة أو ايماءة ، تركته ومضيت لشأني .. وتناولت كاثرين عشاءها مع أخيها وزوجته ، على حين اقتسمت وجوزيف

عشاء كئيبا كانت مشهياته التعنيف والتبكيت من جانب ، والمكر والتخابث من الجانب الآخر ! .. بينما بقيت فطيرة هيثكليف وقطعة الجبن المعدة له موضوعتين على المائدة طوال الليل كأنما أعدتا لعشاء العفاريت ! .. فقد تعمد أن يمضى فى العمل حتى الساعة التاسعة ، حيث انصرف الى حجرته قدما ، دون أن تنفرج شفتاه بكلمة أو همسة ، مصرا على الاعتكاف والعزلة .. أما كاثى فقد سهرت طويلا تلك الليلة اذ كانت لديها دنيا بأسرها من الأشياء التى تود أن تأمر باعدادها لاستقبال أصدقائها الجدد فى الغداة .. وقد حضرت الى المطبخ مرة لتتحدث الى صاحبها القديم ، فمكثت برهة ريثما سألتنى عما دهاه ، ثم انصرفت لشأنها ..

واستيقظ هيثكليف مبكرا فى الصباح ، واذ كان اليوم عطلة العيد ، فقد حمل همومه وعبوسه الى البرارى ، ولم يظهر ثانية الا بعد أن كانت الأسرة قد ذهبت الى الكنيسة .. ويبدو أن الصوم وامعان الفكر قد خففا من غلوائه ورداه الى حالة معنوية أفضل ، اذ ظل يحوم حولى برهة ، وما لبث أن استجمع شجاعته فقال لى بغتة :

ــ اجعلى منى شخصا حسن المظهر يا نللى ، فقد عزمت على أن أكون غلاما طيبا !

فقلت : « ليت ذلك كان من زمن يا هيثكليف ! .. لقد آلمت كاثرين وأحزنتها حتى لأجرؤ على القول بأنها أسفت لعودتها الى المنزل ! .. ويبدو انك تغار منها لأنها تلقى من الرعاية والاهتمام أكثر مما تلقاه أنت »

وكانت فكرة « غيرته » من كاثرين غير ذات معنى لديه ، فلم يفهمها .. أما فكرة « ايلامه » لها فقد فهمها واضحة جلية ، اذ سألنى وقد لاح عليه الاهتمام البالغ : « هل قالت انها حزنت وتألمت ؟ »

ـ لقد بكت هذا الصباح عندما أخبرتها أنك خرجت ثانية ..

ـ حسنا ، لقد بكيت أنا ليلة أمس ، وكان لدى من اسباب البكاء وبواعثه أكثر مما لديها ..

ـ نعم .. وكنت من التعقل بحيث ذهبت الى الفراش بقلب ملىء بالكبرياء ، ومعدة خاوية من الطعام ! .. ان ذوى الكبرياء يخلقون لأنفسهم الأحزان والهموم دائما .. ولكن اذا كنت حقا نادما على حمقك وتسرعك ، فيجب أن تسألها الصفح عندما تعود من الخارج .. يجب أن تصعد اليها وتعرض عليها أن تقبلها ، وتقول لها .. حسنا .. انك تعرف خيرا منى ما ينبغى أن تقوله .. ولكن عليك أن تفعل ذلك من كل قلبك ، لا كما لو كنت تعتقد انها قد تحولت الى انسانة غريبة عنك لمجرد انها ترتدى ثوبا فاخرا .. ومع أننى الآن مشغولة باعداد الطعام ، الا أننى سوف أختلس بعض الوقت لأعنى بزينتك بحيث يبدو ادجار لينتون الى جانبك أشبه بدمية صغيرة ، وانه لكذلك حقا ! .. انك أصغر منه سنا ، ومع ذلك أؤكد لك أنك أطول منه قامة وتفوقه مرتين فى عرض منكبيك .. ان فى وسعك أن تصرعه فى لمحة كومضة البرق .. ألا تشعر أنك قادر على ذلك ؟

فأشرق وجه هيثكليف لحظة ، ثم ما لبث أن غاضت اشراقته وتنهد قائلا :

ـ ولكن يا نللى ، لو اننى صرعته عشرين مرة ، لما قلل ذلك من وسامته أو زادنى جمالا ! .. وشد ما أتمنى أن يكون لى شعر أشقر وبشرة ناصعة البياض وثياب شبيهة بثيابه ، وعيشة تماثل عيشته ، وفرصة لأن أكون ثريا مثلما سيكون.

فأضفت لأكمل له الصورة :

ـ وأن تظل تصيح : « ماما .. ماما .. » كلما روعك شىء ، وترتعد فزعا اذا لوح صبى ريفى بقبضة يده فى وجهك ،

وتظل قعيد الدار كلما سقط رذاذ من المطر!.. أواه ياهيثكليف! .. انك تبدى روحا خائرة وهمة فاترة ! .. تعال معى الى المرآة وسوف أجعلك ترى ما ينبغى أن تتمناه .. هل تلاحظ هذين الخطين العميقين بين عينيك ، وهذين الحاجبين الكثيفين اللذين يغوصان فى الوسط بدلا من أن يرتفعا مقوسين ؟.. ثم هذين الشيطانين الخبيثين الغائرين فى محجريهما عميقا ، واللذين لا يفتحان نوافذهما قط فى صراحة وشجاعة ، وانما يكمنان تحتها ويشعان بريقا خاطفا كأنهما من جواسيس الشيطان ؟ .. عليك أن ترغب حقا وتعرف كيف تلين هذه الغضون والتجاعيد التى تنم عن الشراسة والمشاكسة ، وكيف ترفع أجفانك فى صراحة ، وتحيل الشيطانين الخبيثين الى ملاكين بريئين ممتلئين ثقة ، لا يرتابان ولا يشكان فى شىء ، ولا يريان الا أصدقاء ، حيثما لا يكونان واثقين من انهم أعداء ! .. ولا تحمل أساريرك ذلك الطابع الغريب الذى يعلو أسارير كلب زنيم يعرف أنه يستحق الركلات التى ينالها ، ومع ذلك يبغض العالم كله مع الشخص الذى يركله ، من أجل ما يلحق به من أذى وألم ..

فأجابنى :

ـ أى اننى ـ فى كلمات أخرى ـ يجب أن أرغب حقا فى أن تكون لى عينا ادجار لينتون الزرقاوان الواسعتان ، وجبهته المستوية الملساء ؟ .. حسنا .. اننى أرغب فى ذلك حقا ، ولكن ذلك وحده لا يساعدنى على أن أنال رغبتى ..

فتابعت حديثى قائلة :

ـ ان القلب الطيب سوف يجعل لك وجها جميلا يا بنى ولو كنت زنجيا صميما .. أما القلب الشرير فانه يحيل الوجوه الجميلة الى ما هو أسوأ من القبح والدمامة .. والآن وقد فرغنا من الاغتسال ، وتمشيط الشعر ، ومن العبوس والتجهم أيضا ، فانظر وقل لى ألست ترى نفسك أقرب الى

الوسامة وصباحة الوجه ؟ .. أما أنا فأراك كذلك حقا .. فأنت الآن أليق بأن تكون أميرا متنكرا !.. ومن يدرى ، لعل أباك كان امبراطور الصين ، وأمك كانت ملكة هندية ، وكلاهما قادر على أن يشترى ، بدخل أسبوع واحد ، مرتفعات ويذرنج وثرشكروس جرانج معا ؟ .. ولعل بعض البحارة الشريرين قد اختطفوك واحضروك الى انجلترا ؟ .. ولو اننى كنت فى مكانك لأظهرت فكرة عالية عن طيب منبتى ورفعة أصلى ، ولمنحنى التفكير فيما كنت عليه ، الشجاعة والكرامة لاحتمال مظالم فلاح صغير لا يطاولنى !

ولبثت اتحدث الى هيثكليف على هذا النحو حتى لانت أساريره وتلاشى عبوسه وتجهمه ، وبدأ يلوح بهى الطلعة مشرق المحيا ، عندما قطع حديثنا فجأة صوت قعقعة تنبعث من الطريق وتدخل الى الفناء .. وأسرعنا معا ، هو الى النافذة ، وأنا الى الباب ، فى الوقت المناسب كى نرى ادجار لينتون وشقيقته يهبطان من عربة الأسرة ، وقد أخفت المعاطف والفراء معالمهما ، بينما كان آل أيرنشو يترجلون عن جيادهم التى كانوا يمتطونها غالبا عندما يذهبون الى الكنيسة فى الشتاء .. وأمسكت كاثرين بيدى الصغيرين وقادتهما الى المنزل ، ثم أجلستهما أمام نار المدفأة ، التى سرعان ما أشاعت الحمرة فى وجهيهما الشاحبين ..

وحثثت رفيقى على أن يسرع الآن ويكشف لهم عن دماثة خلقه وروحه الودية ، الا أن سوء الحظ أراد أنه فى اللحظة التى كان فيها هيثكليف يفتح الباب المؤدى من المطبخ الى حجرة الجلوس من ناحية ، كان هندلى يفتحه من الناحية الأخرى ، فتقابلا وجها لوجه .. وكأنما حنق السيد اذ رآه نظيفا مرحا ، أو لعله أراد أن يفى بوعده لمسز لينتون ، فاذا به يدفعه الى الوراء دفعة عنيفة مفاجئة ، ويصيح بجوزيف فى سخط : « أبعد هذا الشخص عن الحجرة .. احبسه فى

المخزن العلوى حتى نفرغ من الغداء ، فسوف يعبث بأصابعه القذرة فى الفطائر والحلوى ، ويسرق الفاكهة ، لو ترك وحده معها لحظة واحدة »

فلم أتمالك نفسى من القول فى انفعال :

ـ لا يا سيدى .. انه لن يمس شيئا .. فما هو بالذى يفعل ذلك .. ثم أننى أحسبه خليقا بأن ينال نصيبه من فطائر العيد وحلواه ، شأننا جميعا ..

فصاح هندلى :

ـ بل سوف ينال نصيبه من يدى لو أمسكت به فى هذا الطابق حتى المساء .. امش أيها المتشرد .. اغرب عن وجهى .. ماذا ؟ .. ما شاء الله .. ما هذه الغندرة التى تحاول أن تظهر بها ؟ .. اصبر حتى أمسك بهذه الغدائر الأنيقة ، لترى كيف أجذبك منها حتى أزيدها طولا ..

فقال السيد لينتون وهو يسترق النظر من فتحة الباب :

ـ انها طويلة بما فيه الكفاية ، وانى لأعجب كيف لا تصيبه بوخز فى رأسه .. انها تتدلى فوق عينيه أشبه بناصية (قصة) الجحش ..

ولقد اجترأ على ابداء هذه الملاحظة دون أى قصد للاهانة أو السباب ، ولكن طبيعة هيثكليف الحادة لم تكن مستعدة لاحتمال مظاهر القحة من شخص يبدو أنه كان يبغضه ـ حتى فى ذلك الحين ـ كمنافس له ، فأمسك بآنية مليئة بصلصة التفاح الساخنة (وهى أول شىء صادفته يده) وقذف بها ادجار فسالت على وجهه وعنقه ، وسرعان ما بدأ يعول وينتحب على نحو جعل كاثرين وايزابيلا تخفان سريعا الى المكان لتريا ماذا دهاه .. وفى الوقت نفسه جذب مستر ايرنشو المعتدى فى عنف وحمله الى حجرته .. ولا ريب أنه قد قدم له علاجا عنيفا ليهدىء من سورة الانفعال التى أصابته ، لأنه عندما ظهر ثانية كان متورد الوجه لاهث الأنفاس .. أما أنا فقد

أحضرت منشفة الصحون ورحت أفرك بها أنف ادجار لينتون وفمه ، فى غل وغيظ ، مؤكدة أن ذلك سوف يشفيه تماما من التدخل فيما لا يعنيه .. وأخذت شقيقته تنوح طالبة العودة الى منزلها ، بينما وقفت كاثرين واجمة وقد تورد وجهها خجلا وحنقا .. وما لبثت أن راحت تؤنب السيد لينتون قائلة :

ـ ما كان ينبغى أن تكلمه .. لقد كان فى حالة معنوية سيئة ، وهاأنت ذا قد أفسدت زيارتك .. وسوف يجلد .. وأنا أكره أن أراه يجلد .. ولن أستطيع أن أتناول غدائى .. لماذا تحرشت به يا ادجار ؟

فغمغم الفتى وهو يجهش بالبكاء ، ويفر من يدى ليتم ما بقى من تنظيف وجهه وثيابه بمنديله الرقيق :

ـ اننى لم أخاطبه .. فقد وعدت ماما بألا أوجه اليه كلمة واحدة ، ولم أفعل ..

فأجابت كاثرين فى ازدراء :

ـ حسنا .. كف عن البكاء اذن فان أحدا لم يفتك بك !.. ولا تثر المزيد من الشر فان أخى قادم .. صه يا ايزابيلا !.. هل نالك أحد بالأذى أنت الأخرى ؟

واندفع هندلى الى داخل الحجرة صائحا :

ـ هيا ياأطفالى .. هيا الى مقاعدكم حول المائدة .. لقد أثار هذا الغلام الوحشى الدماء فى عروقى .. أما أنت يا سيد أدجار فعليك فى المرة القادمة أن تأخذ حقك بيدك ، فان ذلك يثير شهيتك للطعام !

واستعادت الجماعة الصغيرة هدوءها وسكينتها لدى مرأى الوليمة الفاخرة التى أعدت لهم ، والتى كان عبير الطعام يفوح منها فيسيل من شذاه لعابهم ، وقد استبد بهم الجوع بعد ركوبهم فى الهواء الطلق ، ونسوا أحزانهم فى سرعة ويسر ، خصوصا وان أحدا منهم لم يحل به أذى حقيقى .. وكان

مستر أيرنشو يقطع اللحم ويملأ به الأطباق فى سخاء ، بينما كانت السيدة تشيع فيهم البهجة والمرح بأحاديثها الطلية المسلية .. وكنت أقف خلف مقعدها لألبى أوامرها ، وكم تألمت اذ رأيت كاثرين تبدأ فى تقطيع صدر أوزة امامها ، وقد لاح عليها عدم الاكتراث وخلت عيناها من أى أثر للدموع ، فقلت لنفسى : « يا لها من صبية مجردة عن الشعور ، تطرد من فكرها متاعب رفيق صباها فى خفة ونزق .. اننى ما حسبتها قط على هذه الاثرة والأنانية » .. ولكنى رأيتها تهم برفع اللقمة الى شفتيها ، ثم تعيدها الى الطبق ثانية ، وقد اندفعت الدماء الى وجنتيها اللتين سرعان ما بللتهما الدموع .. وتركت الشوكة تسقط من يدها الى الأرض ، ثم أسرعت تنحنى لالتقاطها ،وهى ترمى الى اخفاء انفعالها تحت مفرش المائدة .. ولم يطل تلقيبى لها « بالفتاة المجردة عن الشعور » ، اذ أدركت انها كانت تقاسى العذاب طوال اليوم ، وتجهد فى خلق الفرصة للاختلاء بنفسها أو زيارة هيثكليف الذى كان السيد قد سجنه ، كما اكتشفت عندما حاولت أن أدخل اليه شيئا من الزاد خلسة ..

وأقيمت لنا حفلة راقصة فى المساء ، فرجت كاثرين أن يخلى سبيل هيثكليف ، اذ كانت ايزابيلا لينتون فى حاجة الى زميل يراقصها ، ولكن توسلاتها كانت عبثا ، وصدر لى الأمر بأن أسد النقص وأشغل هذا الفراغ .. ونسينا كآبتنا وحزننا فى غمرة المرح والانبساط اللذين أحاطا بحفلة الرقص ، وزاد من سرورنا مقدم فرقة « جيمرتون » الموسيقية التى تضم خمسة وعشرين من أساطين الموسيقى يعزفون على الآلات النحاسية والوترية المختلفة ما بين بوق ومزمار وناى وكمان كبيرة ذات أنغام عميقة حزينة فضلا عن المغنين والمنشدين .. وقد اعتادت هذه الفرقة أن تجوب أنحاء المقاطعة وتحل بجميع البيوت العريقة المحترمة ، وتنال منها الهبات السخية

فى عيد الميلاد من كل عام . فكنا نعتبر حفلاتها من المباهج الفائقة التى تعلق بالذاكرة طويلا .. وبعد أن فرغت الفرقة من أناشيد عيد الميلاد المعتادة ، طلبنا اليها أن تشنف أسماعنا بالأغانى الخفيفة والقطع الموسيقية المسرحية التى يشترك فى غنائها الكثيرون كل بدوره.. وقد كانت مسز ايرنشو مشغوفة بالموسيقى ، وهكذا قدمت لنا الفرقة منها الكثير ..

وكانت كاثرين تحبها كذلك ، ولكنها قالت أن وقعها فى الأذن انما يحلو ويطرب اذا ما استمعت اليها من بعد ، من فوق قمة الدرج مثلا ! .. وما لبثت أن تسللت فى الظلام وارتقت السلم مسرعة ، فتبعتها خلسة .. وأغلق القوم باب حجرة الجلوس دون أن ينتبهوا لغيابنا ، لكثرة الحاضرين .. ولم تقف كاثرين عند قمة الدرج وانما مضت تتسلق السلم الخشبى المعلق ، الى العلية التى كان هيثكليف سجينا فيها ، حيث راحت تناديه بصوت خافت .. وظل برهة لا يجيب النداء فى عناد واصرار ، ولكن عزيمتها لم تهن ، وثابرت على ندائه حتى أغرته أخيرا بأن يجاذبها الحديث من خلال الجدار الخشبى .. أما أنا فقد انفطر قلبى ، وآثرت أن ادع الصغيرين المسكينين وحدهما يتبادلان أشجانهما دون أن أعكر صفو خلوتهما ، حتى اذا ما قدرت أن الغناء أوشك على الانتهاء ، وأن العازفين سيستريحون ريثما يتناولون المرطبات ، تسلقت السلم بدورى لأحذرهما .. وبدلا من أن أجد كاثرين خارج العلية ، سمعت صوتها من داخلها ! .. فقد دخلت احدى العليات الأخرى ، وتسلقت الكوة الصغيرة بأعلاها كالقردة الصغيرة ، ثم زحفت فوق السطح حتى كوة محبس هيثكليف حيث انضمت اليه .. وذقت الأمرين حتى استملتها ورضيت بالخروج ثانية من الطريق التى سلكتها فى ذهابها ، ولكن هيثكليف كان معها هذه المرة ، حيث أصرت على أن تجعلنى آخذه الى المطبخ ، خصوصا وأن جوزيف كان قد انصرف الى

دار بعض الجيرة فرارا من أصوات « مزامير الشيطان » كما كان يحلو له أن يسمى موسيقانا .. وقلت لهيثكليف أننى لا أرضى بحال من الأحوال عن ألاعيبهما هذه وليس فى نيتى أن أشجع مسلكهما ، غير أنه طالما ان السجين لم يذق شيئا البتة منذ غداء الأمس، فاننى سوف أغضى هذه المرة عن خداعه لمستر هندلى وخرقه لأوامره .. ونزل معى الى المطبخ حيث وضعت له مقعدا صغيرا أمام الموقد ، وأحضرت له كميه وفيرة من أطايب الطعام والحلوى.. ولكنه كان خاثر النفس سقيما ؛ فلم يذق الا القليل ، وذهبت محاولاتى لترغيبه فى الطعام ادراج الرياح .. كان يجلس متكئا بمرفقيه فوق ركبتيه ، محتضنا وجهه بين راحتيه ، ممعنا فى التفكير ، فلما سألته عن موضوع أفكاره العميقة قال فى رصانة :

ـ اننى أحاول أن أدبر الطريقة التى اسدد بها لهندلى دينا .. ولست أبالى الى متى يطول انتظارى حتى أبلغ هذه الغاية ، بقدر ما يهمنى أن أصل اليها فى النهاية .. وكل ما أرجوه ألا يسبقنى الموت اليه قبل أن أناله ..

فهتفت واجفة :

ـ يا للعار يا هيثكليف ! .. ان الله وحده هو الذى يتولى عقاب الأشرار ، أما نحن فعلينا أن نعرف كيف نصفح ونتسامح ..

ـ كلا .. ان الله لن يطيب نفسا بهذا الانتقام مثلما تطيب نفسى أنا عندما أحققه ! .. وليتنى أعرف فقط السبيل الى ذلك .. دعينى وحدى وسوف أدبر الأمر حتما ، فاننى كلما فكرت فيه كلما تلاشى شعورى بالألم ..

. . . .

ولكنى نسيت يا مستر لوكوود أن هذه القصص لا يمكن أن تسليك ، وكم يؤسفنى اننى انسقت فى الثرثرة الى هذا الحد، وها هوذا حساؤك قد برد ، وهاأنت ذا تهوم من النعاس وتنشد

الفراش .. كان يمكننى أن أروى لك قصة هيثكليف - أو ما يهمك سماعه منها - فى ست كلمات فحسب ..

ونهضت مدبرة المنزل وهى تقطع حديثها على هذا النحو ، وهمت بأن تنحى معدات الحياكة التى كانت تتسلى بها ، ولكنى ألفيت نفسى غير قادر على الحراك من مكانى بجوار المدفأة ، كما كنت بعيدا كل البعد عن التهويم والنعاس ، فصحت بها قائلا :

- مكانك يا مسز دين ! .. اجلسى مكانك نصف ساعة اخرى فقد أحسنت وأصبت برواية القصة بهذه الافاضة ، فهى الطريقة التى أحبها ، وينبغى ان تتميها بالأسلوب نفسه ، لأننى أجد اهتماما بكل شخصية ذكرتها فى روايتك ..

- ولكن الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة يا سيدى ..

- لا بأس ، فلست معتادا النوم فى الساعات الأولى من الليل .. والواحدة أو الثانية ساعة مبكرة بالنسبة لشخص يظل نائما حتى العاشرة من الصباح ..

- ما ينبغى لك أن تنام حتى العاشرة ، فان بهجة الصباح وروعته تكون قد ولت قبل هذه الساعة بزمن طويل .. والشخص الذى لا يكون قد أتم نصف عمل يومه فى الساعة العاشرة ، يكون عرضة لأن يترك النصف الآخر ناقصا بغير أداء ..

- فليكن يا مسز دين ، ولكن عودى الى مقعدك ! .. لأننى أنوى أن أطيل الليل حتى بعد ظهر الغد ! .. فأنا أحس بأن البرد الذى أصابنى سوف يقعدنى مدة طويلة على الأقل ..

- أرجو ألا يكون الأمر كذلك يا سيدى .. حسنا .. اسمح لى اذن بأن أمر مر الكرام على ثلاث سنوات أو نحوها ، ففى خلال تلك الفترة كانت مسز ايرنشو ..

- كلا .. كلا .. لن أسمح لك بشىء من هذا .. ألم تعهدى تلك الحالة العقلية التى تكونين فيها اذا ما جلست وحدك ،

وكانت الهرة تلعق صغارها على البساط أمامك ، فتستغرقين فى مراقبة هذه العملية استغراقا كاملا بحيث يثيرك ويغضبك أن تغفل الهرة لعق أذن واحدة من آذان الصغار ؟

ـ لعمرى انها لحالة عقلية شديدة البلادة والكسل !

ـ بل هى على العكس حالة نشيطة مرهقة .. انها حالتى الآن ، ولذلك أود أن تستمرى فى سرد القصة بكل تفاصيلها الدقيقة .. وأرى أن الناس فى هـذه المناطق يمتازون على ساكنى المدن بتلك الأهمية التى يمتاز بها العنكبوت فى زنزانة سجين على العنكبوت فى كوخ مأهول ، فى نظر ساكنى المكانين المختلفين .. ومع ذلك فهذه الأهمية ، وذلك الاهتمام العميق لا يرجعان برمتهما الى مركز المشاهد أو حالته فحسب .. فالواقع انهم هنا يعيشون أكثر جدية وصرامة وأكثر انطواء على أنفسهم ، وأقل اهتماما بالأمور السطحية ، أو التبديل والتغيير ، أو الأشياء الخارجية المرحة التافهة .. أننى اتصور الآن أن حبا يدوم مدى الحياة أمر يمكن وقوعه هنا ، أنا الذى كنت دائما أكفر ، عن يقين ، بأن أى حب يمكن أن يطول مداه عاما واحدا ! .. وان احدى الحالتين تشبه وضع رجل جائع أمام مائدة عليها طبق واحد فريد، فيركز فيه شهيته ولا يتركه حتى يلعقه ، والحالة الأخرى أن تضعى الرجل أمام مائدة حملت بأطايب الطعام من أيدى الطهاة الفرنسيين ، فيجد فى جملتها متعة بالغة ، ولكن كل طبق منها لا يعدو أن يكون مجرد ذرة فى تقديره وذاكرته ..

فقالت مسز دين وهى تبدو محيرة من حديثى :

ـ أوه ! .. اننا هنا كسائر الناس فى أى مكان آخر ، اذا ما عرفتنا على حقيقتنا !

فأجبتها :

ـ معذرة .. فأنت نفسك ياصديقتى الطيبة شاهد صارخ ضد تأكيدك هذا .. انك ـ فيما عدا بعض المظاهر

الريفية القليلة الأهميـة ـ لست على شيء من مظاهر الخلق والسلوك التى اعتـدت أن أعدها خاصـة بطبقتك .. واننى موقن أنك فكرت كثيرا وتعمقت فى التفكير أكثر مما يفكر عامة الخدم .. وأحسب انك انمـا تعهـدت ملكة التفكير بالعناية والرعاية ، لانعدام الظروف التى تهيىء لك انفاق حياتك فى التوافه السخيفة !

فضحكت مسز دين وقالت :

ـ لاشك أننى أعد نفسى انسانة من الطراز المستقيم العاقل ، ولكن ذلك لا يرجـع تماما الى حياتى بين التـلال والقفار ، ورؤيتى مجموعة واحدة من الوجوه أو أدائى مجموعة رتيبة من الأعمال ، من عام الى عام .. كلا .. وانما نشـأت تحت وطأة نظام صارم حاد علمنى الحكمة والتعقل . كما أننى قرأت أكثر مما يمكن أن تتصور يا مستر لوكوود .. وما من كتاب يمكن أن تفتحه فى هذه المكتبة الا قرأته واستوعبته وخرجت منه بفائدة ما ، الا أن يكون هذا الصف من الكتب اليونانيـة واللاتينية أو ذلك الصف من الكتب الفرنسية ، وهذه وتلك أستطيع التمييز بينهما .. ان ذلك هو كل ما يمكن أن تتوقعه من ابنة رجل فقير !

وتنهدت مسز دين ، ثم استطردت تقول :

ـ ومهما يكن من أمر ، فيجدر بى أن أتابع رواية القصة ، اذا لم يكن ثمة بد من روايتها بهذه الافاضة التى تريدها .. وبدلا من أن أثب فوق ثلاثة أعوام ، فسوف أقنع بالمرور حتى الصـيف التالى ، صـيف عام ١٧٧٨ أى ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاما خلت ..

الفصل الثامن

فى صباح يوم جميل من شهر يونيـه من ذلك العام ، ولد اول طفل تعهدته بالتربية ، وآخر سلالة أسرة ايرنشو القديمة

العريقة ..
كنا يومئذ مشغولين بجمع الدريس فى حقل بعيد عندما جاءت الفتاة التى تحمل الينا طعام الافطار مبكرة عن موعدها بساعة ، وهى تجرى خلال الحقول وتهتف باسمى منادية ، حتى اذا ما اقتربت منا صاحت لاهثة :

ـ ياله من غلام عظيم ! .. انه أجمل طفل تنسم الحياة على الاطلاق .. ولكن الطبيب يقول أن السيدة سوف تموت ، فقد نهش السل صدرها هذه الشهور الأخيرة .. سمعته يقول ذلك لمستر هندلى ، وانه ما من شىء يمكن أن يحفظ عليها حياتها الآن ، وسوف تقضى نحبها قبل الشتاء .. لابد من حضورك الآن الى البيت يانللى ، فأنت التى ستتولين ارضاعه وتربيته ، وتغذيته باللبن والسكر والعناية بشأنه ليلا ونهارا ! .. ليتنى كنت مكانك ، فسوف يكون أمره اليك وحدك عندما تذهب السيدة الى خالقها !

فقلت وأنا أرمى جرافة الدريس من يدى وأضع قبعتى فوق رأسى :

ـ ولكن هل هى مريضة الى هذا الحد ؟

ـ أحسبها كذلك ، رغم ما يبدو عليها من شجاعة .. فهى تتكلم كأنما تظن أنها ستعيش حتى تراه رجلا .. بل لقد فقدت صوابها من الفرح ونشوة الابتهاج .. ولها الحق ، فما رأيت طفلا بهذا الجمال !. ولو اننى كنت مكانها ، فانى واثقة بأننى ماكنت لأموت ! .. فسوف تتحسن صحتى لمجرد رؤيتى له ، رغم أنف الدكتور كينيث ! .. لقد جننت به عند ما رأيته .. وقد حملت السيدة أرشر الى السيد فى حجرة الجلوس ذلك الملاك الصغير فأشرق وجهه ، ولكن ذلك الطبيب العجوز تقدم اليه وقال فى صوت أشبه بنعيب الغراب : « من رحمة الله يا ايرنشو أن زوجتك قد عاشت حتى تترك لك مثل هذا الغلام .. فعند ما قدمت الى هنا أحسست عن يقين بأننا لن

نحتفظ بها طويلا . . ومن واجبى أن أخبرك الآن بأن الشتاء القادم قد يجهز عليها ، ولكن لاترع ولا تدع القلق يستبد بك ، فلا حيلة لنا فى دفع المقدور .. وفضلا عن ذلك فقد كان يجب عليك أن تحسن الاختيار وتتزوج من فتاة غير هذه الفتاة المنهوكة ! »

فسألتها : وبماذا أجاب السيد ؟

ـ أحسبه أخذ يسب ويلعن ، فلم أكن ألقى اليه بالا .. كنت أجاهد فى سبيل رؤية الغلام ..

ثم انطلقت من جديد تهذى بأوصافه ومحاسنه .. واذ كنت لاأقل عنها حماسا وشوقا فقد أسرعت الى البيت فى لهفة، لأمتع ناظرى بمرآه بدورى ، ولو أننى كنت حزينة من أجل هندلى .. فقد كان المسكين يقسم قلبه بين صنمين اثنين ولا مكان فيه لغيرهما : زوجته ، ثم شخصه ! .. كان مشغوفا بالاثنين ، يقدس أحدهما ويعبد الآخر ، ولم أكن لأتصور كيف يمكن أن يحتمل هذه الخسارة ..

فلما بلغنا « مرتفعات ويذرنج » ، وجدته واقفا عند الباب الخارجى ، فسألته بينما كنت أهم باجتياز الباب : « كيف حال الغلام ؟ »

فقال وقد علت وجهه ابتسامة وضاءة : « كأنما يهم بالجرى فى المنزل يانللى ! » .. فتجاسرت وسألته : « والسيدة ؟ .. علمت أن الطبيب يقول انها .... »

فقاطعنى وقد تورد وجهه :

ـ لعنة الله على الطبيب ! .. ان فرانسيس فى خير حال ، وسوف تكون فى أوج صحتها فى الأسبوع القادم .. هل تصعدين اليها ؟ .. حسنا .. أرجو أن تخبريها بأننى سوف اذهب اليها اذا ماوعدت بعدم الكلام .. لقد تركتها لأنها لاتريد ان تمسك لسانها ، فى حين أنها يجب أن تكف عن الكلام كلية .. قولي لها ان مستر كينيث يصر على وجوب التزامها السكون ..

وقد أبلغت هذه الرسالة الى مسز ايرنشو ، وكانت تبدو فى حالة معنوية طيبة ، فأجابتنى فى مرح :

ـ اننى ما كدت أنطق بكلمة واحدة حتى انطلق الى الخارج وهو يصيح .. وقد فعل ذلك مرتين يا نيللى .. حسنا .. قولى له اننى أعد بعدم الكلام ، ولكن هذا الوعد لا يقيدنى بأن لا أضحك منه ساخرة !

ياللشابة المسكينة ! .. لقد ظلت الى ماقبل موتها بأسبوع وهذا القلب المرح لايخونها ولا يتخلى عنها .. وكان زوجها يصر فى عناد ، لا بل فى شراسة ، على التأكيد بأن صحتها تطرد فى التحسن يوما بعد آخر .. وعند ما أنذره كينيث بأن عقاقيره لن تجدى نفعا فى هذه المرحلة من المرض ، وأنه لاحاجة به لأن يكبده المزيد من النفقات بالعناية بها وعلاجها ، أجابه غاضبا :

ـ أعلم أنه لاحاجة بك الى ذلك حقا ، فهى بخير ولا تحتاج لشىء من علاجك .. انها لم تمرض بالسل البتة .. لقد كان مابها حمى عادية ، وقد زالت الآن .. فنبضها بطىء كنبضى ، ووجناتها باردة كوجنتى !

ولقد قال لزوجته هذه القصة نفسها ، وكان يبدو عليها أنها تصدقه .. ولكن حدث أن كانت تستند الى كتفه ذات ليلة ، وتقول انها تجد نفسها قادرة على مغادرة الفراش فى الغد ، عند ما ألمت بها فجأة نوبة من السعال ـ نوبة بسيطة فى الواقع ـ فرفعها بين ذراعيه ، وعندئذ وضعت يديها حول عنقه ، وتبدلت أساريرها ، ثم لفظت أنفاسها الأخيرة ..

وهكذا صار أمر الطفل «هيرتون» بين يدى كما قدرت الخادم الصغيرة يوم ولادته .. وكان مستر ايرنشو لاينفك راضيا مادام يراه فى صحة جيدة ، ولا يسمع له بكاء أو صراخا ، وهذا كل ماكان يهمه من أمره .. أما هو فقد تملكه اليأس والقنوط ، وكان حزنه من ذلك النوع الدفين الذى لا يعرف

المظاهر الصاخبة .. فما سمعه أحد قط ينشج ببكاء أو يتمتم بصلاة ، وانما كان دائم السخط والسباب ، يصب اللعنات على السماء والناس على السواء ، ويستسلم الى الخمر والتبذل على نحو مدمر .. ولم يستطع الخدم احتمال طغيانه وسوء خلقه طويلا ، فلم يبق فى خدمته سوى جوزيف وسواى .. فلم يطاوعنى قلبى على التخلى عن مهمتى ، كما أننى – كما تعلم – كنت أخته فى الرضاع ، وفى وسعى أن أغفر له مسلكه أكثر مما يفعل شخص غريب آخر .. وأما جوزيف فقد بقى ليبسط نفوذه وغطرسته على المستأجرين والعمال ، ولأن رسالته فى الحياة ، كما يعتقد ، هى أن يوجد حيث تكثر الشرور والمنكرات فيقومها بلسانه اللاذع ..

وكان المسلك السىء للسيد ورفقاء السوء الذين يصاحبهم ، أسوأ مثال لكاثرين وهيثكليف .. كما أن معاملته للأخير كانت خليقة بأن تجعل من القديس شيطانا .. وفى الواقع أن الصبى كان يبدو فى تلك الحقبة وكأنما تملكته روح شيطانية شريرة .. وكان شديد الغبطة بأن يشهد انحدار هندلى الى أحط الدرك ، ولكنه كان بدوره يزداد يوما بعد يوم فى الشراسة والوحشية .. ولن أستطيع أن أصف لك نصف ما كان عليه ذلك البيت الجهنمى الذى كنا نعيش فيه وقتئذ .. حتى لقد عزف القس عن زيارتنا أخيرا وقاطعنا كل شخص محترم من جيراننا ، اللهم الا اذا كانت زيارات ادجار لينتون لمس كاثى هى الاستثناء الوحيد من ذلك .. وكانت وهى فى الخامسة عشرة ملكة المقاطعة بلا منازع أو منافس .. ولكنها انقلبت الى مخلوقة متعجرفة عنيدة صلبة الرأى .. ولست أعدو الحقيقة اذا قلت اننى لم أعد أحبها بعد أن مرت بمرحلة الطفولة ، فكنت لا أفتأ أغيظها بمحاولة الغض من شأنها وتحطيم غرورها .. ومع ذلك فلم تحقد على أو تكرهنى ، اذ كانت على ثبات عجيب فى ودها القديم .. وحتى هيثكليف ظل محتفظا بمكانته المرموقة

فى عاطفتها دون أن يطرأ عليها تبديل أو تغيير ، بحيث وجد لينتون الشاب من العسير - رغم سمو مركزه - أن يكون له أثر عميق فى نفسها مثلما كان لهيثكليف . لقد كان مستر لينتون مخدومى السابق ، وهاهى ذى صورته معلقة فوق المدفأة .. وكانت عادة معلقة على أحد جانبيها ، بينما كانت صورة زوجته على الجانب الآخر .. ولكن صورتها رفعت من مكانها ، ولولا ذلك لرأيت شيئا مما كانت عليه .. فهل بوسعك أن تستشف شيئا من صورة مستر لينتون ؟

ورفعت مسز دين الشمعة الى أعلى ، فتبينت وجها لين الأسارير يشبه الى حد قريب تلك السيدة الشابة التى رأيتها فى (المرتفعات) ، ولكنه أكثر منها استغراقا فى التفكير ، ورقة فى التعبير .. كانت صورة جميلة حقا .. وكانت الغدائر الشقراء الطويلة تتموج فوق الصدغين ، كما كانت العينان واسعتين تبدو فيهما الرزانة والجد .. أما الجسم فكان فى مجمله رشيقا جميلا .. ولم أعجب كيف استطاعت كاثرين ايرنشو أن تنسى صديقها القديم فى سبيل مثل هذا الشخص ، ولكنى عجبت أكثر كيف استطاع أن يحب كاثرين ايرنشو كما أتصورها ، اذا كانت عقليته تتفق مع مايبدو من صورته ..

وقلت لمدبرة المنزل : « انها صورة جميلة حقا .. أكان هو فى الحقيقة يشبه صورته هذه ؟ » .. فأجابت :

- نعم .. ولكنه كان يبدو خيرا منها اذا ما كان مسرورا .. انها تحمل طابعه المألوف العادى ، وقد كان بصفة عامة تنقصه الحيوية ..

واستأنفت مسز دين حديثها فقالت :

- وقد احتفظت كاثرين بصداقتها لآل لينتون منذ أن أقامت بينهم تلك الأسابيع الخمسة .. وقد كانت لاتميل الى اظهار ذلك الجانب من سوء خلقها وهى فى صحبتهم ، وكانت من اللباقة بحيث تخجل من اظهار خشونتها فى ذلك الوسط الذى

تلمس فيه البشاشة والخلق المهذب دواما ، فقد استطاعت ـ دون قصد أو عمد ـ أن تخدع السيد والسيدة العجوزين ، بلطفها المتكلف فى براعة ، وأن تنال اعجاب ايزابيلا ، وتأسر قلب شقيقها وروحه .. وكان بلوغها ذلك كله قد تملق غرورها منذ البداية ، لأنها كانت مليئة بالمطامع ، وقادها الى سلوك مسلك مزدوج دون أن تقصد تماما خداع أحد .. كانت حيث تسمع هيثكليف ينعت بمثل هذه الأوصاف « ذلك الخبيث المنحط الصغير » ، أو « انه أسوأ من الحيوان المتوحش » ، تعنى بألا تفعل مثله أو تظهر بمظهره ! .. أما فى البيت فقد كانت قليلة الميل الى الأدب والتهذيب ، لعلمها أنهما لن يجلبا لها سوى السخرية والضحك ، ومن العبث أن تقيد نفسها بطبيعة متكلفة غير حقيقية لن تنال عليها مدحا أو ثناء ..

وكان مستر ادجار قلما يستجمع شجاعته ليزور « مرتفعات ويذرنج » علنا .. فقد كان يفزع من سمعة هندلى السيئة ، وينفر من الالتقاء به .. ومع ذلك فقد كان يلقى منا جميعا أقصى مانستطيع اظهاره من ضروب الحفاوة وحسن المقابلة ، بل ان السيد نفسه كان يتجنب الاساءة اليه ، لعلمه بالباعث على زياراته تلك ، وكان اذا شعر بأن حالته لا تساعده على الظهور بمظهر الرقة واللين ، اعتزل الشابين واختفى عن انظارهما .. بل احسب ان كاثرين نفسها كانت لا ترتاح كثيرا الى ظهور ادجار لينتون فى (المرتفعات) ، بحكم انها لم تكن على شىء من الدهاء أو المكر ، أو تصنع الدلال الذى كان أبعد شىء عن طبيعتها ، ومن ثم كانت تتحاشى التقاء صديقيها معا بكل الوسائل .. لأنه اذا أبدى هيثكليف احتقاره للينتون فى مواجهته ، فانها لاتستطيع أن توافقه تماما ، كما كانت تفعل فى غيبته . وعندما يظهر لنتون اشمئزازه ونفوره من هيثكليف فانها لا تجرؤ على تجاهل مشاعره ، كأنما

ازدراء رفيق صباها أمر قليل الأهمية فى نظرها . وهكذا أتيحت لى الفرصة مرارا لأضحك من حيرتها ومن متاعبها الدفينة ، التى كانت تجهد فى اخفائها عنى حتى لاأسخر منها .. وقد يبدو من ذلك أن لى طبيعة شريرة ، ولكنها كانت من الكبرياء والعجرفة بحيث غدا من المحال أن يشفق المرء على آلامها ومتاعبها ، مالم يضطرها الاذلال الى أن تطامن من غلوائها ، ويدفعها الى التواضع .. وقد اضطرت أخيرا الى أن تلجأ لى لتصارحنى بمتاعبها وتطلعنى على سرها ، اذ لم يكن ثمة انسان آخر سواى تجد فيه الناصح والمعين ..

وحدث ذات يوم أن بارح مستر هندلى المنزل بعد الظهر ، فاذا بهيثكليف يجد من الجراءة ما يزعم معه انه منح نفسه أجازة من العمل لهذه المناسبة .. وكان فى ذلك الحين ـ فيما أحسب ـ قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، ودون أن يكون دميم الخلقة أو ناقص العقلية كان ، بتجهمه الدائم ، يشيع حوله شعورا بالنفور منه ، ويوحى بنفوره من الناس ، الأمر الذى خلا منه مظهره الحالى .. ولعل أهم ماكان يحدوه الى ذلك هو أنه كان فى تلك الفترة من حياته قد أضاع ثمرة تعليمه المبكر ، اذ أن العمل الشاق المتواصل ، الذى يبدأ من البكور ولا ينتهى الا فى وقت متأخر ، قد قضى على أية رغبة كانت تتملكه نحو مواصلة تعليمه ، وقتل فيه أى ولع بالكتب أو الدراسة .. وكان الشعور الذى لازمه فى طفولته ، بسموه ورفعة شأنه ، والذى أشربه قطرة فقطرة من تدليل مستر أيرنشو الكبير له ، قد ذاب وتلاشى أمام الواقع الأليم .. وكان قد ظل يناضل طويلا فى سبيل الاستمرار فى الدرس مع كاثرين سواء بسواء ، ولكنه مالبث أن استسلم لعجزه فى حزن موجع ، وان كان حزنا صامتا مكبوتا .. على ان استسلامه كان كاملا ، فلم يعد ثمة سبيل لاقناعه بأن يخطو خطوة نحو الارتقاء ، بينما كان يرى نفسه مسوقا ـ رغم أنفه ـ الى

الانحدار دون مستواه السابق .. عندئذ اتخذ مظهره الشخصى من نضوبه العقلى رفيقا يزامله ويأنس اليه ، فأصبحت مشيته بطيئة خاملة ، وغدا مظهره بشعا مقيتا . وازداد اغراقا فى تحفظه وتجهمه الطبيعيين حتى صارا غلوا سخيفا فى النفور من الناس وتنكب طريقهم ! .. بل لقد كان يجد متعة شيطانية فى اثارة اشمئزاز معارفه القلائل أكثر من استجلاب تقديرهم واحترامهم !

وكان هو وكاثرين لايزالان رفيقين متلازمين فى ساعات راحته وأوقات عمله على السواء .. ولكنه كف عن اظهار ولعه بها بالكلمات ، بل غدا ينفر فى ريبة وغضب من ملاطفتها البريئة الصبيانية ، كأنما كان يحس بأن اغداق مثل هذه المظاهر العاطفية عليه لا يمكن أن يكون له جزاء يرجى أو ثمرة تؤتى أكلها ..

وعندما أتى الى حجرة الجلوس فى ذلك اليوم ليعلن عزمه على الراحة والانقطاع عن العمل ، كنت أعاون مس كاثى فى استكمال زينتها وتنظيم ثوبها . . فانها لم تقدر قط أن تقوم فى رأسه فكرة الاخلاد الى الكسل والبلادة ، واذ خالت أن الدار سوف تخلو لها فقد عمدت الى ابلاغ مستر ادجار ــ بوسيلة ما ــ بغياب أخيها ، وكانت وقتئذ تتأهب لاستقباله ..

فسألها هيثكليف :

ــ أتراك مشغولة هذا المساء يا كاثى ؟ .. أو هل تنوين الخروج ؟

ــ كلا .. فالمطر ينهمر كما ترى ..

ــ ولماذا ترتدين هذا الثوب الحريرى اذن ؟ .. لعلك لاتنتظرين أحدا ؟ .

فغمغمت الآنسة متلعثمة :

ــ لست أدرى شيئا عن مقدم أحد .. ولكن كان ينبغى أن

تكون فى الحقل الآن يا هيثكليف ، فلم تمض الا ساعة واحدة منذ الغداء ، وقد حسبتك خرجت لعملك ..

ـ ان هنـدلى قلما يريحنا من محضره اللعين ، ولذلك لن أعمل شيئا اليوم ، وسوف أبقى معك ..

فازداد ارتباكها ، وقالت :

ـ أوه ! .. ولكن جوزيف سوف يخبره ! .. فمن الخير اذن أن تذهب لعملك ! .

ـ جوزيف مشغول فى تسليم أشجار الخشب المقطوعة فى الناحية الأخرى من هضبة (بينستو) الى المشترين ، وسوف يستغرق منه هـذا العمل حتى هبـوط الليـل ، وبذلك لن يعرف قط ..

واذ قال ذلك ، مضى فى تكاسل نحو المدفأة ، واتخذمجلسه بجانبها .. ففـكرت كاثرين لحظة وقـد قطبت حاجبيهـا ، ووجـدت من الضرورى أن تمهـد الطريق للزيارة المرتقبة ، فقالت بعد برهة من الصمت :

ـ لقد ذكرت ايزابيلا لينتون وشقيقها أنهما قد يحضران بعد ظهر اليوم ، وان كنت لا أتوقع حضورهما مع هذا المطر المنهمر .. ومع ذلك فقـد يحضران ، واذا حدث ذلك فانك تعرض نفسك للتأنيب بغير داع ..

فمضى فى اصراره ، قائلا :

ـ مرى «نيللى» أن تقول أنك مشغولة يا كاثى ، ولا تطردينى من المنزل من أجل هذين الصديقين السخيفين .. اننى أجد نفسى أحيانا على وشـك أن أشـكو من انهما .. ولكني لن أفعل ..

فصاحت كاثرين وهى تحدق النظر اليه وقد بدا الانشغال فى محياها :

ـ انهما ماذا ؟

ثم استدارت نحوى فى حدة وسخط ، وقد طوحت برأسها

بعيدا عن يدى :

– أواه ياناللى ! .. لقد أفسدت تموج غدائرى ! .. كفى ذلك الآن ، ودعينى وشأنى .. ما الذى كنت على وشك أن تشكو منه ياهيثكليف ؟

– لاشىء .. ولكن انظرى الى هذا التقويم المعلق على الجدار ..

وأشار باصبعه الى تقويم معلق بالقرب من النافذة ، واستطرد يقول :

– انظرى .. لقد وضعت علامات على الأمسيات التى قضيتها مع آل لينتون ، وعلامات أخرى على تلك التى قضيتها معى .. هل ترين ؟ .. اننى لم أترك يوما واحدا دون علامة !

فقالت كاثى فى نبرات مغيظة :

– نعم .. وذلك غاية الحمق ! .. كأننى ألقى بالى لمثل هذه التوافه .. وما معنى ذلك بالله عليك ؟

– معناه أننى « أنا » ألقى بالى اليها ..

فقالت وقد أخذت تزداد غضبا وانفعالا : « وهل ينبغى أن أجلس معك دائما ؟ .. أى خير أجده فى ذلك ؟ .. وما هى تلك الأحاديث الطلية التى تطرقها ؟ .. انك أشبه بالشخص الأبكم أو الطفل الغرير فى كل ما تقوله لتسليتى ، وفى كل ما تفعله ، على السواء .. »

فقال هيثكليف وقد ازداد انفعالا : « ولكنك لم تخبرينى قط من قبل اننى قليل الكلام ، أو أن صحبتى لك لا تروقك يا كاثى ! »

فغمغمت قائلة : « انها لا تعد صحبة على الاطلاق تلك التى لا يقول الناس فيها شيئا ويجهلون كل شىء .. »

فاستوى رفيقها على قدميه ، ولكن الوقت لم يتسع له للتعبير عما يخالجه من مشاعر ، اذ سمعنا وقع حوافر الجواد فوق المدخل المرصوف ، وما لبث « لينتون » الشاب أن ولج

الحجرة بعد أن طرق الباب فى رفق ، وقد أضاء وجهه بالسرور والغبطة لهذه الدعوة غير المرتقبة التى تلقاها .. وما من ريب فى أن كاثرين قد تبينت الفرق بين صاحبيها ، عندما كان أحدهما يلج الحجرة ، والآخر يفارقها ! .. كان التناقض والتنافر بينهما أشبه بذلك الذى تحسه عندما تخلف أرضا كئيبة ، جبلية ، من أراضى مناجم الفحم السوداء ، الى واد خصيب جميل .. كما أن صوته ، والطريقة التى يلقى بها التحية ، كانا لا يقلان تناقضا أحدهما مع الآخر ، عن مظهره .. كانت له طريقة رقيقة ناعمة خافتة فى الكلام ، وكان ينطق بكلماته كما تفعل أنت ، أى بطريقة أقل فظاظة وأكثر لينا ورقة مما نتكلم نحن هنا !

وقال وهو يرمقنى من طرف خفى ، وقد جثوت على ركبتى وبدأت أمسح الأطباق وانظم أدراج « البوفيه » : « أرجو ألا أكون قد حضرت فى وقت مبكر أكثر مما ينبغى .. »

فأجابت كاثرين : « كلا البتة .. ما هذا الذى تفعلينه هناك يا نللى ؟ »

ـ اننى أقوم بعملى يا آنستى ..

(والواقع أن مستر هندلى كان قد أمرنى بأن أكون طرفا ثالثا فى أية زيارة يقوم بها مستر لينتون على غير انتظار ..)

فتقدمت حتى وقفت خلفى وهمست تقول لى فى غضب وحنق : « اذهبى .. خذى خرقك ومماسحك وامضى الى الخارج ، فعندما يكون فى البيت زوار يجب أن يكف الخدم عن المسح والتنظيف فى الحجرة التى يجلسون فيها .. »

فأجبتها بصوت عال : « انها فرصة طيبة الآن وقد غاب السيد عن البيت ، أن أقوم بعملى ، فانه يكره أن يرانى أعبث بهذه الأشياء فى حضوره .. ولا ريب أن مستر ادجار سوف يغفر لى ذلك .. »

فصاحت الآنسة الشابة فى غطرسة وخيلاء ، دون أن تترك

لضيفها فرصة للكلام .. وكانت قد تخلت عنها رصانتها واتزانها منذ ذلك الشجار الصغير مع هيثكليف : « ولكننى كذلك أكره أن تعبثى بهذه الأشياء فى حضورى .. »

فكان جوابى المقتضب : « اننى آسفة لذلك يا مس كاثرين ! »

ثم مضيت أواصل عملى فى اصرار ومثابرة .. واذ خالت أن أدجار لا يستطيع رؤيتها ، جذبت الممسحة من يدى فى عنف ، ثم قرصتنى فى ذراعى قرصة طويلة وهى تلوى أصابعها لتزيد من وجيعتى وتروى غليلها من الانتقام منى .. وقد قلت أننى لم أكن أحبها ، ومن ثم كنت أجد متعة بالغة فى قهر كبريائها وغرورها بين الحين والحين ، وكانت قرصتها قد أوجعتنى كثيرا ، وهكذا نهضت من حيث كنت أجثم فوق ركبتى ، وصرخت قائلة :

ـ ما هذا يا آنسة ! .. لقد أتيت فعلة بالغة السوء .. فليس من حقك أن تقرصينى ، كما أننى لن أحتمل منك هذا ..

فصاحت فى وجهى : « اننى لم ألمسك أيتها المخلوقة الكاذبة ! » .. بينما كانت أصابعها تتحرق شوقا الى اعادة الكرة من جديد ، وقد غدت أذناها قرمزيتين من فرط الغضب .. فما كانت قط تجد فى نفسها القوة على اخفاء انفعالها ، وكانت فى مثل هذه الحالات تبدو متوردة الوجه والعنق كأن موقدا يشتعل تحت جلدها ..

وكشفت عن ساعدى لتشهد البقعة الزرقاء على كذبها وصدقى .. فضربت الأرض بقدمها وترنحت لحظة ، وما لبثت أن تغلبت روحها الشريرة على ترددها فرفعت يدها وهوت على وجهى بلطمة شديدة مؤلمة ملأت عينى بالدموع ..

فتدخل أدجار ، وقد عظمت دهشته وفجيعته بهذه السقطة المزدوجة التى تردت فيها معبودته : الكذب واستعمال العنف ، وصاح بها :

ـ كاثرين ! .. حبيبتى كاثرين !

ولكنها كانت فى شغل عنه .. فان هيرتون الصغير ـ الذى كان يتبعنى أينما ذهبت ، والذى كان يجلس على الأرض بالقرب منى ـ ما كاد يرى الدموع فى عينى حتى أخذ يبكى وينشج بالشكوى من « العمة كاثى الشريرة » ، التى تحولت اليه لتصب جام غضبها على رأسه ، فأمسكت بكتفيه وراحت تهزه فى عنف بالغ حتى غاضت الدماء من وجه الطفل المنكود وغدا باهتا كالشمع ! .. وعندئذ اندفع أدجار دون تفكير ، وأمسك بكلتا يديها ليخلص الصبى منهما ، فاذا بهما تحرر أحديهما فى سرعة خاطفة ، واذا بالفتى المشدوه يحس بهذه اليد فوق صدغه بطريقة لا يمكن أن تحدث عفوا .. فتراجع الى الوراء فى فزع وذعر .. وكنت قد حملت هيرتون بين ذراعى ، ومضيت به نحو المطبخ ، تاركة الباب مفتوحا ، اذ استبد بى الفضول لمعرفة الطريقة التى سيسوى بها هذا الخلاف بينهما ، فرأيت الضيف المهان يمضى الى حيث كان يضع قبعته ، وكان وجهه شديد الشحوب وشفته ترتجف غضبا وتأثرا .. فقلت لنفسى وكأنى أتحدث اليه : « حسنا تفعل .. وما عليك الا أن تقنع بهذا النذير وتهرب بجلدك ! .. فمن رحمة الله أن أطلعك على حقيقة خلقها وطباعها ! »

ولكن كاثرين سبقته الى الباب قائلة : « الى أين تذهب ؟ » فتحول ناحية ، وهو يحاول المرور ، ولكنها عادت تصيح فى عزم قوى :

ـ لا يجب أن ترحل الآن ..

فأجاب فى صوت خفيض :

ـ بل يجب أن أرحل ، وسأفعل !

فمضت فى اصرارها ، وهى تمسك بمقبض الباب : « كلا .. ليس الآن يا أدجار لينتون ! .. اجلس ، فما ينبغى لك

أن تتركنى فى هذه الحالة .. فسوف أشقى بها طول ليلتى ، ولست أريد أن أشقى بسببك ! »

فقال لينتون : « وهل بوسعى أن أبقى بعد أن صفعتنى ؟ »

فلم تنبس كاثرين بكلمة ، بينما استطرد الفتى يقول : « لقد جعلتنى أخافك واخجل منك .. ولن أحضر الى هنا بعد الآن ! »

فبدأت عيناها تنديان ، وأجفانها تضطرب .. على حين تابع أدجار كلامه : « .. ثم انك كذبت عن عمد ! »

فهتفت تقول : « كلا .. لم أكذب عن عمد ، بل ولم أفعل شيئا عن عمد .. حسنا .. اذهب اذا كان يروقك أن تفعل ! .. اذهب ودعنى أبكى حتى يسقمنى البكاء .. »

وهوت على ركبتيها بجانب المقعد ، ومضت تبكى بكاء حارا متواصلا . وأصر ادجار على عزمه ، ولكن لم يطل اصراره الا ريثما بلغ الفناء ، حيث بدأ يتلكأ مترددا ، فعزمت على أن أشجعه وصحت به من الداخل :

ـ ان الآنسة شديدة العناد يا سيدى ، وهى أسوأ من طفل مشاكس أفسده التدليل .. فمن الخير أن تمضى الى دارك ، والا فانها سوف تمرض حقا لتجلب لنا الهم والنكد ..

ولكن الفتى الرقيق اللين كان يسترق النظر من خلال النافذة ، وقد بدا عليه التردد والاحجام ، وبدت عزيمته على الرحيل أشبه بعزيمة هرة على أن تترك جرذا يحتضر ، أو عصفورا أكلت نصفه ! .. فأدركت فى قرارة نفسى أنه مقضى عليه بالهلاك ، وأن لا سبيل الى انقاذه من القدر الذى يلقى بنفسه بين فكيه .. وهكذا كان .. فما لبث أن تحول بغتة وأسرع الى حجرة الجلوس ثانية وهو يغلق الباب خلفه ..

فلما ذهبت بعد برهة لأخبرهما بأن أيرنشو فى طريق العودة الى الدار وقد أطارت الخمر لبه ، وانه على استعداد لهدم البيت فوق رؤوسنا ، (وهو يغدو دائما فى هذه الحالة



« .. وعندما أتى هيثكليف الى حجرة الجلوس فى ذلك اليوم ، كنت اعاون مس كاثي في استكمال زينتها وتنظيم ثوبها .. »

(انظر ص ١٠٨)

العقلية اذا أفرط فى الشراب ، اذا بى أجد أن الشجار لم يزدهما الا وفاقا وقربا ، وانه قد حطم أسوار الحياء والخجل التى تحوط الشباب الهيابين ، ومكنهما من خلع قناع الصداقة المجردة ، والكشف عما تحته من الحب الذى نشب فى قلبيهما ..

ودفعت أنباء وصول مستر هندلى الى الدار ، أدجار الى الاسراع نحو جواده ، ومس كاثرين الى حجرتها .. أما أنا فقد ذهبت لأخفى هيرتون الصغير ، ولأنزع الطلقات من بندقية السيد ، التى كان مولعا بالعبث بها فى هياجه الجنونى ، مهددا حياة كل من يثيره ، أو يثير انتباهه اليه أكثر مما ينبغى .. وكنت قد دبرت نزع هذه القذائف حتى يقل خطره اذا ما بلغ به الحال الى حد اطلاق البندقية !

الفصل التاسع

اندفع هندلى الى الداخل وهو يصيح بسباب يندى له الجبين ، فلمحنى بينما كنت أقوم باخفاء ولده فى دولاب المطبخ .. وكان هيرتون يحس بفزع مروع من لقاء أبيه والتعرض لولعه الوحشى أو هياجه الجنونى على السواء ! .. فهو فى الأولى عرضة لأن يظل يقبله ويحتضنه حتى يشرف على الموت ، وفى الثانية عرضة لأن يلقى به الى النار أو يحطم رأسه على الجدار .. وهكذا كان الطفل المسكين يظل ساكنا بلا حراك حيثما أردت أن أخفيه عن الأنظار ..

وصاح هندلى وهو يجذبنى من جلد قفاى كما يفعل بالكلاب :

ـ هأنذا قد وجدته أخيرا ! .. وأقسم بالسماء والجحيم أنكم اتفقتم فيما بينكم على قتل هذا الغلام ، وها قد عرفت الآن لماذا تخفونه عن أنظارى دائما .. ولكنى بعون الشيطان سوف أجعلك تبتلعين سكين اللحم الكبيرة يا نللى ! .. ولا

حاجة بك الى الضحك ، فقد زرعت الآن « كينيث » ورأسه الى أسفل ، فى مستنقع « الحصان الأسود » .. وقتل أثنين كقتل واحد سواء بسواء .. كما أن بى رغبة ملحة فى أن أقتل بعضا منكم ، ولن يهدأ لى قرار حتى أفعل !

فأجبته فى هدوء : « ولكننى لا أحب مذاق هذه السكين يا مستر هندلى ، اذ كنا نقطع بها الرنجة المجففة .. والأفضل ــ اذا شئت ــ أن تطلق على النار .. »

ــ الأفضل أن تنصب عليك اللعنات ! .. ولكنك سوف تبتلعين السكين ، فما من قانون فى انجلترا يحول بين الرجل وبين المحافظة على بيته نظيفا محترما .. ولكن منزلى أصبح كريها ممقوتا .. هيا افتحى فمك !

وكان يمسك بالسكين فى يده ، فدفع طرفها بين أسنانى .. ولكننى لم أكن قط أخشى هذيانه هذا ، فبصقت جانبا ورحت أؤكد له أن مذاقها فظيع ولذلك لن أستطيع ابتلاعها !

عندئذ خلى عنى ، وهو يقول : « أرى أن هذا المسخ الصغير الشرير ليس هيرتون ! .. وأرجو المعذرة يا نل ، فلو انه كان هيرتون لاستحق أن يسلخ جلده حيا جزاء عدم اسراعه الى الترحيب بى ، وصياحه كلما رآنى كأننى عفريت من الجان ! .. تعال هنا أيها الجرو الممسوخ ! .. سوف أعلمك كيف تخدع أبا طيب القلب سليم النية ! .. والآن يا نللى .. الا ترين أن الغلام سوف يغدو أجمل وألطف اذا صلمت أذناه ! .. ان ذلك يجعل الكلاب أشد ضراوة ، وأنا أحب ان اراه شيئا ضاريا .. آتينى بمقص ! .. شيئا ضاريا ، وانيقا مشذبا ! .. ثم انها لعاطفة جهنمية وخيلاء شيطانية ، أن نذلل آذاننا ونكرمها ! ! .. فنحن حمير بما فيه الكفاية بدونها ! .. صه يا غلام .. صه ! .. حسنا اذن .. انه طفلى الحبيب !.. صه !.. جفف عينيك من هذه الدموع اللعينة ، واضحك لى .. قبلنى !.. ماذا ؟.. انه لا يريد أن يقبلنى ؟

.. قبلنى يا هيرتون ! .. لعنة الله عليك .. قبلنى اذن ! .. يا الهى ! .. هل يمكن أن أنجب مثل هذا الوحش ! .. والله لأحطمن عنق هذا الجرو ما دمت حيا ! »

وكان هيرتون المسكين يصرخ ويرفس بقدميه ، وهو بين ذراعى والده ، بكل ما فى بدنه الصغير من قوة ، ثم ازدادت صيحاته وتضاعفت عندما حمله وصعد به الدرج وقد رفعه فوق (الدرابزين) .. فصحت به أنه سيخيف الغلام حتى لقد يصيبه الصرع ، وأسرعت خلفه لأنقذه من يديه ، وما كدت أبلغ مكانه حتى مال هندلى الى الأمام فوق قضبان السياج ليصغى الى خطوات انبعثت من الطابق الأسفل مقتربة من الدرج ، وقد نسى ما كان يحمله بين يديه ، وهو يسأل هادرا : « من هناك ؟ » .. وانحنيت الى الأمام بدورى لأشير الى هيثكليف ، الذى عرفت وقع قدميه ، ألا يتقدم أكثر من ذلك .. وفى اللحظة التى فارقت عيناى فيها هيرتون ، قفز الغلام بغتة ، وتخلص من القبضة الرخوة التى كانت تمسك به فى غير عناية ، ثم سقط الى أسفل ..

ولم يتسع لى الوقت لأحس هزة الهلع التى اعترتنى ، قبل أن أرى المنكود الصغير سليما معافى ، فقد وصل هيثكليف الى أسفل الدرج فى اللحظة الفاصلة ، وبدافع طبيعى ، لاشعورى ، تلقى الغلام بين يديه ، ووضعه على الأرض ، ثم رفع عينيه الى أعلى ليرى من كان السبب فى الحادث .. ولو أن شخصا شحيحا تخلى عن ورقة نصيب محظوظة فى سبيل خمسة شلنات ، ثم علم فى اليوم التالى أنه خسر فى هذه الصفقة خمسة آلاف جنيه ، لما بدا وجهه أشد امتقاعا وشحوبا مما بدا عليه وجه هيثكليف عندما رأى مستر أيرنشو بأعلى الدرج .. كان وجهه يعبر ، فى وضوح تقصر عنه الألفاظ ، عن ألمه البالغ اذ جعل من نفسه أداة احباط انتقامه .. وبوسعى أن أقول انه لو كان المكان أشد ظلمة ، لأصلح

ما أفسدته يداه ، ولحطم جمجمة هيرتون على الدرج ! ..
ولكننا كنا شهود خلاصه ونجاته ، وكنت قد نزلت وأخذت ذخيرتى الثمينة بين أحضانى ، ورحت أضمها الى قلبى ..
أما هندلى فقد كان أكثر تؤدة فى هبوطه ، وقد أفاق من ثمله ، وبدا عليه الخجل والندم وهو يقول :

ـ انها غلطتك يا نللى ! .. كان يجب أن تبقيه بعيدا عن الأنظار .. كان يجب أن تأخذيه منى .. هل أصابه أذى من سقوطه ؟

فصحت به غاضبة : « أذى ؟ .. اذا كان لم يقتل ، فلأنه غبى أبله ! .. آه ! .. شد ما أعجب كيف لا تقوم أمه من قبرها لترى كيف تعامله ! .. انك أسوأ من أى كافر ملحد ، اذ تعامل لحمك ودمك بهذه الطريقة ! »

فحاول أن يقرب يده من الغلام الذى اطمأن الى وجودى معه فنفث فزعه المكبوت .. ولكن ما كاد أبوه يمسه بأصبعه ، حتى انبعث يصيح صياحا عاليا ، ويتقلص جسمه كأنما يوشك أن يصاب بنوبة حادة .. عندئذ استطردت أقول لهندلى :

ـ خير لك أن تدعه وشأنه ، فانه يكرهك .. بل انهم جميعا يكرهونك .. وهذه هى الحقيقة المجردة .. ان لديك أسرة سعيدة ، ولكنك بلغت حالة بالغة السوء .

فضحك الرجل المنحرف وعاودته ضراوته ، وهو يقول :

ـ ولسوف تزداد سوءا يا نللى .. أما الآن فعليك أن تغربى عن وجهى به .. وأنت يا هيثكليف ، امش من هنا حالا ، وابتعد عن سمعى ومتناول يدى .. اننى لن أقتل أحدا منكم الليلة ، الا اذا راق لى أن أشعل النار فى المنزل كله ..

وبينما كان يقول ذلك ، تناول زجاجة من الخمر القوية وبدأ يصب منها فى قدحه ، وعندئذ رحت أتوسل اليه قائلة :

ـ كلا يا مستر هندلى .. بالله لا تفعل ، وخذ مما وقع

نذيرا بسوء العاقبة .. ألا أشفق على هذا الغلام التعس ، اذا كنت لا تأخذك الشفقة بنفسك ..

فأجابني : «ان أي شخص سواي قد يكون خيرا له مني.»

فقلت وأنا أحاول أن أخطف الزجاجة من يده :

ــ هلا أشفقت على روحك من عذاب الآخرة اذن ؟

ــ لا تنتظري ذلك مني .. فاني ــ على العكس ــ شد ما يسرني ان ابعث بها الى الهلاك ، عقابا لخالقها على ما اقترفت يداه !

وقهقه الكافر المجدف ضاحكا ، ثم رفع قدحه قائلا :

ــ وهذا نخب لعنتها القلبية !

ثم جرع الكأس دفعة واحدة ، وصاح بنا يأمرنا بالانصراف وهو يشفع أمره بوابل من ألفاظ السباب القبيحة المروعة التي لا يمكن للمرء أن يرددها أو يذكرها ! .. فلما أغلق الباب ، انطلق هيثكليف يردد السباب واللعنات ، ثم قال :

ــ مما يؤسف له أن الشراب لن يقتله ! .. وهو يبذل غاية جهده في سبيل هذه الغاية ، ولكن قوة بنيانه تتحداه وتخذله .. لقد قال مستر كينيث أنه يراهن على فرسه بأن هندلي سوف يعيش أكثر من أي رجل آخر في هذه الناحية من (جيمرتون) ، وسوف يذهب الى قبره شيخا تثقله الأوزار والخطايا .. هذا ما لم يحل به أحد تلك الأحداث السعيدة الخارجة عن المألوف !

ومضيت الى المطبخ حيث جلست أهدهد حملي الصغير حتى ينام .. أما هيثكليف فقد خلت أنه مضى الى مخزن الحبوب في الخارج ، ولكني تبينت بعد ذلك أنه لم يمض الى أبعد من الناحية الأخرى للأريكة ذات الظهر المرتفع ، حيث ألقى بنفسه فوق مقعد طويل بجوار الجدار ، بعيدا عن النار ، حيث لبث ساكنا بغير حراك .. وكنت أهز هيرتون فوق ركبتي وأترنم بأغنية أهدهده بها ، عندما أتت مس كاثي

ـ التى كانت تصغى الى الضجيج من حجرتها ـ فأطلت برأسها من الباب وهمست قائلة :

ـ هل أنت وحدك يا نللى ؟

ـ نعم يا آنستى ..

فدخلت واقتربت من المدفأة وعندئذ رفعت أنظارى اليها وقد خلت انها على وشك أن تقول شيئا ، فاذا بى أجدها وقد انعقدت فى محياها سحابة من الهم والقلق .. وكانت شفتاها منفرجتين ، كأنما كانت تهم بالكلام ، ولكنها تنفست فى قوة فأفلت تنفسها أشبه بتنهد عميق بدلا من العبارة التى كانت تنوى قولها .. وعدت الى الترنم بأغنيتى ، دون أن ابالى بها ، فلم أكن قد نسيت بعد فعلتها الأخيرة معى .. فقاطعتنى قائلة :

ـ أين هيثكليف ؟

ـ انه يقوم بعمله فى الحظيرة ..

فلم يعارضنى .. ولعله كان قد أخذته سنة من النوم .. وتلت ذلك فترة طويلة من الصمت لمحت فى خلالها قطرات من الدمع تنساب فوق وجنتى كاثى وتسقط على البلاط .. فتساءلت فى قرارة نفسى : أتراها آسفة نادمة على مسلكها الشائن ؟.. ان ذلك يعد تطورا جديدا فى طباعها !.. ولكن عليها أن تتحدث من تلقاء نفسها ، فلن أمد لها يد المعونة ! .. ولكن لا .. فهى لا تعنى أقل عناية بأى شىء عدا ما يخصها ويهمها ، لفرط أنانيتها ! .. وأخيرا صاحت قائلة :

ـ أواه يا عزيزتى ! .. اننى تعسة شقية !

فقلت فى غير اكتراث :

ـ واأسفاه ! .. ان من الصعب مرضاتك يا فتاتى ! .. أفلا تستطيعين الشعور بالرضى والسعادة ، على كثرة أصدقائك وقلة همومك ؟

فركعت الى جانبى ورفعت نحوى عينيها الساحرتين وفيهما

تلك النظرة التى تذهب بغضب المرء حتى لو كان لديه كل الحق فى التمسك به، ثم غمغمت تقول :

ـ نللى .. هل تكتمين لى سرا ؟

فقلت وقد لانت أساريرى : « أترينه يستحق الكتمان ؟ »

ـ نعم .. وهو يضايقنى كثيرا ، ولا بد لى من أن أفرج عن صدرى بافشائه لك .. لقد طلب الى أدجار لينتون اليوم أن أتزوج منه .. وقد أعطيته جوابى .. ولكنى قبل أن أقول لك ان كان قبولا ام رفضا ، أود أن تخبرينى بما كان ينبغى أن يكون عليه ..

ـ وكيف يمكننى حقا أن أعرف يا مس كاثرين ؟ .. ولكننا اذا نظرنا بعين الاعتبار الى المشـهد الذى قمت بتمثيله فى حضوره بعد الظهر ، فمن الحكمة أن ترفضى طلبه .. لأنه ما دام قد طلب يدك بعد ذلك المشهد ، فهو اما أن يكون شخصا أخرق لا أمل فى شفائه ، أو غبيا أبله لا يقدر عواقب الأمور !

فاستوت واقفة وهى تقول فى حنق :

ـ اذا مضيت فى الكلام بهذه النغمة ، فلن أخبرك بشىء بعد ذلك .. والآن ، لقد قبلته يا نللى ! .. فاسرعى واخبرينى هل كنت مخطئة فى ذلك !

ـ اذا كنت قد قبلته ، فما جـدوى مناقشـة الأمر من جـديد ؟ .. لقد أعطيتـه كلمتك ، وليس فى وسـعك أن تسحبيها ..

فصاحت فى ضيق وهى تفرك يديها وتقطب جبينها :

ـ نعم .. ولكن قولى هل كان يجب أن أفعـل ذلك .. تكلمى !

فقلت متمهلة وأنا أزن كلماتى :

ـ هناك أشياء ينبغى بحثها والتفكر فيها قبل الاجابة على هذا السؤال اجابة صائبة .. فأولا ، وقبل كل شىء ، هل تحبين مستر أدجار ؟

ـ ومنذا الذى يستطيع أن لا يحبه ؟ .. نعم ، أحبه ، طبعا !

عندئذ مضيت أستجوبها فى الحاح شديد ـ فمن الحكمة أن أفعل ذلك مع فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها ! ـ قلت :

ـ ولماذا تحبينه يا مس كاثى ؟

ـ هراء ! .. اننى أحبه ، وهذا يكفى !

ـ كلا البتة .. بل يجب أن تقولى لماذا تحبينه ؟

ـ حسنا .. لأنه وسيم الطلعة ، رقيق المعشر ..

ـ سبب سخيف !

ـ ولأنه شاب فى مقتبل العمر ، مرح لطيف ..

ـ وهذا سبب سخيف أيضا ..

ـ ولأنه يحبنى ..

ـ ذلك لا يغير من الأمر شيئا !

ـ وسوف يغدو غنيا .. وشد ما أحب أن أكون أعظم سيدة فى هذه الأنحاء كلها ، ومن بواعث زهوى وفخارى أن يكون لى مثل هذا الزوج ..

ـ وهذا أسوأ الأسباب التى ذكرتها . والآن خبرينى كيف تحبينه ؟

ـ كما يحب كل انسان .. ما هذا السخف يا نللى ؟

ـ كلا البتة .. أجيبى على سؤالى !

ـ أحب الأرض التى تحت قدميه ، والهواء الذى يحوط رأسه ، وكل شىء يلمسه ، وكل كلمة يقولها .. أحب كل نظراته ، ولمحاته ، وكل ما يقوله ويفعله .. أحبه بكل ما فيه ، كل الحب .. فماذا تريدين بعد ذلك ؟

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لا .. لقد انقلب الأمر لديك الى مهزلة ! .. وهذا افراط فى حب المشاكسة يا نللى ! .. ألا أعلمى اذن اننى لا

أتخذ هذا الأمر هزلا أو مزاحا ..

قالت السيدة الشابة ذلك وقد علا وجهها العبوس وأدارت ظهرها ناحيتي مستقبلة المدفأة .. فبادرت أقول :

ـ انني بعيدة عن الهزل كل البعد يا مس كاثرين .. فأنت تحبين مستر ادجار لأنه وسيم الطلعة ، ولأنه شاب، ولانه مرح ، ولأنه غني ، ولأنه يحبك .. ومهما يكن من أمر فان السبب الاخير لا قيمة له البتة .. فقد تحبينه دون أن يحبك .. وقد لا تشعرين نحوه بالحب رغم حبه لك ، ما لم تكن له الميزات الأربع الأولى !

ـ كلا .. لا شيء من ذلك البتة .. بل انني كنت لأشفق عليه ، وأكرهه ، لو كان قبيح الصورة ، أو أشبه بمهرجي الملاعب !

ـ ولكن هناك في هذا العالم الكثير من الشبان الأثرياء الذين لا يقلون عنه وسامة وبهاء ، ان لم يزيدوا ، فما الذى يمنعك من أن تحبيهم ؟

ـ اذا وجد أمثال هؤلاء ، فانهم بعيدون عن طريقى .. ولم ألق في حياتى أحدا يماثل أدجار ..

ـ قد تلقين بعضا منهم .. ثم انه لن يظل طول حياته وسيم الطلعة شابا ، وقد لا يكون ثريا على الدوام ..

ـ ولكنه كذلك الآن ، وليس يهمنى سوى حاضرى .. ليتك تتكلمين فى تعقل يا نللى ..

ـ حسنا .. هذا يحسم الأمر ، وما دمت لا تهتمين الا بحاضرك ، فتزوجى بمستر لينتون !

ـ انني لا أطلب اذنك كي أتزوجه ، فسوف أفعل ذلك .. ومع ذلك فانك لم تخبرينى هل أصبت فى ذلك ؟

ـ بل أصبت تماما ، اذا كان الناس يصيبون عندما يتزوجون من أجل حاضرهم ، دون مستقبلهم ! .. ولنستمع الآن الى همومك وأسباب شقائك . ان أخاك سوف يطرب

لهذا الأمر ، ولست أعتقد أن السيد لينتون والسيدة زوجته سوف يثيران أى اعتراض . وسوف تفرين من دار مليئة بالفوضى ، لا راحة فيها ولا استقرار ، الى دار محترمة ذات سعة وثراء ووقار .. ثم انك تحبين أدجار ، وهو يحبك .. كل شىء اذن مذلل ميسور .. فأين المتاعب والشقاء اذن ؟

فصاحت كاثرين وهى تضرب باحدى يديها على صدرها وبالأخرى على جبينها :

ـ هنا .. ثم هنا ! .. أو حيثما تسكن الروح والنفس فى جوارح الجسد .. فاننى فى قرارة نفسى ، وفى أعماق قلبى ، أشعر بأنى قد أخطأت !

ـ هذه غاية العجب يا آنستى ، وصدقينى اننى لا أفهم من الأمر شيئًا !

ـ انه سرى .. ولكن اذا وعدتنى بألا تسخرى منى فسوف أفسر لك الأمر . وقد لا أستطيع بيانه فى وضوح وجلاء ، ولكنى سأجعلك تحسين بما يخالجنى من مشاعر ..

واتخذت مجلسها بجوارى فوق الأريكة ، واكتست أساريرها لمحة من الحزن والاكتئاب ، وسرت الرعدة فى يديها المتشابكتين .. وبعد أن أخلدت الى التفكير العميق لحظة ، قالت فجأة :

ـ ألم ترى فى نومك أحلاما غريبة قط يانللى ؟

ـ نعم .. يحدث لى ذلك من حين الى حين ..

ـ كذلك أنا .. لقد رأيت فى حياتى أحلاما لازمتنى بعد ذلك دائما ، وغيرت الكثير من آرائى .. بل لقد راحت تمتزج بى ، وتتغلغل فى كيانى ، كما يمتزج النبيذ بالماء ، فيتغير لون تفكيرى .. وهاك واحدا منها .. سوف أقصه عليك ، ولكن حاذرى من أن تضحكى من أى جزء منه !

فصحت أقاطعها : « لا ، لاتفعلي يامس كاثرين .. فلدينا

من أسباب الفزع والكآبة مايكفينا دون حاجة الى استحضار الأشباح والأرواح لتزيد من كربنا وخبلنا .. هيا عودى الى طبيعتك المرحة كعهدى بك دائمـا .. أنظـرى الى هيرتون الصغير .. انه لا يحلم بشىء مفزع ، وما أحلاه وهو يبتسم فى نومه ! »

ـ نعم .. وما أحلى أباه وهو يسب ويلعن فى وحدته !.. أظنك مازلت تذكرينه يا نللى عندما كان صورة أخرى من هذا الصغير السمين ، وفى مثل سنه وبراءته .. ولكن مهما يكن من أمر يانللى فسوف أرغمك على الاستماع الى حلمى .. انه ليس طويلا ، كما اننى الليلة بعيدة كل البعد عن الرغبة فى المرح والانبساط ..

فرحت أردد فى عجلة : « كلا .. لن أسمعه !.. لن أسمعه ! »

والواقع أننى كنت شديدة التعلق بالخرافات والأوهام ، وما زلت كذلك حتى الآن .. ولقـد كانت كاثرين فى تلك الليلة فى حالة غريبة غير مألوفة من الكآبة والانقباض جعلتنى أفزع مما قد تقوله فأرى فيه نبوءة مشئومة ، أو أتكهن بكارثة مروعة !.. وقد تضايقت هى من رفضى الاصغاء اليها ، ولم تمض فى روايتها ، بل تظاهرت بأنها سوف تطرق موضـوعا آخر ، فقالت بعد قليل :

ـ لو أننى كنت فى السماء يانللى لكنت شقية تعسة !

ـ لأنك لست أهلا للذهاب الى السماء .. فالخاطئون جميعا يجدون الشقاء والتعاسة فى السماء ..

ـ ليس هذا هو السبب .. لقـد حلمت مرة أننى كنت هناك !

فقاطعتها ثانية ، صائحة : « قلت لك اننى لا أنوى الاصغاء الى أحلامك يا مس كاثرين .. سوف أذهب الى فراشى ! »

واذ رأتنى أهم بالنهوض ، تضاحكت وأمسكت بى فى مكانى قائلة : « رويدك ، فلن أضايقك كثيرا .. كنت فقط أهم بأن

أقول لك ان السماء لاتبدو انها تصلح لى مقرا وسكنا .. فقد تمزق قلبى من البكاء كى أعود الى الأرض حتى غضبت الملائكة منى غضبا شديدا ، فأخذننى وطوحن بى من السماء فسقطت فى وسط الأحراش فوق « مرتفعات ويذرنج » ، وصحوت وأنا أبكى من الفرح .. وهذا وحده يكفى لتفهمى سرى يانللى .. فما خلقت للزواج من ادجار لينتون ، كما لم أخلق لأجد فى السماء مقرا لى وسكنا .. ولو أن ذلك المنكود الشرير ـ الذى هو أخى ـ لم يهبط بهيثكليف الى الدرك الأسفل ، لما فكرت فى هذا الزواج .. أما الآن فان زواجى من هيثكليف يحط من قدرى ويسقط من شأنى ومكانتى .. لذلك فانه لن يعرف أبدا كم أحبه . وليس حبى له لأنه بهى الطلعة يانللى ، ولكن لأنه أشبه بى منى ، وأقرب الى قلبى من نفسى ! .. ومهما كانت طبيعة الشىء الذى تصنع منه الأرواح ، فان روحى وروحه صنعتا من عنصر واحد .. أما لينتون فعلى خلافنا ، كالفرق بين شعاع القمر والبرق ، أو بين الجليد والنار ! »

وقبل أن تفرغ من عبارتها ، أحسست بوجود هيثكليف معنا .. فقد لاحظت حركة يسيرة ، فأدرت رأسى ورأيته ينهض من فوق المقعد ويتسلل خارجا بغير حس أو صوت . كان قد ظل يصغى حتى سمع كاثرين تقول أن زواجها منه يحط من قدرها ، فلم يشأ أن يبقى ليسمع المزيد مما تقول .. وكانت رفيقتى تجلس على الأرض ، وقد حال ظهر الأريكة دون أن تحس بوجوده أو رحيله ، ولكنى أجفلت وصحت أطلب اليها الصمت ..

فسألتنى وهى تتفرس حواليها فى قلق : « لماذا ؟ »

فأجبتها ، وقد أسعفتنى أصوات عجلات مركبة فى الخارج :

ـ لقد جاء جوزيف ، وسوف يأتى هيثكليف الى هنا معه .. بل انى لست واثقة من أنه لايقف عند الباب فى هذه اللحظة !

ــ أوه ! .. انه لا يستطيع أن يسمعنى من وراء الباب .. أعطينى هيرتون ، ريثما تعدين لنا العشاء ، وعندما تفرغين من اعداده فاطلبى الى أن أتناول عشائى معك ، لأنى أريد أن اخادع ضميرى القلق ، واقنع نفسى بأن هيثكليف لايدرك معنى لهذه الأشياء .. انه لايدركها ياناللى .. وهو لايعرف معنى الوقوع فى الحب .. أليس كذلك ؟

فقلت فى دهشة : « لست أرى سببا يحول دون معرفته له ، كما تعرفينه .. ولو أن قلبه قد وقع اختياره عليك أنت فانه سوف يغدو أشقى مخلوق ولدته أنثى على الاطلاق .. وما أن يصبح اسمك « مسز لنتون » حتى يكون قد فقد الصديق ، والحب ، وكل شىء ! .. هل فكرت كيف يمكنك احتمال هذا الفراق ، وكيف يمكن أن يطيق هو احتماله ، عندما يجد نفسه منبوذا مهجورا فى هذا العالم ؟ »

فقاطعتنى وهى تهتف فى استنكار : « منبوذا مهجورا ؟ .. فراق وهجران ؟ .. منذا الذى يستطيع أن يفرق بيننا بالله عليك ؟ لن يحدث ذلك مادمت حية يا ايلين (١) ! ولن أقدم عليه من أجل مخلوق من البشر ! .. فليفن كل لينتون على وجه الأرض ، وليتلاش ويصبح عدما فى عدم ، قبل أن أفكر فى هجر هيثكليف أو التخلى عنه .. أوه ، كلا .. ليس ذلك ماأنويه ، ولا ماأعنيه .. وما كنت لأصبح مسز لينتون قط لو كان ذلك هو الثمن المنشود .. سوف يظل عندى مثلما كان طول حياته ، ويجب على ادجار أن ينفض عنه كراهيته له ، ويحتمل لقاءه ورؤيته على الأقل .. ولسوف يفعل عندما يعلم حقيقة شعورى نحوه .. وها قد رأيت الآن ياناللى انك كنت تظنيننى أنانية تعسة . ولكن ألم يخطر لك قط اننى لو تزوجت من هيثكليف فسنغدو فقيرين شحاذين ، على حين

---

(١) « ايلين » ، أو « نيللى » ، أو « مسز دين » ، كلها اسماء لامرأة واحدة

أننى لو تزوجت من لينتون فسيكون فى وسعى أن أعين هيثكليف على النهوض ، وأضعه حيث يكون بمنجاة من سطوة أخى وسيطرته ؟ »

— أتفعلين ذلك بنقود زوجك يامس كاثرين ؟ .. انك لن تجديه لين العريكة الى الحد الذى تعتمدين عليه ! .. ثم اننى أعتقد — دون أن يكون من شأنى الحكم على ماتفعلين — ان ذلك أسوأ ماذكرته من بواعث تدفعك للزواج من لينتون !

فأجابت قائلة : « كلا .. انه خيرها وأقواها . ان الأخرى كانت لارضاء أهوائى واشباع نزواتى ، ومن أجل ادجار لينتون أيضا ، لارضاء رغبته .. وأما هذا الباعث فانه من اجل من يشتمل فى شخصه على كل مشاعرى نحو ادجار ، وعلى أنا نفسى ! .. اننى لا أستطيع التعبير عما يدور بخلدى ، ولكن من المحقق أنك ، وكل انسان آخر ، تعلمين أنه يوجد — أو يجب أن يكون هناك — كيان آخر لك خارج هيكلك ! .. والا فأية فائدة كانت من خلقى اذا كنت بكليتى سجينة هذا الجسد ؟ .. ان أعظم ما لقيت من شقاء وهموم فى هذه الدنيا انما هى شقاء هيثكليف وهمومه التى كنت أرقب كلا منها وأحسه وأعيش فيه منذ البداية .. وغاية حياتى ومنتهاها انما هى هيثكليف نفسه . فلو هلك كل من عداه ، وبقى هو ، لبقيت أنا الأخرى متصلة الكيان والوجود . ولو بقى كل شىء آخر ، وفنى هو ، لغدا الوجود كله غريبا عنى ، لا أحس بأننى جزء منه ! .. ان حبى للينتون أشبه بأوراق الشجر فى الغابة ، يغيرها الزمن ويغير عليها — وهذا ما أحسه من الآن — كما يغير الشتاء على أوراق الأشجار .. وأما حبى لهيثكليف فأشبه بتلك الصخور الخالدة تحت الأرض ، قد لاتكون مصدر بهجة ظاهرة ، ولكنها ضرورية كالازل ! .. نللى ! .. اننى هيثكليف ! .. وهو أبدا فى عقلى وفى فكرى ، لا كمتعة أو ملهاة ، الا بقدر مايمكن أن أكون انا متعة وملهاة لنفسى .. ولكنه كيانى ووجودى نفسه .. فلا

تتحدثى عن فراقنا مرة ثانية لأن ذلك أمر مستحيل الوقوع عمليا .. و .. »

وكفت عن الحديث بغتة ، وهى تخفى وجهها بين طيات ثوبى .. لكننى دفعتها عنى فى غير رفق أو لين ، اذ كان صبرى قد نفد من حماقاتها ، وقلت :

ـ اذا كنت أجد أى معنى فى هرائك هذا ياآنسة ، فانه يكفى لاقناعى بأنك تجهلين كل شيء عن المسئوليات والواجبات التى يجب أن تضطلعى بها فى الزواج .. أو انك فتاة شريرة لاخلق لها ولا مبادىء ! .. فأرجو الا تشغلينى بالمزيد من أسرارك هذه ، لأنى لا أعدك بكتمانها !

فقالت فى لهفة : « وهل تكتمين هذا ؟ »

فعدت أقول : « كلا .. لست أعدك بذلك أيضا ! »

وكانت تهم بالالحاح على فى الرجاء ، لولا أن دخل جوزيف فى تلك اللحظة فوضع حدا لحديثنا .. وانتحت كاثى ناحية ، وأخذت هيرتون فى حجرها ، بينما انصرفت أنا لاعداد العشاء ، حتى اذا مافرغت منه بدأت وجوزيف نتشاحن أينا يحمل العشاء الى مستر هندلى .. فلم ينته شجارنا الا بعد أن برد الطعام وعندئذ اتفقنا على ان ننتظر حتى يطلب عشاءه ، اذا شعر بحاجة الى الطعام ، اذ كنا جميعا نرتعد فرقا من لقائه عندما يكون قد ظل منفردا بنفسه طويلا !

وتلفت جوزيف يبحث عن هيثكليف ، ثم قال : « وكيف لم يعد ذلك الشقى من الحقل بعد ، فى هذه الساعة ؟ .. ما الذى يفعله ؟.. لاريب أنه يتسكع كعادته ! »

فأجبت : « لاريب أنه فى مخزن الغلال ، وسأذهب لأناديه .. »

ومضيت أبحث عنه ، وأناديه فى كل مكان بالمنزل ، ولا مجيب .. فلما عدت ، انتحيت بكاثرين وهمست أقول لها اننى واثقة من انه سمع شطرا كبيرا مما قالته ، ثم ذكرت لها



صورة تاريخية نادرة لغرفة فى دار آل برونتى بجهة هاورث ، بانجلترا وفى مؤخرتها الكنبة التى ماتت عليها « اميلى برونتى » ، وفوقها على الجدار لوحة لوالدها ٠٠ والى اليسار الصندوق الذى جمعت فيه اميلى وشقيقتها شارلوت حاجياتهما قبل رحيلهما الى بروكسل ٠ وفى أسفل الصورة حذاء «اميلى» ذو الرقبة الطويلة، وعلى مقعد البيانو شمعدان ثلاثى به ثلاث شمعات مشتعلة ، لعلها شعلات عبقرية الشقيقات الثلاث : شارلوت ، واميلى ، وآن برونتى !

كيف لمحته وهو يغادر المطبخ فى اللحظة التى كانت فيها تشكو سوء معاملة أخيها له ومسلكه القاسي حياله .. فما راعنى الا أنها قفزت من مجلسها فى فزع شديد ، وألقت بهيرتون فوق الأريكة ، واندفعت الى الخارج لتبحث عن صديقها بنفسها ، دون أن تتمهل ريثما تتفكر فى سبب هذا الفزع الذى دهمها ، أو ماعساه يكون قد ساءه من حديثها .. ولقد طال غيابها حتى أن جوزيف اقترح ألا ننتظرهما أكثر من ذلك ، وأشار فى خبث الى أنهما قد مكثا معا بعيدا حتى لايسمعا صلاته الطويلة المسهبة .. وراح يؤكد لى انهما من سوء الخلق والنزوع الى الشر بحيث لانتوقع منهما مسلكا طيبا ! .. ومن أجل صلاح نفسيهما ، تطوع فى تلك الليلة بصلاة خاصة أضافها الى ربع الساعة المعهود من التضرع والابتهال ، الذى نقضيه عادة أمام الطعام قبل أن نمد اليه يدا .. ولعله كان خليقا بأن (يلضم) فيها صلاة أخرى ، لولا أن اندفعت السيدة الصغيرة الى الداخل ، وانقضت عليه تأمره فى حزم بأن يسرع بالخروج الى الطريق ليبحث عن هيثكليف ، أينما كان ، حتى يجده ويحضره الى المنزل فى الحال .. وأضافت فيما يشبه العويل :

ـ اننى أريد أن أتحدث اليه حتما قبل أن أصعد الى حجرتى .. ثم ان البوابة مفتوحة على مصراعيها ، ولابد أنه فى مكان ما بعيد عن مدى السمع ، لأنه لم يجب ندائى رغم أننى صعدت فوق سطح الحظيرة وجعلت أصيح منادية باسمه بأعلى ما استطعت من صوت ..

واعترض جوزيف فى بادىء الأمر ، ولكنها كانت فى حالة من اللهفة لاتسمح باعتراض مشيئتها .. فما لبث أن وضع قبعته فوق رأسه ، وسار وهو يغمغم بعبارات السخط والحنق ، بينما راحت تذرع الأرض ذهابا وجيئة وهى تهتف :

ـ اننى لأعجب أين هو الآن ؟ .. بل أين يمكن أن يكون ؟!.

ما الذى قلته يانللى ؟. قد نسيت !. اترينه غضب من سوء خلقى بعد الظهر ؟ .. ياالهى ! .. خبرينى ياعزيزتى ، ماالذى قلته فأحزنه ؟.. شد ما أود أن يعود !.. شد ما أود حقا أن يعود ثانية !

فصحت بها ، وان كان القلق قد بدأ يتسلل الى قلبى :

ـ ماهذه الضجة التى تقيمينها للاشىء ؟.. أمن أتفه سبب تفزعين وترتاعين ؟ .. لست أرى مما يثير القلق أن يخرج هيثكليف لنزهة فى الأحراش فى ضوء القمر ، أو يدفعه تجهمه المألوف الى الاستلقاء بين الدريس دون أن يعنى بالرد على ندائنا .. أؤكد لك أنه هناك ، وسأريك كيف أخرجه بنفسى ..

وبادرت بالخروج لأعيد الكرة فى البحث عنه فى كل مكان خطر ببالى ، ولكن بحثى لم يسفر عن أية ثمرة ، كما أن بحث جوزيف انتهى الى النتيجة ذاتها ، اذ عاد وهو يهدر قائلا :

ـ ان هذا الفتى لن ينصلح حاله قط .. لقد ترك البوابة مفتوحة فخرج مهر الآنسة وحطم صفين من عيدان القمح ، وانطلق عبر الحقل الى الأحراش .. والله أن السيد سوف يثير الشياطين فى الصباح ، وحسنا يفعل .. فقد طال صبره حتى غدا ضعفا وخورا .. ولكن للصبر نهاية ، وسوف ترون عاقبة أفعالكم هذه !

فقاطعته كاثرين :

ـ هل وجدت هيثكليف ياحمار ! وهل بحثت عنه كما امرتك ؟

ـ كان الأولى ان ابحث عن المهر ، فذاك خير واجدى ! .. ولكنى لا أستطيع البحث عن حصان أو انسان فى هذهالليلة المظلمة التى تشبه سواد المدخنة ! .. ثم ان هيثكليف لن يجيب ندائى ، وكان الأولى أن يلبى نداءك أنت !

والحق انها كانت ليلة حالكة السواد بالنسبة لليالىالصيف،

وكانت السحب تتجمع وتنذر بقصف الرعد وهطول المطر ، فقلت أنه يجدر بنا أن نجلس جميعا فان العاصفة المقتربة خليقة بأن تعيده الى المنزل ، دون مزيد من العناء أو القلق .. غير أنني لم أستطع اقناع كاثرين بالهدوء ، فظلت قلقة ، تروح وتغدو بين باب المطبخ والبوابة الخارجية فى حالة من الاضطراب والهياج لا تدع مجالا لأية راحة أو هدوء .. وما لبثت أن اتخذت لها مكانا ثابتا عند طرف السور بالقرب من الطريق ، حيث أقامت هناك غير عابئة باعتراضي المتوالى ، ولا بالرعد القاصف ، بل ولا بقطرات المطر الكبيرة التى بدأت تهطل حولها ، وهى تنادى على هيثكليف بين الفينة والفينة ، وتنصت لعله يجيب النداء ، ثم تنفجر باكية صائحة من جديد .. وكانت عندما تعتريها نوبات البكاء والصياح ، تفوق هيرتون أو أى طفل آخر ، فى هذا المضمار ..

وقبيل منتصف الليل ، وفيما نحن نجلس على هذه الحال ، انطلقت شياطين العاصفة من عقالها ، وأتت تهدر فوق « المرتفعات » فى عنفوان قوتها وشدتها . كانت الرياح تزمجر كالذئاب الجائعة ، والرعد يقصف كأن السماء توشك أن تنقض على الأرض ، وأطارت العاصفة شجرة عند ركن الدار ، فسقط غصن غليظ منها فوق السطح ، وحطم جزءا من المدخنة الشرقية ، فتهاوت الأحجار والأنقاض فى هدير مروع داخل موقد المطبخ حتى خلنا أن صاعقة قد انقضت بيننا ، وأسرع جوزيف يجثو على ركبتيه ويبتهل الى الله أن يذكر عبديه الصالحين « نوحا » و « لوطا » ، وان يقى عباده الأبرار من الهلاك ، ويقصر الدمار والفناء على الكفرة والأشرار .. وأحسست بهاتف خفى يهجس فى نفسى بأن اللعنة ستحيق بنا جميعا ، وان « يونان » (١) المنحوس ليس الا مستر ايرنشو نفسه ! .. وعندئذ مضيت أحرك مقبض باب الوكر الذى

---

(١) « يونان » فى الانجيل يقابل « يونس » فى القرآن

يأوى اليه ، لأتحقق مما اذا كان لا يزال على قيد الحياة ، فأجابنا فى صوت عال ، وفى ألفاظ جعلت جوزيف يصيح ويصخب بأكثر مما كان يفعل من قبل ، ويبتهل الى الله أن يفرق بين القديسين أمثاله ، والخاطئين أمثال سيده ! .. ولكن العاصفة انقضت بعد زهاء عشرين دقيقة وخلفتنا جميعا بغير سوء ، فيما عدا كاثى التى ابتلت ثيابها جميعا من جراء عنادها ورفضها الالتجاء الى الداخل ، ووقوفها عارية الرأس بغير دثار فوق ثيابها حتى فاض شعرها وثيابها بأكبر قدر من الماء .. وأخيرا أتت الى المطبخ ، فألقت بنفسها فوق الأريكة بثيابها المبتلة وأدارت رأسها الى المسند وهى تخفى وجهها بين يديها ..

فهتفت أقول وانا المس كتفها بيدى :

ـ حسنا يا آنسة ! .. أتراك موكلة بأن تجلبى لنفسك الموت ؟ .. وهل تعرفين كم الساعة الآن ؟ .. انها النصف بعد منتصف الليل . تعالى ، تعالى الى فراشك ، فليس ثمة جدوى من بقائك بعد ذلك فى انتظار ذلك الفتى الطائش المعتوه ، فلعله قد ذهب الى (جيمرتون) وبقى بها الى الآن .. ولعله حدس أننا لن نبقى فى انتظاره حتى هذا الوقت المتأخر ، وحدس أن مستر هندلى هو وحده الذى قد يكون ساهرا ، فأراد أن يتحاشى لقاءه اذا فتح له الباب ..

فقال جوزيف : « كلا .. كلا ، انه لم يذهب الى (جيمرتون) . ولست أعجب اذا كان الآن فى قاع حفرة مليئة بالوحل ! .. فتلك المحنة التى ابتلانا بها الله لاتذهب عبثا .. ولو أنك ذهبت وراءه ياآنسة لكنت الفريسة التالية ! .. هل تعرفين ماتقول التوراة ؟ »

ثم بدأيتلو علينا الآيات ويرشدنا الى مواضعها بين النصوص حيث يمكن أن نجدها .. واذ ذهبت توسلاتى لتلك البنت العنيدة بأن تنهض وتستبدل ثيابها المبللة، عبثا، تركت أحدهما

يتلو عظاته وصلواته ، والأخرى ترتعد من فرط البرد ، ومضيت الى فراشي حاملة هيرتون الصغير الذى سرعان ماااستغرق فى النوم .. ولبثت برهة أسمع صوت جوزيف وهو يتابع ابتهالاته ، ثم سمعت وقع أقدامه فى الدرج ، قبل أن يغلبنى النعاس وأروح فى نوم عميق ..

فلما نزلت الى المطبخ فى الصباح ، متأخرة عن موعدى المعتاد قليلا ، رأيت ـ على ضوء أشعة الشمس التى كانت تخترق فتحات النافذة ـ مس كاثرين لاتزال جالسة بجوار المدفأة التى خبت نيرانها . وكان الباب المؤدى من المطبخ الى حجرة الجلوس منفرجا والضوء يغمرها من النوافذ المفتوحة .. وكان هندلى قد خرج من الحجرة ووقف بجوار مدفأة المطبخ ، شاحب الوجه مثقل العينين بالنعاس .. وكان يقول لها عندما دخلت :

ـ ماذا بك ياكاثى ؟ .. انك تبدين فى حالة يرثى لها ، كجرو غريق .. لماذا أراك شاحبة الوجه مبللة الثياب ياصغيرتى ؟

فأجابته فى احجام وتخاذل :

ـ لقد ابتلت ثيابى ، وشعرت بالبرد .. هذا كل شىء ..

فلم أتمالك نفسى من القول ، اذ رأيت السيد وقد أفاق من سكره : « آه ! انها فتاة شريرة .. لقد تركت وابل المطر ليلة أمس يغرقها ثم جلست الليل بطوله هنا ولم أستطع التأثير عليها كى تذهب الى فراشها أو تتحرك من مكانها .. »

فراح مستر ايرنشو يحدق البصر الينا جميعا فى دهشة ، وما لبث أن قال : « الليل بطوله ؟ .. وما الذى أبقاها مستيقظة حتى الآن ؟ .. انه ليس الخوف من الرعد طبعا ، فقد انقضى ذلك منذ ساعات طويلة ؟ »

فلم يشأ أحد منا أن يذكر شيئا عن غياب هيثكليف ، طالما كان فى وسعنا أن نخفيه .. وهكذا قلت اننى لا أدرى ماالذى

نبت فى رأسها كى تظل جالسة ساهرة ، كما انها لم تقل شيئا البتة . وكان الجو جميلا والصباح مشرقا ، فدفعت مصاريع النافذة وسرعان ما امتلأ المكان بشدى الزهور المنبعث من الحديقة ، غير أن كاثرين صاحت بى فى حنق :

ـ أغلقى النافذة ياايلين ، فانى أموت من البرد !

وأخذت أسنانها تصطك وبدنها يرتعد ، وهى تقترب من رماد النيران الخابية ، فأمسك أخوها برسغها ، وصاح : « انها مريضة ! .. وأحسب أن ذلك هو السبب فى عدم ذهابها الى الفراش . ياللشيطان ! اننى لاأريد أن تنغصوا حياتى بالمزيد من المرض هنا ! .. ماالذى جعلك تخرجين فى المطر بحق السماء ؟ »

فانبرى جوزيف ، وقد سنحت له الفرصة ـ بعد أن رأى ترددنا ـ لينفث سموم لسانه ، قال :

ـ الجرى وراء الشبان كالعادة ! .. ولو كنت فى مكانك أيها السيد لنزلت على وجوههم وأقفيتهم صفعا ، السادة منهم والصعاليك ! .. فما من يوم تخرج فيه من المنزل حتى يحضر لينتون الشاب ليتسكع هنا . أما مس نللى فهى فتاة رقيقة الشعور ! .. انها تجلس فى المطبخ تترقب حضورك من النافذة ، لتنذرهما بعودتك ، فما أن تدخل من باب حتى يتسلل لينتون من الباب الآخر ، وبعد ذلك تمضى سيدتنا العظيمة فى الغزل من جديد على طريقتها ! .. هل ترى من آداب السلوك أن تذهب لتجوب فى الحقول بعد منتصف الليل مع ذلك الوغد سليل الشياطين والغجر ، هيثكليف ؟ .. انهم يظنوننى أعمى لاأرى شيئا ، ولكنى لست كذلك ! .. لقد رأيت لينتون الشاب وهو يأتى ويذهب . ورأيتك انت ، (وهنا تفضل بتوجيه الكلام لى :) أنت أيتها الفتاة الضالة التى لاتصلح لشىء ، تنهضين فجأة وتسرعين الى حجرة الجلوس فى اللحظة التى تسمعين فيها وقع حوافر جواد

السيد فى أول الطريق !

فصاحت كاثرين : « أصمت أيها النمام الدساس ! .. ولا تزد من قحتك وسلاطة لسانك أمامى .. لقد حضر ادجار لينتون أمس ياهيندلى مصادفة ، وكنت أنا التى طلبت اليه الانصراف لأننى أعلم أنك ماكنت تود ان تلقاه فى الحالة التى كنت فيها .. »

فأجاب أخوها : « بل أنت تكذبين ياكاثى ، لاشك فى ذلك . ثم انك بلهاء لعينة ! .. ولكن دعينا من لينتون الآن ، وأخبرينى ألم تكونى مع هيثكليف ليلة الأمس ؟ .. قولى الحقيقة الآن ، ولا حاجة بك الى الخوف من ايذائه . فعلى الرغم من أننى أكرهه الآن أكثر من أى وقت مضى ، الا أنه اسدى الى صنيعا لا استطيع تجاهله ، منذ وقت قصير ، بحيث لايطاوعنى ضميرى على أن أدق عنقه .. ولكى احول دون ذلك فسوف أطرده اليوم ، بل هذا الصباح بالذات . وعندما يذهب فأنى أنصحكم جميعا بأن تفتحوا أعينكم جيدا والا كان لكم عندى الجزاء الأوفى ! »

فبدأت كاثرين تنشج فى مرارة وتقول :

ـ مارأيت هيثكليف ليلة الأمس قط .. واذا طردته من هنا فسوف أذهب معه ، ولكن مهلا ، فلعلك لن تستمتع بهذه الفرصة قط . لعله ذهب من تلقاء نفسه !

ثم انفجرت فى نوبة من البكاء المرير والحزن الدافق حتى غدت كلماتها الأخيرة غير واضحة أو مفهومة .. وعندئذ راح أخوها يصب عليها وابلا من الألفاظ القارصة والعبارات القاسية ، وأمرها بأن تذهب الى حجرتها فى الحال ، والا أذاقها مايجعل لبكائها سببا . وأرغمتها على الطاعة ، ولن أنسى ما حييت الحالة المروعة التى كانت فيها عند ما أوينا الى حجرتها ، حتى تملكنى الرعب والفزع ، وحسبتها قد أصيبت بالجنون ، فأسرعت أرجو جوزيف أن يبادر الى طلب

الطبيب ، لأننى وجدتها تهذى بكلام غير مفهوم كهذيان المحموم .. وما كاد مستر كينيث يراها حتى قرر أنها مصابة بحمى ، وأن حالتها بالغة السوء الى حد خطير ، ثم فصدها وأمرنى بأن يقتصر غذاؤها على اللبن المخضوض وثريد الماء ، وأن نرقبها بأعين مفتوحة حتى لاتلقى بنفسها من النافذة أو من الدرج ، وما لبث أن بارحنا لكثرة عمله فى تلك الأنحاء التى لا تقل المسافة فيها بين كوخ وآخر عن ميلين أو ثلاثة ..

ولست أزعم أننى كنت لها ممرضة رقيقة حانية ، كذلك لم يكن جوزيف والسيد بخير منى فى هذا المضمار .. وعلى الرغم من ذلك ، ومن أن مريضتنا كانت متعبة عنيدة صلبة الرأى ، فانها اجتازت مرحلة الخطر بسلام . وقد زارتنا مسز لينتون العجوز مرارا عدة ، وكانت لاتفتأ توجهنا وترشدنا ، بل وتوجه الينـــا اللوم والتقريع اذا لمحت علينا تراخيـــا أو تقصيرا ، حتى اذا مابدأت كاثرين مرحلة النقاهة أصرت على أن تأخذها الى منزلها فى (ثرشكروس جرانج) لتستكمل هناك أسباب الشفاء والصحة .. وكم شكرنا للسيدة الكريمة أن خلصتنا من متاعب كاثى ومضايقاتها ، غير أن المسكينة دفعت ثمن شفقتها وحنانها غاليا ، فقد انتقلت عدوى الحمى اليها والى زوجها ، وما لبثا أن قضيا نحبهما وبين أحدهما والآخر أيام قلائل !

وعادت الينا سيدتنا الصغيرة أشد قحة وأحد طبعا وأعظم تعاليا وغطرسة مما كانت عليه قط من قبل ! .. ولم نـــكن قد سمعنا شيئا البتة عن هيثكليف منذ اختفائه ليلة العاصفة ، فكان من سوء طالعى ذات يوم ، وقد أثارتنى بفعالها حتى لم أعد أملك زمام نفسى ، ان ألقيت عليها وحدها تبعة اختفائه . وكانت تعرف هذه الحقيقة تماما ، ولكنها أنفت أن يواجههـــا أحد بها . ومنذ ذلك اليوم ، ولعدة شهور بعد ذلك ، تباعدت عنى ولم تعد تتصل بى على أى وجه الا لتصـــدر لى أمرا ،

شأنى فى ذلك شأن أية خادم عادية ! .. ووقع جوزيف كذلك تحت طائلة غضبها ، وكان يود أن يقول لها كل مايجول بخاطره ، وأن يلقى على مسامعها عظاته كأنها لاتزال بنتا صغيرة ، ولكنها كانت تعتبر نفسها امرأة ، وترى نفسها سيدتنا ، وتخال من حقها بعد مرضها الأخير أن تلقى منا كل احترام واجلال . وكان الطبيب قد قرر أن حالتها لاتحتمل المعارضة أو الاثارة ، وأنها يجب أن تنفذ مشيئتها ورغباتها بغير تردد ، فان اجتراء أحد على الوقوف أمامها واعتراضه لها كان فى عينيها لا يقل عن القتل ! .. وكانت تتحاشى أخاها ورفاقه ، بينما كان هو ، مدفوعا بما سمعه من الدكتور كينيث ، وبخشيته من العواقب الخطيرة التى قد تصيبها اذا ما استبد بها الغضب ، قد ترك لها الحبل على الغارب ، وأخذ يلبى كل رغباتها ، أيا كانت ، وينأى عن كل مايثير مزاجها النارى الجموح . بل لقد كان مفرطا فى التسامح معها ، ممعنا فى ارضاء نزواتها وأهوائها ، لاعن حب حقيقى أو عاطفة أخوية صادقة ، بل عن زهو وكبرياء ، اذ كان يذوب لهفة على أن تتشرف العائلة بمصاهرة آل لينتون .. وما دامت تدعه وشأنه فلها أن تدوس على أعناقنا كالعبيد ، فما يعنيه من ذلك شىء ! .. وكان أدجار لينتون ، كالكثيرين ممن سبقوه وممن سيأتون بعده ، مفتونا ذاهب اللب بمعبودته ، وحسب نفسه أسعد رجل حملته الأرض ، فى اليوم الذى قادها فيه الى هيكل كنيسة جيمرتون ، بعد وفاة والده بثلاثة أعوام

وأرغمت — على غير ماكنت أهوى وأحب — على مغادرة (مرتفعات ويذرنج) ومصاحبة كاثرين الى هنا ، منذ كان هيرتون الصغير قد بلغ الخامسة من عمره ، وبدأت أعلمه مبادىء الهجاء . وكان فراقنا أليما ، ولكن دموع كاثرين كانت أقوى من دموعنا . وعندما رفضت الذهاب **معها** ، ووجدت أن توسلاتها لم تجد نفعا معى ، ذهبت تشكو لزوجها وأخيها ،

فأغرانى الأول بالمزيد من الأجر ، على حين أمرنى الثانى بأن أحزم متاعى وأتهيأ لمغادرة البيت ، لانه لايريد نساء فى منزله بعد ان خلا من سيدته . وقال عن هيرتون انه سيكل أمر رعايته وتهذيبه الى القس . وهكذا لم يعد أمامى غير سبيل واحد للاختيار ، وهو أن أنفذ ماأمرت به ، وأرافقها . ولقد قلت للسيد قبل انصرافى انه انما أراد الخلاص من كل ذى حياء أو خلق قويم فى المنزل ، حتى يطلق لنزواته العنان ، ويمضى نحو الدمار من أسرع طريق .. ثم قبلت هيرتون وودعته ، ومنذ ذلك اليوم أضحى بالنسبة لى غريبا بكل معنى الكلمة . وقد يبدو ذلك أمرا عجيبا ، ولكنى لا أشك البتة فى أنه قد نسى كل شىء عن « ايلين دين » ، تلك التى كان لها ـ كما كانت له ـ كل شىء فى هذا العالم ! »

. . . . . .

وعند هذا القدر من الحديث حانت من مدبرة المنزل نظرة نحو الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة ، فذهلت اذ وجدتها قد بلغت الواحدة والنصف ، ونهضت من مجلسها دون أن ترضى بالبقاء ثانية واحدة بعد ذلك . والحق أننى كنت أنا نفسى ميالا الى تأجيل متابعة القصة الى وقت آخر .. ولبثت بعد أن تركت الحجرة جالسا أفكر فيما سمعت ، ساعة أو اثنتين ، استجمعت بعدهما شجاعتى للذهاب الى الفراش ، رغم ذلك الخدر الموجع الذى كان يسرى فى رأسى وأطرافى ..

الفصل العاشر

لعمرى كانت الأيام التالية خير تمهيد لمن ينشد حياة النسك والوحدة والعزلة ! .. أربعة أسابيع قضيتها بين الآلام ، والسعال ، والمرض . وبين هذه الرياح الباردة القارصة ، وهذه السماء المقبضة الموحشة ، وتلك الطرقات

التى لايمكن لأحد عبورها ، ثم أطباء الريف الكسالى ! .. حتى سئمت هذا الحرمان المطلق من رؤية وجوه البشر ، ولكن الأسوأ من كل هذا وذاك انما كان ذلك الانذار المروع الذى وجهه لى كينيث بألا أتوقع مغادرة الدار قبل حلول الربيع !

وكان مستر هيثكليف قد شرفنى بزيارته ، بعد أن كان قد أرسل لى منذ سبعة أيام زوجا من بط المستنقعات ، وكنا فى آخر موسم صيده . ياله من وغد ! .. ألا يعلم أنه ليس بريئا من مرضى هذا ؟ .. لكم كنت أود أن أجابهه بذلك صراحة ، ولكن وا أسفاه ! .. كيف كان يسعنى ان أسىء الى رجل كان من الكرم بحيث جلس بجوار فراشى ساعه كاملة تحدث فيها عن كل شىء الا عن الحبوب والجرعات والنفاطات ودود العلق !.. ولكنى الآن أحسن حالا ، وأجتاز فترة تحسنت فيها كثيرا عن ذى قبل . واذا كان الضعف قد بلغ منى حدا يحول بينى وبين القراءة ، الا اننى أجد نفسى قادرا على الاستمتاع بشىء مسل يذهب عنى هذه الوحشة التى أعانيها .. فلماذا لا أدعو مسز دين لتتم حكايتها ؟ .. اننى مازلت أذكر حوادثها الهامة الى القدر الذى قصته على منها . نعم ، أذكر أن البطل قد اختفى عن العيان ، فلم يسمع عنه أحد طيلة أعوام ثلاثة .. وأن البطلة قد تزوجت .. سوف أدق الجرس لأدعوها ، وستسر اذ ترانى قادرا على الاستمتاع بحديث طلى .

وأتت مسز دين ، فبدأت تقول :

ـ مازال باقيا على موعد الدواء عشرون دقيقة ياسيدى ..

ـ بعدا للدواء وسحقا ! .. انما أحب أن ..

ـ ولكن الطبيب يقول انه يجب عليك أن تتناول هذه المساحيق ..

ـ من كل قلبى يامسز دين .. ولكن لاتقاطعينى !.. تعالى واجلسى هنا ، وابعدى أصابعك عن هذه الشرذمة من القنانى

والزجاجات ، واخرجى من جيبك معدات الحياكة . أحسنت! .. والآن امضى قدما فى رواية قصة مستر هيثكليف من حيث وقفت ، الى يومنا هذا . أترينه قد أتم دراسته فى أوروبا وعاد سيدا مهذبا ؟ .. أم نال درجة من الجامعة ؟ .. أم فر الى أمريكا واكتسب ثروته من سفك الدماء فى بلده الأصلى ؟ .. أم لعله نالها من قطع الطريق بجبال انجلترا ؟

ــ ربما كان قد مارس شيئا من ذلك كله يامستر لوكوود، ولكنى لا أستطيع الجزم بأيها كان مصدر ثرائه .. وقد قلت قبل ذلك أننى لاأدرى كيف جمع ثروته ، كذلك لست أدرى شيئا عن الوسائل التى ساعدت بها نقوده فى ترقية مداركه من ذلك الجهل الوحشى الذى كان مترديا فيه . ومهما يكن من أمر فانى أرجو أن تأذن لى بمتابعة القصة على طريقتى ، اذا رأيت انها سوف تسليك ولا تثقل عليك .. وبهذه المناسبة، هل تشعر اليوم بأنك أحسن حالا ؟

ــ كثيرا ..

ــ هذه أنباء سارة ..

واتخذت مسز دين مجلسها أمامى، ثم مضت تتابع قصتها :

« صحبت مسز كاثرين الى (ثرشكروس جرانج) ، وكم شعرت بارتياح ورضى لما أصبت به من خيبة أمل ، اذ رأيتها تسلك مسلكا رائعا ، خيرا بكثير مما كنت أتوقع .. كانت تبدو مولعة أشد الولع بمستر لينتون ، كما كانت تحوط شقيقته بكل ضروب الود والانعطاف . وكانا كلاهما يعنيان أشد العناية بتوفير أسباب الراحة لها ورعايتها ، والبعد عن كل مايعكر صفوها . لم تكن الشوكة هى التى تنحنى لتفسح الطريق أمام زهور اللبلاب المتسلقة ، وانما كانت الزهور هى التى تحتضن الشوكة وتعانقها وتدور من حولها ! .. ولم تكن تنشأ بينها وبينهما مواقف فيها شد وارخاء ، أو تسلط واذعان ، وانما كانت تقف مكانها منتصبة القامة ، وكانا هما

اللذان يخضعان ويلينان .. ومن ذا الذى يمكن أن يكون حاد الطبع سيىء الخلق متى كان لايلقى معارضة أو استخفافا ؟..
ولقد لاحظت أن مستر لينتون كان ينطوى على خوف عميق من تكدير صفوها أو تعكير مزاجها .. وكان يخفى عنها شعوره هذا ، ولكنه ما ان يرانى أرد عليها فى حدة ، أو يرى أحدا من الخدم الآخرين يظهر امتعاضا من صرامة أوامرها ، حتى يعلو وجهه تقطيب الاستياء ، وهو شىء ما كان يحدث له لو أن الأمر كان خاصا به . وكثيرا ما خاطبنى ، عابسا متجهما ، عن حدة لسانى وسلاطتى معها ، قائلا ان طعنات السكين ما كانت لتسبب له ألما أشد مما يقاسيه عندما يرى زوجته متكدرة أو مغيظة .. واذ كنت لا أريد أن أسىء الى سيد كريم مثله ، فقد رضت نفسى على أن أكون أكثر تسامحا .. وهكذا ظللنا أكثر من ستة شهور والبارود ملقى مكانه كأنه رمل لا خطر فيه ولا ضرر منه ، اذ لم تكن ثمة نار تقترب منه لتشعله وتفجره . وكانت تعترى كاثرين ، بين آن وآخر ، فترات من الكآبة والصمت ، فكان زوجها يحترمها فى عطف صامت ، ويعزو ذلك الى التغيير الذى أحدثه فى كيانها ذلك المرض الخطير الذى أصابها ، اذ لم تكن قط قبله عرضة لمثل هذا الانقباض والكآبة .. وكان انبثاق الفجر واشراق الشمس من جديد يقابلهما اشراق واستجابة من ناحيته .. واحسب أن بوسعى أن أؤكد انهما كانا يتقاسمان سعادة عميقة متزايدة ..

ثم انتهى كل شىء ! .. حسنا ! .. لابد لنا من أن تظهر حقيقتنا فى النهاية .. كما أن البسطاء الكرام لا يقلون أنانية وأثرة عن المسيطرين المتسلطين . وقد انتهى كل شىء عندما سببت الأحداث لكل منهما أن يشعر بأن مصلحة أحدهما ليست صاحبة المقام الأول فى تفكير الآخر وخواطره ! ..
ففى مساء يوم عليل الهواء من شهر سبتمبر ، كنت قادمة من البستان أحمل سلة ثقيلة ملأى بثمار التفاح التى جنيتها .

وكان الليل قد أرخى سدوله ، والقمر يطل من فوق سور الفناء فيرسل أشباحا غامضة تتراقص فى جنبات المبنى المتعددة . ووضعت حملى على درجات السلم بجانب باب المطبخ الخلفى ، ثم تمهلت لألتقط أنفاسى اللاهثة ، واستنشق الهواء العليل الرقراق ، وقد استقبلت القمر بوجهى وأدرت ظهرى ناحية المطبخ ، واذا بى أسمع صوتا يقول من خلفى :

ـ أهذه أنت يا نللى ؟

كان صوتا عميقا ، فى نبراته لكنة غريبة ، ومع ذلك كان فى الطريقة التى نطق بها باسمى شىء جعله يبدو مألوفا لى .. فاستدرت مجفلة لأرى المتكلم ، وقد غمرنى الخوف ، إذ كانت الأبواب مغلقة ، ولم أكن قد لمحت أحدا عند اقترابى من الدار .. واذا بشىء يتحرك فى الظلام عند ركن الباب ، فاستطعت أن أتبين رجلا طويل القامة يرتدى ثيابا قاتمة ، أسمر الوجه أسود الشعر . واقترب المجهول فاستند الى الجدار بجوار الباب ومد يده يتحسس الرتاج بأصابعه كأنما يهم بفتح الباب بنفسه ، فقلت فى نفسى : « ترى من يكون ؟ مستر أيرنشو ؟ ولكن لا .. فهذا الصوت لا يشبه صوته . »

واستطرد الغريب يقول ، بينما كنت لا أزال أحملق فيه مدهوشة :

ـ لقد انتظرت هنا ساعة كاملة ، كان السكون يرين فوق المكان خلالها ، أشبه بصمت القبور ، فلم أجرؤ على الدخول . ولكن ألم تعرفينى ؟ .. انظرى . اننى لست غريبا عنك !

ومال الى الأمام فسقط شعاع فوق وجهه ، ورأيت وجنتين غائرتين تغطى معظمهما سوالف من الشعر الحالك السواد ، كما رأيت حاجبين كثيفين ، وعينين عميقتين يشع منهما بريق عجيب . وعندئذ ذكرت العينين ، فلم أدر هل صاحبهما شبح من الأشباح يتراءى لى ، أم انسان من أهل الدنيا ، ورفعت يدى فى دهشة ، هاتفة :

ــ ماذا ؟ .. هل عدت ثانية ؟ .. أهذا أنت حقا ؟

فأجابنى وهو يرفع بصره منى الى النوافذ التى كانت تعكس آلافا من أشعة القمر المتكسرة دون أن يبدو ضوء بداخلها :

ــ نعم .. هيثكليف ! .. ولكن أما من أحد منهم هنا ؟ .. أين هى ؟ .. انك لا تبدين مسرورة لرؤيتى يا نللى ! .. ولكن لا حاجة بك لهذا الاضطراب .. أهى هنا ؟ تكلمى .. فانى أريد أن أقول كلمة واحدة لها .. لسيدتك .. اذهبى واخبريها أن شخصا من (جيمرتون) يرغب فى أن يراها !

فهتفت قائلة : «وكيف تتلقى النبأ ؟ .. وماذا تراها فاعلة ؟ .. ان هذه المفاجأة تحيرنى وتشل حواسى ، فسوف يطير صوابها . وأنت هيثكليف بعينك ، ولكنك تغيرت كثيرا . كلا ، لست أفهم ما حل بك ، فهل كنت فى الجندية ؟ »

فقاطعنى فى صبر نافد ، قائلا :

ــ اذهبى وبلغى رسالتى ، فانى على أحر من الجمر حتى تفعلى !

ثم مد يده ورفع المزلاج ، فدخلت الى المنزل .. ولكنى ما كدت أشرف على حجرة الجلوس ، حيث كان يجلس مستر ومسز لينتون ، حتى لم أجد فى نفسى ميلا الى التقدم خطوة أخرى . وأخيرا عزمت على أن اتعلل بسؤالهما عما اذا كانا يرغبان فى اضاءة الشموع ، وعندئذ فتحت الباب ..

كانا وقتئذ يجلسان معا الى جوار نافذة عريضة مفتوحة على مصراعيها ، وقد انكشف أمامهما ــ وراء أشجار الحديقة الباسقة وخضرة البستان المترامى الأطراف ــ وادى جيمرتون وقد جلله خط طويل من الضباب يتلوى معه حتى يوشك أن يصل الى قمته (ولعلك لاحظت انك لا تكاد تجتاز الكنيسة الصغيرة حتى يكون الماء الذى ينشع من المستنقعات قد اتصل بنهيرات صغيرة تجرى مع انحناءات الاخاديد المتعددة) .. وكانت (مرتفعات ويذرنج) تعلو فوق ذلك الضباب الفضى ،

ولكن منزلنا القديم لم يكن ظاهرا للعيان ، اذ أنه ينحدر نحو الجانب الآخر من الجبل . وكانت الحجرة ، والجالسان فيها ، والمنظر الساحر الذى يتأملانه ، تسبح جميعا فى سلام عجيب ، حتى لقد أحجمت ـ نافرة ـ عن أداء مهمتى ، وأوشكت أن أغادر المكان دون أن ابلغ رسالتى ، مكتفية بسؤالى عن اضاءة الشموع ، عندما دفعنى النزق الى أن أعود ، قائلة :

ـ هنا شخص من جيمرتون يريد أن يتحدث اليك يا سيدتى ..

فقالت مسز لينتون : « ما الذى يريده ؟ »

فأجبت : « اننى لم أسأله .. »

ـ حسنا . أسدلى الستائر يا نللى ، واحضرى لنا الشاى .. وسوف أعود فى الحال .

وغادرت الحجرة ، فسألنى مستر أدجار فى غير اكتراث عمن يكون هذا الشخص ، فقلت : « انه شخص لا تتوقع سيدتى رؤيته .. فهو ذلك المدعو هيثكليف .. ولعلك تذكره يا سيدى فقد كان يعيش فى منزل مستر ايرنشو .. »

فصاح فى حدة : « ماذا ؟ .. ذلك الغلام الغجرى الذى كان يعمل فى الحقل ؟ .. ولماذا لم تقولى ذلك لكاثرين ؟ »

ـ مهلا يا سيدى ، فما يجدر بك أن تنعته بهذه الصفات ، والا أضناها الأسى لسماعك .. فقدكاد قلبها يتحطم عندما رحل فجأة ، وأحسب أن عودته ستكون عيدا بالنسبة لها ..

فسار مستر لينتون الى نافذة فى الناحية الأخرى من الحجرة تشرف على الفناء ، ففتحها وانحنى يطل منها .. واعتقد أنه رآهما تحته ، اذ أسرع يهتف قائلا : « لا تقفى هنا يا حبيبتى ، بل أدخلى الشخص اذا كنت تعرفينه ! »

وما هى الا لحظة حتى سمعت صرير المزلاج ، ورأيت كاثرين ترقى الدرج فى عجلة شديدة ، مبهورة الأنفاس ، وقد استبد

بها الانفعال بحيث كاد يخفى فرحتها .. ولست أعدو الحقيقة اذا قلت انك لو رأيت وجهها وقتئذ لحسبت أن كارثة رهيبة قد حلت بها !

وأسرعت تطوق عنق زوجها وهى تقول لاهثة : « أوه يا أدجار . يا حبيبى أدجار .. لقد عاد هيثكليف ! .. لقد عاد حقا ! »

وراحت فى غمرة انفعالها تشدد الضغط حول عنق زوجها الذى صاح عابسا : « حسنا ، حسنا . ولكن لا تخنقينى لهذا السبب ! .. انه لم يبد لى قط كنزا ثمينا الى هذا القدر ، ولا حاجة بك الى كل هذا الفرح الجنونى ! »

فخففت قليلا من غزارة فرحتها وقالت : « أعلم انك ما أحببته قط ، ولكن يجب الآن أن تكونا صديقين ، من أجل خاطرى . هل أدعوه الى الصعود ؟ »

ـ هنا ؟ .. فى حجرة الجلوس ؟

ـ وأين اذن ؟

فلاح عليه الضيق والحرج ، وغمغم قائلا ان المطبخ هو أليق مكان به .. ولكن مسز لينتون رمقته بنظرة غريبة ، تحمل من الغضب مثلما تحمل من السخرية بتزمته، وما لبثت أن استطردت تقول :

ـ كلا .. فلست أستطيع الجلوس فى المطبخ ، ولكن أعدى مائدتين هنا يا نللى ، احداهما لسيدك ومس ايزابيلا ، اذ هما من طبقة السراة والخاصة ، والأخرى لى ولهيثكليف، فنحن من الطبقة الدنيا ! .. أيرضيك هذا يا عزيزى ؟ .. أم تفضل أن نوقد مدفأة أخرى لنا ؟ اذا شئت ذلك فأرجو أن تصدر أمرك لتنفيذه ! .. أما أنا فسوف أهرع لأحتفى بضيفى .. آه ! .. كم أخشى ان يكون سرورى من الغزارة بحيث لا يكون حقيقة واقعة !

وهمت بأن تندفع خارجة من الحجرة ، ولكن ادجار امسك

بها ، وقال لى : « اذهبى أنت فاطلبى اليه أن يصعد . وأنت يا كاثرين ، حاولى أن تكونى مسرورة دون ان يبلغ بك الأمر الى حد السخف .. ولا حاجة بك لأن يشهد خدم الدار منظر حفاوتك بخادم هارب كأنه شقيق لك ! »

فنزلت ووجدت هيثكليف ينتظر عند الباب ، متوقعا دعوته الى الدخول .. وتبعنى دون أن يضيع وقته فى المزيد من الكلام ، حتى قدته الى حضرة السيد والسيدة ، التى كان تورد وجنتيها ينم عما سمعته من قوارص الكلم .. ولكن وجنتى السيدة توهجتا تحت تأثير شعور آخر عندما ظهر صديقها عند الباب، ووثبت من مكانها متقدمة نحوه ، فتناولت كلتا يديه ، وقادته الى حيث كان يقف زوجها ، ثم أمسكت بأصابع مستر لينتون المترددة الناكصة ، ودفعتها الى يد هيثكليف . وقد ذهلت عندما سقط ضوء الشموع ووهج النار على وجه هيثكليف وقوامه فكشف عن مدى التغير الذى حل به . كان قد أصبح رجلا فارع الطول رياضيا ممشوق القوام ، بحيث كان سيدى يبدو بجانبه هزيلا أشبه بالغلمان! .. وكان اعتدال قامته يوحى بأنه كان فى الجيش . أما أساريره فقد اكتسبت طابعا من الصرامة والجد جعله يبدو أكبر سنا من مستر لينتون ، ولكن محياه كان ينم عن ذكاء وفطنة ، وقد خلا من سمة المهانة التى كانت بادية عليه فيما مضى .. وكانت تكمن فى حاجبيه الكثيفين المنقبضين ، وفى عينيه المليئتين بنيران متقدة ، ضراوة نصف متحضرة ، كان يجهد فى قمعها وكبح جماحها . وكان مسلكه مهذبا فى وقار ، خلوا من أية خشونة أو جلافة ، وان كان من الصرامة بحيث لا يعد لطيف الشمائل رقيق الحاشية ..

وكانت دهشة سيدى تضارع دهشتى ان لم تزد عليها ، فلبث برهة حائرا لا يدرى كيف يوجه الخطاب الى « عامل الحقل الأجير » كما كان يدعوه ! .. أما هيثكليف فقد أرخى

ذراعه ، ووقف ينظر اليه فى برود ، حتى نطق السيد أخيرا فقال :

ـ أجلس يا سيدى ، فان مسز لينتون ـ وقد ذكرت الأيام الماضية ـ قدرغبت الى أنأستقبلك استقبالا وديا .. ولا شك أن من بواعث سرورى أن أقوم بكل ما يجلب اليهما السرور والبهجة ..

ـ كذلك أنا ، خصوصا اذا كان لى نصيب من أسباب هذا السرور ، ولهذا سوف أبقى معكما ساعة أو اثنتين عن طيب خاطر ..

واتخذ له مجلسا فى مواجهة كاثرين التى ظلت نظراتها معلقة به كأنما تخشى أن يتلاشى من أمامها ان هى حولتها عنه ! .. أما هو فلم يكن يرفع أنظاره اليها الا لماما ، قانعا بالنظرة العجلى يصوبها نحوها بين آن وآخر ، فترتد فى كل مرة فى جرأة متزايدة ، وهىتومض بذلك السرور السافر الذى ينهله من عينيها .. وكانا من الاستغراق فى فرحتهما المتبادلة بحيث لم يحسا حرجا أو ارتباكا . ولكن ذلك لم يكن شأن مستر ادجار ، فقد ازداد وجهه امتقاعا من فرط غضبه حتى بلغ هذا الشعور ذروته عندما نهضت زوجته ومشت الى حيث كان هيثكليف جالسا عند الطرف الآخر للسجادة ، فأمسكت بيديه من جديد وراحت تضحك بغير وعى كشخص ذهب السرور بلبه ! .. وأخيرا هتفت تقول :

ـ سوف يبدو لى ذلك حلما من الأحلام فى الغد ! .. لن يكون فى استطاعتى أن أصدق أننى رأيتك ، ولمستك بيدى ، وخاطبتك مرة اخرى .. ومع ذلك فما اقساك ياهيثكليف !.. انك لاتستحق هذا الترحيب ، بعد أن ظللت غائبا ثلاثسنوات لزمت فيها الصمت ولم تفكر فى قط !

فغمغم يقول :

ـ لقد فكرت فيك أكثر قليلا مما فكرت أنت فى ياكاثى ..

وقد سمعت بزواجك منذ قريب ، وبينما كنت واقفا أنتظر فى الفناء ، دبرت فى رأسى هذه الخطة : أن أتزود من وجهك بنظرة واحدة ، قد تكون نظرة دهشة ، وقد تكون نظرة سرور مصطنع ، وأمضى بعد ذلك لأسوى حسابى مع هندلى ، ثم أقضى على نفسى فأوفر على الحكومة مشقة اعدامى ! .. بيد أن ترحيبك بى قد طرد هذه الأفكار من رأسى ، ولكن حذار من أن تلاقينى على صورة أخرى فى المرة القادمة ! .. كلا ، انك لن تدفعينى الى الفرار ثانية . أحقا كنت حزينة من أجلى ياكاثى ؟ .. لقد كنت على حق فيما فعلت ، بل اضطررت اليه اضطرارا . ولقد عانيت الكثير من قسوة الحياة ومرارتها منذ أن سمعت صوتك آخر مرة . ولكن يجب أن تصفحى عنى ، فما ناضلت وكافحت الا من أجلك !

فقاطعهما لينتون وهو يجاهد فى الاحتفاظ بنبراته العادية ، وبقدر من الأدب ، قائلا :

— تعالى الى المائدة ياكاثرين ، الا اذا كنت تنوين تناول الشاى باردا . تعالى من فضلك ، فان أمام مستر هيثكليف شقة طويلة يمشيها أينما كان يزمع المبيت الليلة .. ثم اننى أحس بالظمأ ..

فاتخذت مجلسها أمام آنية الشاى ، بينما أقبلت مس ايزابيلا تلبية للجرس الذى يدعو الى الطعام أو الشاى . واذ انتهت مهمتى بتقريب مقاعدهم الى المائدة ، غادرت الحجرة وانصرفت لشأنى . ولكن تناول الشاى لم يستغرق عشر دقائق ، فان كاثرين لم تملأ قدحها قط ، اذ كانت فى حالة لاتستطيع معها أن تبتلع طعاما أو شرابا .. أما مستر ادجار فقد انسكب منه الشاى فى الطبق ، ولم يأخذ من قدحه أكثر من جرعة أو اثنتين !

ولم يطل الضيف مقامه فى تلك الأمسية أكثر من ساعة ، وفيما كنت أودعه سألته ان كان ذاهبا الى (جيمرتون) ، فقال:

ـ كلا .. بل الى (مرتفعات ويذرنج) ، فقد دعانى مستر أيرنشو للمبيت عندما زرته هذا الصباح !

وكان لهذه العبارة طنين فى رأسى ، ورحت أفكر فيها بعد ذهابه ، بين مصدقة ومكذبة .. أهو يزور مستر ايرنشو ؟.. ومستر ايرنشو يدعوه للمبيت ؟ .. أتراه قد تعلم النفاق وأتى الى هذه المنطقة ليرتكب شروره مستترا بمسوح الرهبان ؟ .. أخذت أمعن التفكير فى الأمر ، فأحسست فى أعماق قلبى بهاجس يحدثنى انه كان من الخير أن يظل بعيدا عنا ، ولا يعود الينا ..

وزهاء منتصف الليل ، أفقت مذعورة من نوم البداءة العميق ، فاذا مسز لينتون تجلس بجانب فراشى وهى تجذبنى من شعرى لتوقظنى .. فما ان فتحت عينى حتى قالت فيما يشبه الاعتذار :

ـ لم أذق للنوم أو الراحة طعما ياناللى .. وشد ما أحس بالحاجة الى كائن حى يسهر معى ويشاركنى سعادتى !.. ولكن ادجار شديد التجهم والعبوس لأننى فرحة بشىء لايهمه ولا يبالى به .. فهو يرفض أن يفتح فمه الا ليبدى تبرمه ، وليسمعنى كلاما سخيفا .. وقد أكد لى أننى قاسية أنانية اذ ازعجه بالحديث فى وقت يحس فيه بالتوعك والنعاس .. فهو دائما يدعى التوعك عند أقل معارضة .. وقد تفوهت ببضع عبارات فى مدح هيثكليف ، فأخذ فى الصياح ، اما من الصداع ، كما يزعم ، أو من ألم الغيرة ، وما لبث أن بدأ فى البكاء ، فنهضت من الفراش وتركته ..

ـ وأية جدوى من امتداحك هيثكليف أمامه ؟ .. لقد كانا يتبادلان الكراهية وهما فتيان يافعان .. ولعل هيثكليف كان خليقا بأن يثور مثله لو سمعك تطرينه أمامه .. انها طبيعة البشر ياسيدتى ، فدعى مستر لينتون وشأنه ، ولا تشركيه

فى أحاسيسك ، الا اذا رغبت فى أن ينشب بينهما عراك سافر ونزاع قتال ..

فمضت تتابع القول :

ـ ولكن ألا ترين ذلك دليلا على ضعف شديد ؟ .. اننى لا أضمر لأحد غيرة أو حسدا .. فما تأذيت قط من شعر ايزابيلا الذهبى الوضاء ، ولا من بشرتها الناصعة البياض ، ولا من أناقتها الدقيقة المترفة ، ولا من ذلك الحب الذى تظهره العائلة كلها نحوها .. حتى أنت ياناللى ، فانك ماان ينشب نزاع بيننا حتى تقفى فى صفها ضدى ، فاستسلم كأية أم بلهاء .. اننى أدعوها حبيبتى ، وأتملقها حتى ترضى ويصفو مزاجها .. وكم يسر أخوها عندما يرانا متصافيتين يجمع الود بيننا .. وذلك يسرنى بالمثل .. ولكنهما صنوان ياناللى ! .. فقد ربيا على التدليل ، ويخالان أن العالم انما خلق لمرضاتهما وراحتهما .. وعلى الرغم من اننى أعمل دائما على ملاطفتهما ، الا اننى اعتقد ان بعض العقاب قد يصلح من أمرهما !

ـ انك مخطئة فى ذلك يامسز لينتون ! .. فهما اللذان يلاطفانك ويدللانك ، ولست أجهل ماذا كان خليقا بأن يحدث اذا لم يفعلا ذلك .. ان فى وسعك أن تتسامحى فى شأن أهوائهما العابرة ، طالما كان شغلهما الشاغل أن يبادرا الى تلبية كل رغباتك وطلباتك !.. ومع ذلك فقد ينشب بينكما الشجار أخيرا ، بصدد أمر ذى أهمية متساوية لكما ، وعندئذ سوف ترين أن هذين اللذين تظنينهما ضعيفين قد يغدوان اشد منك عنادا وأصلب عودا ومراسا ..

فتضاحكت وهى تجيب : « وعندئذ سوف يحارب بعضنا بعضا حتى الموت ياناللى ، أليس كذلك ؟ .. كلا .. صدقينى أننى شديدة الأيمان بحب لينتون لى ، بحيث أننى لو هممت بقتله لما فكر فى الثأر أو الانتقام .. »

فنصحتها بأن تزداد له تقديرا من أجل حبه لها ، فأجابت :
ـ هذا ماأفعله يانللى .. ولكنه من جانبه ليس فى حاجة الى أن يعمد الى الأنين والنواح من أقل شىء وأتفهه .. أليس ذلك صغارا منه ؟ . لقد كان الأخلق به ، بدلا من اراقة دموعه لأننى قلت ان هيثكليف أصبح الآن جديرا بالتقدير والاحترام ، وأن أى سيد فى الاقليم سوف يشرفه أن يتخذ منه صديقا ، كان الأخلق به أن يبادرنى هو بهذا القول ، وأن يبدى سروره وانعطافه نحوه .. ويجب أن يعتاد رؤيته ، بل خليق به أن يميل اليه ! .. فلو قدرنا الأسباب التى تدفع هيثكليف الى كراهيته لرأيناه قد سلك مسلكا ممتازا معه ..

فسألتها : « ما الذى ترينه فى ذهابه الى « مرتفعات ويذرنج » ؟ .. الظاهر أنه قد تغير تماما من شتى النواحى ، وأصبح تقيا يمد يد الصداقة الى أعدائه فى كل مكان ! »
ـ لقد شرح لى الأمر ، اذ عجبت لمسلكه مثلما عجبت .. قال أنه ذهب الى هناك ليستعلم منك عن أخبارى ، ظنا منه أنك مازلت تقيمين هناك .. وقد أخبر جوزيف هندلى بمقدمه ، فخرج أخى وراح يسأله عما كان يفعله كل هذا الوقت ، وكيف كان يعيش ، ثم دعاه أخيرا الى الدخول .. وكان بعض الأشخاص جالسين حول احدى الموائد يلعبون الورق ، فانضم اليهم هيثكليف ، وربح بعض النقود التى خسرها أخى .. فما كاد يراه عامر الجيب بالمال حتى رجاه فى أن يعود فى المساء ثانية ، فلم يملك الا أن يلبى هذه الدعوة ! .. ان هندلى من الغفلة بحيث لايعنى باختيار أصدقائه فى حكمة وتعقل .. كما أنه لايشغل فكره بالتفكير فى الأسباب التى قد تدفعه الى التوجس من شخص سبق أن جرعه كأس الهوان مترعة .. ولكن هيثكليف يؤكد أن السبب الرئيسى لرغبته فى اعادة العلاقات مع غريمه السابق انما هو رغبته فى أن يقيم على قيد خطوات من « الجرانج » ، فضلا عن تعلقه بالدار التى

نشأنا فيها معا ، وأمله فى أن يتاح لى المزيد من الفرص لرؤيته أكثر مما لو اتخذ من « جيمرتون » مقاما .. وفى نيته أن يعرض على أخى أجرا عاليا نظير السماح له بالاقامة فى «المرتفعات » ، ولا ريب أن جشع أخى وحبه للمال سوف يدفعانه الى قبول هذا العرض .. لقد كان شرها دائما ، ولو انه يطوح باحدى يديه مايجنيه باليد الأخرى.

فقلت : « ما أحلاه مكانا يختاره شاب لاقامته !.. ولكن ألا يخالجك الخوف من العواقب يامسز لينتون ؟ »

ـ لست أخاف على صديقى شيئا ، فان له من حصافة الرأى مايقيه الأخطار .. كما أن خوفى على هندلى قليل ، فان انحطاطه الأدبى لم يبق موضعا لزيادة المستزيد ، ولن يتهدده خطر بدنى لأننى سأقف حائلة دونه .. آه يانللى !.. ان ماحدث الليلة قد قرب مابينى وبين الله والانسانية جميعا.. فقد كنت فى ثورة عارمة ضد العناية الالهية .. وكم عانيت من ضروب الشقاء والبؤس المرير مالو عرف هذا المخلوق مبلغ مرارته لما فكر فى تعكير صفوى بعد ذلك بنزقه ومشاكساته الفارغة .. وقد احتملت كل هذا الشقاء وحدى بدافع من الشفقة عليه ، فلو اننى أفصحت عن ألوان العذاب التى هدت كيانى لعرف كيف يتوق الى تلطيفها بنفس الحرارة واللهفة التى كنت أتوق بها اليه .. ومهما يكن من أمر فقد انقضى ذلك الآن ، ولن أعمد الى الانتقام من حماقته .. وفى وسعى أن أحتمل كل شىء بعد ذلك ، فلو صفعنى أقل مخلوق على قيد الحياة على خدى ، لما اكتفيت بأن أدير له الخد الآخر ، بل لسألته الصفح عن ا ثارتى اياه واستفزازى له حتى صفعنى !! .. وبرهانا على ذلك سوف أذهب الى ادجار من فورى فأصالحه وأسترضيه .. طابت ليلتك يانللى .. لقد انقلبت ملاكا رحيما !

وفارقتنى منشرحة الصدر لهذا الايمان الجديد الذى سكن

نفسها ، فظهرت ثمرة نجاحها فى تنفيذ ما اعتزمته على محيا مستر لينتون فى الصباح ! .. فلم تفارقه جهامته وعبوسه فحسب ، (ولو أن حالته النفسية المرحة كانت تبدو كأنها مازالت متأثرة بفرحة كاثرين الغزيرة) ، بل لقد ذهب الى حد عدم الاعتراض على اصطحابها ايزابيلا معها الى « مرتفعات ويذرنج » بعد الظهر .. ولقد جازته على ذلك بفيض من الرقة والحب ، جعل المنزل كله يبدو كجنة الفردوس عدة أيام متتالية ، وقد نعم السيد والخدم بهذا الاشراق الدائم الجميل ..

أما هيثكليف - أو مستر هيثكليف كما ينبغى أن أقول فى المستقبل - فقد اخذ يستخدم حريته فى زيارة «ثرشكروس جرانج » ، فى حذر وحرص بادىء الأمر .. كان يبدو انه يقدر الى اى مدى يحتمل سيد الدار تطفله .. كما رأت كاثرين من الحكمة أن تخفف من مظاهر سرورها بلقائه .. وهكذا أنشأ لنفسه حقا فى أن تكون زياراته متوقعة دائما .. وكان لايزال على جانب كبير من ذلك التحفظ الذى كان يتميز به وهو بعد غلام يافع ، وقد أفاده ذلك فى كبح جماح مشاعره وأحاسيسه حتى لاتندفع فى مظاهر قد تثير المتاعب .. وهكذا هجع قلق السيد وتوجسه حتى بدأت الأحداث التالية توجه هذا القلق الى وجهة أخرى بعض الوقت ..

كان مصدر متاعبه الجديدة ينبثق من الكارثة الداهمة غير المتوقعة التى حاقت بايزابيلا لينتون اذ انتابها ميل جارف مفاجىء نحو ذلك الضيف الثقيل .. وكانت فى ذلك الحين شابة جميلة ساحرة فى الثامنة عشرة من عمرها ، يتميز خلقها ببساطة الطفولة ، وان كانت مع ذلك حادة الذكاء ، مرهفة الحس ، سريعة الغضب اذا استثيرت .. ولقد ارتاع أخوها - الذى كان شديد الحب لها - وفزع لهذا الولع الجنونى الخيالى .. فبغض النظر عن المهانة التى تحيق بهم

من مصاهرة رجل لااسم له ولا عائلة ، وعن احتمال انتقال أملاك الأسرة - اذا لم ينجب وريثا ذكرا - الى يد مثل هذا الرجل ، فقد كان من الحصافة بحيث يدرك حقيقة هيثكليف، ويعلم أنه رغم التغيير الذى حل بمظهره ، فان عقليته لم تتغير ولن تكون قابلة للتغيير .. وكان يخاف هذه العقلية ويتوجس منها شرا ويثور لها .. وهكذا فزع وتشاءم من فكرة زواجه من ايزابيلا ، ولعل فزعه ونفوره كانا يزدادان شدة لو أنه أدرك أن غرام ايزابيلا كان من ناحيتها وحدها ، دون استثارة أو اغراء ، وانها وهبته لمن لا يبادلها عاطفتها أو يستجيب لأحاسيسها .. فانه منذ ان اكتشف هذا السر الرهيب ، ألقى باللوم كله على عاتق هيثكليف واعتقد انه رسم هذه الخطة ودبرها تدبيرا ..

وكنا جميعا قد لاحظنا وقتا ما أن مس لينتون قد غدت ضيقة الصدر ، ينهشها القلق والاضطراب ، لسبب لا نعرفه، وأنها أصبحت كثيرة التبرم والعبوس ، لاتفتأ تتصيد الفرص للاحتكاك بكاثرين واثارتها كأنما تريد أن تستفزها حتى تخرجها عن طورها وعن صبرها المحدود .. وقد تلمسنا لها العذر - الى حد ما - وتعللنا بسوء صحتها ، اذ كانت تزداد نحولا ويخبو ضياؤها أمام أعيننا ، الى أن حدث ذات يوم ، كانت فيه شديدة المشاكسة الى حد غريب ، أن رفضت تناول افطارها ، وأخذت تشكو من أن الخدم لا يطيعون أوامرها ، وأن السيدة لا تريد ان تجعل منها شيئا مذكورا فى المنزل ، وأن ادجار يهمل شأنها ، وانها أصيبت ببرد من ترك الأبواب مفتوحة ، وأننا ندع نيران المدفأة فى حجرة الجلوس تخبو متعمدين اغاظتها ، الى غير ذلك من مئات التهم الواهية التافهة .. فأصرت مسز لينتون على أن تجعلها تأوى الى فراشها ، وراحت تعنفها فى رفق ولين ، ثم هددتها بأن ترسل في طلب الطبيب .. فما كادت تسمع اسم كينيث حتى ثارت،

وصرحت بأن صحتها على خير حال ، وأن سبب شقائها هو ما تلقاه من خشونة كاثرين وفظاظتها ..

فصاحت السيدة وقد أذهلها هذا الاتهام غير المعقول :

ـ كيف تزعمين أننى خشنة معك أيتها الخبيثة المدللة ؟.. لاريب أنك قد جننت..ألا خبرينى متى كنت خشنةمعك ؟..

فتأوهت ايزابيلا وقالت : « بالأمس .. والآن ! »

ـ بالأمس ؟ .. فى أية مناسبة ؟

ـ عند ما كنا نسير فى البرارى ، فقد طلبت منى أن أتجول حيثما أشاء ، بينما كنت تسيرين الهوينى مع مستر هيثكليف ..

فضحكت كاثرين ، وقالت : « هل هذا ما تعنينه بخشونتى وفظاظتى ؟ .. لم يكن ذلك تلميحا الى أن وجودك غير مرغوب فيه ، فنحن لايهمنا البتة بقيت معنا أم فارقتنا .. وانما ظننت أن حديث هيثكليف لن يكون جميل الوقع فى أذنيك .. »

فبكت الآنسة الشابة ، وغمغمت تقول : « آه .. كلا .. كلا .. انما قصدت ابعادى لعلمك أننى أحب أن أكون معكما .. »

فقالت مسز لينتون وهى تنظر الى مستنجدة : « أهى فى تمام عقلها ؟ .. سوف أعيد عليك ماتبادلنا من حديث ، كلمة فكلمة ، وعليك ياايزابيلا أن ترينى أى شىء فيه يثير اهتمامك أو يبهجك .. »

ـ ان الحديث لا يهمنى ، وانما أردت أن أكون مع ..

وترددت قليلا ، فقالت كاثرين تستحثها : « حسنا .. مع من ؟ »

ـ معه .. ثم اننى لا أحب أن أنحى عن الطريق دائما .

واستطردت تقول بعد لحظة وهى تزيد النار اضطراما :

ـ انك أنانية ياكاثى ، تريدين أن تستأثرى بكل شىء فلا تدعى لأحد منه نصيبا ، ولا تودين أن ترى أحدا محبوبا سواك !

فصاحت مسز لينتون ، وقد غلبت دهشتها على غضبها :

ـ يالك من قردة صغيرة سليطة اللسان ! .. ولكننى لا أصدق أنك على هذا القدر من البلاهة ! .. فمن المحال أن تشتهى اعجاب هيثكليف وتلتمسيه ، وان تحسبيه شخصا لطيفا مرموقا .. لعلنى أسأت فهم ماتعنين ياايزابيلا ؟

فقالت الفتاة المفتونة : « كلا .. انك لم تسيئى الفهم .. فانى أحبه أكثر مما أحببت أنت ادجار يوما من الأيام .. وعساه كان خليقا بأن يحبنى لو أنك تركته وشأنه .. »

فقالت كاثرين وهى تؤكد كل كلمة تنطق بها ، وقد تبدت فى لهجتها الحرارة والاخلاص :

ـ اننى لا أغبطك على موقفك هذا ، ولا أرضى أن أكون مكانك ولو قدم لى عرش مملكة بأسرها .. الا ساعدينى ياناللى فى اقناعها بجنون ماتذهب اليه .. قولى لها ماهو هيثكليف .. انه كالأرض البور التى لم تستصلح ، ومخلوق لا تهذيب لديه ولا علم ولا ثقافة .. والأولى لى أن أضع هذا العصفور الصغير فى العراء يوما من أيام الشتاء القارسة ، من أن أنصح لك بأن تهبيه قلبك .. وأن جهلك المحزن بأخلاقه وطباعه يا طفلتى ـ لا أى شىء آخر ـ هو الذى يجعل هذا الحلم يملأ رأسك .. ولكن مهلا !.. لاتخالى أنه يخفى فى أعماقه فيضا من الحنان والعاطفة خلف هذا المظهر الصارم العبوس !.. لاتحسبى أنه قطعة من الماس الخام ، أو لؤلؤة ثمينة تكمن بين شقى محارة خشنة المظهر .. لا .. انما هو ذئب ضار خلو من الرحمة والشفقة ، فى ثياب رجل من البشر ! .. ولست أقول له : « دع هذا العدو أو ذاك فى سلام لأنه ليس من الشهامة أن تقسو عليه أو تؤذيه » .. وانما أقول له آمرة : « دعه فى سلام لأننى أكره أن يناله منك سوء » .. وانه لحرى بأن يهشمك يا ايزابيلا كبيضة العصفور اذا ما وجدك حملا متعبا يبهظ كاهله .. اننى أعلم حق العلم أنه لا يمكن أن يحب أحدا من آل لينتون ، ومع ذلك فهو خليق بأن يتزوج من ثروتك

الحاضرة والمستقبلة ! .. فان شرهه للمال ينمو معه حتى أصبح خطيئته الكبرى .. هذه صورته كما أراها وأرسمها لك .. وأنا مع ذلك صديقته ، وربما كنت حرية ، لو انه فكر جديا فى الايقاع بك ، بأن أمسك لسانى وأدعك تسقطين فى شراكه ..

فنظرت مس لينتون الى زوجة شقيقها فى سخط وازدراء، وقالت :

ـ ياللعار ! .. ياللعار ! .. انك لأسوأ من عشرين عدوا ، أيتها الصديقة الأفعى ! ..

ـ آه .. انك لاتريدين أن تصدقينى اذن ؟ .. أتظنين أننى أقول ذلك بوحى من الأنانية الشريرة ؟ ..

ـ اننى واثقة من ذلك .. واننى لأرتجف فزعا منك ! ..

فصاحت الأخرى : « حسنا .. فلتجربى بنفسك اذن !.. لقد قمت بواجبى ، وسأضع حدا لهذا الجدل أمام قحتك وسوء أدبك .. »

وبينما كانت مسز لينتون تغادر الحجرة ، أخذت الفتاة تنشج بالبكاء وتقول :

ـ كأننى يجب أن أتألم وأقاسى من أجل انانيتها واثرتها !.. لقد اصبح كل شىء ضدى .. كل شىء .. فقد قضت على عزائى الوحيد، ودمرته تدميرا .. ولكنها كانت تنطق بالأكاذيب، أليس كذلك ؟ .. ان مستر هيثكليف ليس شيطانا كما تصوره .. ان له روحا طاهرة شريفة ، والا فكيف ذكرها وعاد ليراها ؟

فقلت :

ـ ابعديه عن فكرك ياآنستى .. انه طير مشئوم الطالع ، لايصلح قرينا لك .. لقد كانت مسزلينتون عنيفة فى كلامها ، ومع ذلك فأنى لاأستطيع مخالفتها فيما قالته .. فهى أدرى بقلبه منى ومن أى امرىء غيرى ، وما كانت لتصوره بأسوأ

مما هو عليه حقا ! .. فان الأشراف الأمناء لايخفون فعالهم .. والا فخبرينى بربك كيف كان يعيش هذه السنين ؟.. وكيف أصبح ذا مال وثراء ؟.. ولماذا يقيم فى « مرتفعات ويذرنج » ، فى منزل رجل يبغضه وينفر منه ؟ .. انهم يقولون أن مستر ايرنشو يسير من سيء الى أسوأ منذ مقدمه .. وهما يقطعان الليل كله جالسين معا دائما ، وأخذ هندلى يقترض منه بضمان أرضه وأملاكه ، وأصبح لايفعل شيئا سوى أن يشرب ويقامر .. لقد سمعت ذلك منذ أسبوع فحسب ، وجوزيف هو الذى أخبرنى عند ما قابلته فى جيمرتون .. قال : «لاتدهشى ياناللى اذا سمعت أن بيتنا قد غدا مسرحا لتحقيقات النيابة ، لأن بعضهم سوف تقطع أصابعه اذا حاول أن يمنع الآخرين من سلخه كالعجل الذبيح ! .. ذلك هو السيد كما تعلمين ! .. أما فتاك الطيب هيثكليف ، فياله من شخص نادر المثال .. انه يطلق الضحكة المدوية لدى أول اشارة من الشيطان ، وما أكثر اشاراته ! .. ألم يقل لكم شيئا عن حياته الناعمة بيننا عند ما يذهب لزيارتكم فى « الجرانج » ؟ .. هذا برنامجه عندنا .. يستيقظ عند الغروب .. ثم النرد والخمر ، والنوافذ الموصدة ، والشموع المضاءة ، حتى ظهر اليوم التالى .. ثم يحمل السيد الى حجرته وهو يسب ويلعن بألفاظ تجعل الناس المهذبين — مثلى — يضعون أصابعهم فى آذانهم من العار والخجل !.. وأما الخبيث فانه يملأ جيوبه ، ويأكل وينام ، ثم يمضى الى منزل جاره ليثرثر مع زوجته .. ولا ريب انه قال للسيدة كاثرين كيف يجرى ذهب أبيها الى جيوبه ، وكيف يجرى ابن أبيها فى طريق الدمار الواسعة ، بينما يسبقه هو ليفتح له أبواب الجحيم .. » واعلمى يا مس لينتون أن جوزيف وان كان وغدا عريقا الا أنه ليس كاذبا !.. فاذا كان مايرويه من أفعال هيثكليف صحيحا ، فما أحسبك تودين مثل هذا الزوج لنفسك ، أليس كذلك ؟ ..

ـ انك ضالعة فى التآمر ضدى مع الآخرين ياايلين ! .. ولن أصغى الى ترهاتكم ومفترياتكم قط .. اى حقد وأية ضغينة تلك التى تدفعك الى محاولة اقناعى بأنه لاتوجد أية سعادة فى هذا العالم ؟ ! .

وليس فى وسعى أن أقرر هل كانت الفتاة ستتغلب على تلك النزوة لو أنها تركت وشأنها ، أم انها كانت ستتعهدها وتربيها الى الأبد ، فان الوقت لم يمهلها ريثما تمعن التفكير فى الأمر .. ففى اليوم التالى عقدت جلسة المحكمة فى المدينة المجاورة ، واضطر سيدى الى حضورها .. فما أن علم مستر هيثكليف بغيابه ، حتى حضر للزيارة مبكرا عن موعده المعتاد .. وكانت كاثرين وايزابيلا جالستين فى المكتبة ، صامتتين ، وقد حل بينهما الجفاء محل الصفاء .. كانت الأخيرة شديدة الاضطراب لما بدر منها من افشاء سرها والكشف عن أحاسيسها الدفينة فى نوبة عارضة من الاندفاع العاطفى .. وأما الأولى فانها ، بعد امعان التفكير فى الأمر ، ازدادت شعورا بعمق الاساءة التى نالتها من رفيقتها .. واذا كانت لاتزال تضحك من قحتها وسلاطة لسانها ، فانما ازدادت ميلا الى أن تجعل الأمر بالنسبة لايزابيلا أبعد مايكون عن الضحك ! .. وقد ضحكت فعلا عند ما رأت هيثكليف يمر أمام النافذة ، فقد كنت وقتئذ أنظف المدفأة ، فلمحت على شفتيها ابتسامة خبيثة .. وكانت ايزابيلا مستغرقة فى تأملاتها ، متظاهرة بالقراءة ، فلم تنتبه لمقدمه ، وظلت فى مكانها حتى فتح الباب .. وكانت الفرصة قد ضاعت لمحاولة الفرار من الحجرة ، وهو الأمر الذى كانت توده وتتمناه لولا أن أصبح متعذرا ..

وهتفت السيدة فى جذل وهى تقرب مقعدا من النار :

ـ أدخل .. لقد أتيت فى وقتك ! .. فهاهنا شخصان فى حاجة أليمة الى ثالث يذيب الثلج الذى انعقد بينهما .. وأنت ذات الشخص الذى نختاره كلانا ونرضاه .. اننى يا هيثكليف

لأتيه فخرا بأن أقدم لك ، أخيرا ، شخصا شغف بك حبا أكثر مني .. وفي يقيني أنك سوف تزهو وتختال عجبا .. كلا .. انها ليست نللي ، فلا تنظر اليها ! .. ولكن شقيقة زوجي المسكينة هي التي يتقطع قلبها لمجرد تأمل جمالك الجسدي والروحي ! .. وقد صار في يدك الآن أن تصبح صهرا لادجار .. كلا .. كلا يا ايزابيلا .. انك لن تفري من هنا الآن ..

وكانت الفتاة المحيرة قد هبت واقفة في ارتياع وحنق ، فاستطردت كاثرين ، وهي تمسك بذراعها في قوة ، وتتظاهر بالمرح والدعابة :

ــ لقد تشاجرنا كالقطط بسببك ياهيثكليف ! .. وقد غلبتني عن جدارة في مضمار الدفاع عنك ، بباعث من الوفاء لك والاعجاب بك .. بل لقد قالت لي انني لو كنت من كرم الخلق بحيث أتنحى عن الطريق ، فان غريمتي ــ كما تود أن تجعل من نفسها ــ سوف ترمي قلبك بسهم يصميه دواما ، ويسدل على صورتي أستار النسيان الى الأبد ..

فاستجمعت ايزابيلا أهداب كرامتها المهيضة ، وأنفت من النضال في سبيل الخلاص من القبضة القوية التي تمسك بها ، وصاحت قائلة :

ــ كاثرين ! .. سوف أكون شاكرة لك اذا لزمت جادة الصدق ورجعت عن افترائك علي ، حتى ولو كان على سبيل المزاح ! .. وأرجوك يامستر هيثكليف أن تأمر صديقتك هذه بأن تخلي عني ، فهي تنسى أنك وأنا لم نوثق معرفتنا ببعضنا بعد ، وأن مايسرها ويسليها قد يكون مؤلما لي غاية الألم ..

ولكن الضيف لم يحر جوابا ، بل اتخذ مجلسه بينهما ، وبدا عليه عدم الاكتراث للعاطفة التي أنشبت مخالبها في قلبها من نحوه .. فاستدارت الفتاة وعادت تهمس ، في لهفة ، متوسلة لمعذبتها أن تخلي سبيلها ، ولكن مسز لينتون صاحت قائلة :

ــ محال .. عبثا ما تطلبين ! .. فلن يقال عني أنني أستأثر

بالشيء فلا أدع لأحد منه نصيبا .. سوف تبقين ماطاب لى أن تبقى ! .. وأنت يا هيثكليف ، مالك لا تظهر الغبطة والرضى بهذه الأنباء السارة التى أحملها اليك ؟.. ان ايزابيلا تقسم أن حب ادجار لى لايعد شيئا مذكورا بجانب الحب الذى تكنه لك وتطوى عليه جوانحها .. اننى واثقة من أنها قالت شيئا من هذا القبيل ، أليس كذلك ياايلين ؟.. ثم أنها صامت عن الطعام والشراب منذ نزهتنا فى البرارى اول أمس، من فرط الأسى والغضب لأننى نحيتها عن صحبتك ظنا منى أنها صحبة لاتناسبها ! ..

فقال هيثكليف وهو يدير مقعده ليواجههما معا :

ـ أظنك تكذبين عليها .. فهى تريد الخلاص من صحبتى الآن على أية حال ..

ثم راح يحملق بأنظاره فى حدة الى الفتاة موضوع الحديث، كما يحملق المرء الى حيوان غريب كريه المنظر ـ أو الحشرة « ذات المائة ساق » التى تعيش فى جزر الهند ـ يدفعه الفضول وحب الاستطلاع الى تأمله رغم مايثيره فى النفس من نفور واشمئزاز .. فلم تحتمل الفتاة المنكودة ذلك كله ، وتداول وجهها الشحوب والتورد لحظة بعد أخرى ، وجللت قطرات الدمع أطراف أهدابها ، فأخذت تحاول بكل ما فى أصابعها الدقيقة من قوة ، أن تنتزع قبضة كاثرين القوية على ساعدها .. ولكنها اذ رأت انها كلما رفعت أصبعا عن ذراعها أطبق غيره عليها ، وقد تعذر عليها أن ترفعها جميعا ، بدأت تستخدم أظافرها الحادة ، وسرعان ماتبدت آثارها على يد كاثرين فى أهلة حمراء دامية ..

فصاحت مسز لينتون وهى تخلى سبيلها ، وتنفض يدها من فرط الألم :

ـ أيتها النمرة المفترسة !.. اغربى عن وجهى بحق السماء ، واخفى عن الناس وجهك البشع المقيت ! .. ألا ماأحمقك اذ

تبدين له مخالبك هذه ! .. ألا تقدرين عواقب ما تحدثه من الأثر فى نفسه ؟ .. وأنت ياهيثكليف .. أنظر .. ان لها أظافر كأدوات التعذيب ! .. وعليك أن تحذر منها على عينيك ..

فأجاب فى وحشية ، عندما أغلق الباب خلف الفتاة :

ـ لو هددتنى بها لعرفت كيف أنتزعها من أصابعها .. ولكن ماالذى قصدته من اغاظة تلك المخلوقة على هذا النحو ياكاثى ؟ .. انك لم تقولى الحقيقة ، أليس كذلك ؟ ..

ـ أؤكد لك اننى قلت الحقيقة بحذافيرها .. فقد كانت مدلهة فى هواك طيلة الأسابيع الماضية ، وراحت تهذى بك هذا الصباح ، وما لبثت أن أطلقت على سيلا من السباب ، لأننى كشفت النقاب عن مثالبك ومساوئك لأخفف من غلواء اعجابها بك .. ولكن لا تقم للأمر وزنا بعد ذلك .. فكل ماقصدته هو أن أعاقبها على سوء أدبها .. اننى أحبها من كل قلبى ، ياعزيزى هيثكليف ، بحيث لاأسمح لك بأن تنقض عليها فتلتهمها ! ..

ـ وأنا أكرهها بحيث لا أفكر فى هذه المحاولة ، الا على طريقة الغيلان ! .. ولعمرى سوف تسمعين أمورا غريبة لو قدر لى أن أعيش وحدى مع هذا الوجه الشمعى الشاحب المقيت .. ان أقل ما أفعله به هو أن ارسم على صفحته البيضاء ألوان الطيف ! .. وان احيل زرقة عينيها الى سواد يوما بعد يوم .. فهاتان العينان تشبهان عينى لينتون الى حد بغيض ..

فقالت كاثرين فى هدوء :

ـ بل الى حد جميل .. فهما أشبه بعيون الحمام ، أو عيون الملائكة ! ..

وعاد يسأل بعد لحظة صمت قصيرة :

ـ انها وريثة أخيها ، أليس كذلك ؟ ..

ـ شد ما يؤسفنى أن أفكر فى ذلك ! .. فلسوف يحجبها

ـ باذن الله ومشيئته ـ ستة من أبناء أخيها ! .. ولكن اطرد هذا الخاطر عن فكرك الآن .. ان لعابك يسيل لهفة على أملاك جارك ، فاذكر جيدا أن أملاك هذا الجار انما هى أملاكى أنا ..

ـ لو انها كانت ملكى لما تغير الأمر بالنسبة أليك .. وقد تكون ايزابيلا لينتون فتاة بلهاء ، ولكنها ليست مجنونةالبتة .. حسنا .. سوف ندع الحديث فى هذا الأمر ، كما تريدين ..

ولقد نحيا الحديث حقا ، ولكن عن لسانيهما فحسب .. ولعل كاثرين قد نحته عن فكرها كذلك ، ولكنى على يقين من أن الآخر كان لايفتأ يذكره فيما بقى من تلك الأمسية ، فقد رأيته يبتسم لنفسه ـ أو بالأحرى يكشر عن أنيابه المتلهفة ـ ويغوص فى لجة من التفكير العميق كلما دعا الأمر الى غياب مسز لينتون عن الحجرة ..

وقوى بى العزم على مراقبة حركاته .. فان قلبى كان دائما أميل الى جانب السيد ، منه الى جانب كاثرين .. وأحسبنى كنت على حق فى ذلك لأنه كان رفيقا عطوفا ، سليم الطوية ، وافر الثقة بالناس ، شريفا طاهر الذيل .. أما هى ، وان كانت لايمكن أن يقال عنها انها على نقيض ذلك، الا انها كانت ـ فيما يبدو ـ تبيح لنفسها حرية واسعة بحيث كنت قليلة الايمان بتمسكها بالمبادىء القويمة وبالتالى قليلة المبالاة بمشاعرها وانفعالاتها .. وكنت أتمنى أن يحدث شىء يخلص « مرتفعات ويذرنج » و « الجرانج » معا من مستر هيثكليف ، ويردنا الى الهدوء الذى كان يشملنا قبل مقدمه .. فقد كانت زياراته كابوسا متصلا لى ، بل وللسيد أيضا ، فيما أظن .. وكانت اقامته فى « المرتفعات » جورا وظلما يجل عنه الوصف ، فكنت أحس كأن الله قد تخلى عن الشاة الضالة هناك لتلقى جزاء ضلالها التعس المنحوس ، وأن وحشا شريرا يكمن لها ويتربص بها ويحول بينها وبين حظيرة الأمان،منتظرا الفرصة السانحة ليثب عليها ويوردها حتفها .

الفصل الحادى عشر

كنت فى بعض الأحيان، كلما فكرت فى هذه الأشياء وتدبرتها فى وحدتى ، أحس ذعرا مفاجئا يدفعنى الى أن أقوم فاضع قلنسوتى فوق رأسى ، وأذهب لأرى كيف تسير الأمور فى « المرتفعات » . كنت أقنع ضميرى بأن من واجبى أن أنذر هندلى بما يتقوله الناس عن مسلكه الشائن ، ولكنى كنت لا ألبث أن أذكر طباعه الشريرة التى يصر عليها ، فأفقد الأمل فى أن يكون لمسعاى اية ثمرة مرجوة ، وعندئذ احجم عن العودة الى ذلك البيت المنحوس ، وان كان الشك يخامرنى فى قدرتى على احتمال التمسك بما قطعته على نفسى من عهد ..

وذات مرة ، كنت ذاهبة الى « جيمرتون » ، فمضيت من طريق غير الطريق المألوفة ، حتى اجتزت البوابة القديمة .. وكان ذلك فى الوقت الذى بلغته من حكايتى .. وكان عصريوم مشمس شديد البرودة ، وقد تعرت الأرض من العشب ، وجفت الطريق وصلب أديمها .. وبلغت كتلة من الحجر يتفرع الطريق عندها يسارا الى البرارى والأحراش ، تقوم فوق عمود من الصخر الرملى غير المشذب ، وقد نقش عليه ، عند طرفه الشمالى ، حرفا « م.و » ، وعند الطرف الشرقى حرف « ج » ، وعند الطرف الجنوبى الغربى « ث.ج. » فقد كان هذا الحجر يتخذ دليلا ومرشدا الى مرتفعات ويذرنج وبلدة جيمرتون وثرشكروس جرانج .. وكانت الشمس تتألق فوق قمته السمراء ، فتذكرنى بأيام الصيف .. ولست أدرى ماالذى حل بى ، ولا سببه ، اذ أحسست ، دفعة واحدة ، فيضا من أحاسيس الطفولة يتدفق الى قلبى .. فقد كنت وهندلى منذ عشرين عاما نتخذ هذه البقعة مرتعا مفضلا للعبنا .. ورحت أتأمل الكتلة الحجرية طويلا ، وقد نهشتها

عوامل الجو المختلفة ، ثم انحنيت فوق حجر صغير عند قاعدتها ، ووجدته مازال مليئا بأصداف القواقع والحصباء الملونة التى كنا مولعين باخفائها هناك مع غيرها من الأشياء الأخرى السريعة العطب .. فخيل لى أننى أرى رفيق صباى القديم ، واضحا جليا كأنه هو بلحمه ودمه ، وقد جلس على العشب اليابس ، وأحنى رأسه الأسمر المربع الى الأمام، وراح يحفر الارض بقطعة من الاردواز .. عندئذ هتفت فى غير وعى : « هندلى أيها المسكين » ! .. وسرعان ما أجفلت وانتفضت ، اذ لعب بعينى خداع البصر فاعتقدت لحظة أن الغلام قد رفع رأسه وراح يحملق فى عينى !.. ولقد تلاشت هذه الرؤيا فى مثل وميض البرق ، ولكنى مالبثت أن شعرت بحنين لايقاوم نحو الذهاب الى المرتفعات .. وقد استحثتنى الأوهام والخرافات الى الاستجابة لهذا الهاتف .. فمن يدرى لعله الآن قد مات ، أو لعله ــ فيما خيل الى ــ مشرف على الموت ؟! .. وكنت كلما ازددت قربا من البيت ، ازدادانفعالى واضطرابى ، حتى اذا مالمحته من بعد سرت القشعريرة فى كل خلية من بدنى .. وكانت « الرؤيا » التى تراءت لى عند علامة الطريق ، قد سبقتنى الى هناك ، ووقفت تتطلع الىمن خلال البوابة ! .. أو على الأقل كانت هذه هى الفكرة التى بدرت الى ذهنى عندما رأيت غلاما مشعث الشعر أسود العينين ، يطل بوجهه المتورد من خلال القضبان .. ولكنى مالبثت أن أدركت أن ذلك لابد أن يكون هيرتون ، ولدى هيرتون ، الذى لم يتغير كثيرا منذ فارقته من عشرة شهور ..

نسيت مخاوفى السخيفة فى الحال ، وهتفت به قائلة :

ــ ليبارك الله ياحبيبى ! .. هيرتون .. اننى نللى .. نللى ، مربيتك ! ..

فتراجع الى الخلف قدر ذراع ، ثم التقط من الأرض حجرا كبيرا ، فحدست من هذا الفعل انه اذا كانت نللى مازالت

تعيش فى ذاكرته ، فانه لم يتبينها فى شخصى البتة ! ..
واستطردت أقول :

ـ لقد أتيت لأرى أباك ياهيرتون !

فرفع يده بالقذيفة ليرشقنى بها ، وعندئذ انطلقت فى حديث رقيق لأهدىء من سورته ، ولكنى لم أستطع منع يده ، فأصابنى الحجر فى رأسى .. وسرعان ماتدفق من شفتى الغلام المتلعثمتين سيل من الشتائم وألفاظ السباب التى كان ـ سواء فهمها أم لم يفهم معناها ـ ينطق بها فى خبرة مؤكدة ، وأساريره الصغيرة تتقلص فى حقد وكراهية يثيران الألم .. ولك أن تثق ، يامستر لوكوود ، أن ذلك قد أحزننى أكثر مما اغضبنى .. وكنت على وشك البكاء ، عندما أخرجت برتقالة من جيبى وقدمتها اليه لأستميله وأترضاه ، فتردد لحظة وما لبث أن اختطفها من يدى ، كأنما خيل اليه اننى قصدت اغراءه ثم العبث به .. وأخرجت برتقالة أخرى أريتها له ، وقد أبعدتها عن متناول يده ، ثم سألته :

ـ من الذى علمك هذه الألفاظ الجميلة ياولدى ؟ أهو القس ؟

فأجابنى: « لعنة الله على القس، وعليك !.. أعطينى هذه ! »

ـ أخبرنى أولا أين لقنت دروسك ، وسأعطيها لك .. من هو مدرسك ؟

ـ الشيطان أبى !

ـ وما الذى تعلمته من أبيك ؟

فقفز ليخطف البرتقالة من يدى ، ولكنى رفعتها الى أعلى، واستطردت أسأله : « ماالذى يعلمه لك أبوك ؟ »

ـ لا شىء سوى أن أظل بعيدا عن طريقه .. وابى لا يستطيع أن يضربنى ، لأننى اشتمه ..

ـ آه ! .. وهل الشيطان هو الذى يعلمك أن تسب أباك وتشتمه ؟

فأجاب وهو يتشدق بكلامه : « آه ! .. لا .. لا .. »

ـ من اذن ؟

ـ هيثكليف ..

فسألته عما اذا كان يحب مستر هيثكليف ، فأجاب : « آه ! .. نعم .. »

ومضيت أجاذبه أهداب الحديث لأعرف منه سبب حبه اياه ، فلم أخرج منه الا بهذه العبارات :

ـ لا أدرى .. ولكنه يكيل لأبى الصاع صاعين مما يفعله بى .. وهو يسب أبى كلما شتمنى ، ويقول اننى يجب أن أفعل ما يتراءى لى !

ـ ولكن ألا يعلمك القس القراءة والكتابة اذن ؟

ـ كلا .. فقد قيل لى ان القس سوف يجد أسنانه مقذوفة الى حلقه ، اذا وضع قدمه على عتبة الدار .. وهيثكليف هو الذى وعدنى بذلك !

فوضعت البرتقالة فى يده ، ثم سألته أن يخبر أباه بأن سيدة تدعى « نللى دين » تنتظر عند بوابة الحديقة وترغب فى أن تتحدث اليه .. فمضى فى الممر حتى اختفى داخل الدار . ولكنى رأيت هيثكليف ـ لا هندلى ـ هو الذى يظهر فى الباب ، فدرت على أعقابى ، وانطلقت أعدو فى الطريق بكل ماوسعنى من جهد وسرعة ، دون أن أتوقف لحظة ، حتى بلغت علامة الطريق الحجرية ، وقد تملكنى فزع مروع كأننى أطلقت الشياطين من عقالها !

وليس لهذا الحادث صلة مباشرة بقصة مس ايزابيلا ، أكثر من أنه شدد من عزيمتى على فرض حراسة شديدة حولها ، وأن أبذل غاية جهدى فى وقف تغلغل مثل هذا التأثير الشرير فى (الجرانج) ، ولو اضطررت الى اثارة عاصفة فى الدار ، بافساد سرور مسز لينتون وابتهاجها ..

فلما حضر هيثكليف فى زيارته التالية ، صادف أن كانت

الآنسة الشابة تطعم الحمام فى الفناء ، وكانت قد لبثت ثلاثة أيام لا تخاطب كاترين بكلمة ، وان كانت قد تخلت عن عبوسها وتذمرها ، مما وجدنا له راحة فى نفوسنا .. وكنت أعلم أنه ليس من عادة هيثكليف أن يوجه أية مجاملة غير لازمة لمس لينتون ، ولكنه ماكاد يلمحها فى ذلك اليوم ، حتى ألقى على واجهة الدار نظرة حذرة فاحصة ، ثم سار نحوها .. وكنت أقف بجوار نافذة المطبخ ، ولكننى أسرعت فتواريت عن أنظاره ، فرأيته يجتاز الفناء اليها ويقول لها شيئا .. فبدا عليها الضيق والحرج ، والرغبة فى الفرار منه ، ولكنه وضع يده على ذراعها ليمنعها من المسير ، فحولت وجهها عنه . وكان من الواضح انه ألقى عليها سؤالا ، وأنها لم تشأ الاجابة عليه ، وعندئذ ألقى على المنزل نظرة أخرى سريعة ، واذ حسب نفسه بمنجاة عن الأنظار ، كان الوغد من النذالة بحيث احتضنها وقبلها !

عندئذ هتفت دون وعى :

— أيها الخائن يهوذا ! يالك من منافق عريق ، ومخادع اصيل !

فانبعث صوت عندمرفقى ، يقول : « من هو ذاك يانللى ؟ »

كان ذلك صوت كاترين وقد دخلت الحجرة دون أن أشعر بها ، لاستغراقى فى مراقبة الاثنين الواقفين فى الخارج ، فأجبتها فى حرارة :

— انه صديقك الحقير ! .. ذلك الوغد المتسلل هناك ! .. آه ! لقد لمحنا ، وها هو ذا قادم الى الدار . شد ما أعجب هل يجد لديه من الصفاقة ما يتيح له أن يبرر مغازلته لمس ايزابيلا ، على حين أنه أخبرك بأنه يكرهها ؟

وكانت مسز لينتون قد لمحت ايزابيلا وهى تتخلص من يديه ، ثم تعدو هاربة الى الحديقة . وفى اللحظة التالية كان هيثكليف يفتح الباب ، فهممت بأن أطلق العنان لسخطى

وأطلعه على رأيي فيه لولا أن كاثرين اصرت على ان تسكتنى ، وهى غاضبة ، وهددتنى بطردى من المطبخ اذا تجاسرت على الامعان فى القحة باطلاق لسانى السليط ، وصاحت بى :

ــ ان من يسمعك يظنك سيدة هذه الدار ! .. وانك لفى حاجة لمن يلزمك حدك ، ويعرفك قدرك . وأنت ياهيثكليف ، ماالذى تسعى وراءه من اثارة هذه الضجة ؟ .. لقد قلت لك انك يجب أن تدع ايزابيلا وشأنها ، وانى لأرجو أن تفعل ، الا اذا كنت قد سئمت التردد على هذه الدار ، وتريد أن يوصد لينتون أبوابها فى وجهك !

فقال الشيطان الأسود ، الذى لم أمقته فى حياتى قدر مقتى له وقتئذ :

ــ سألت الله أن يجنبه هذه المحاولة ، وأن يبقى عليه نعمة الحلم والصبر .. فاننى ازداد كل يوم لهفة على ارساله الى السماء !

فهتفت كاثرين وهى تغلق الباب الداخلى : « صه ! .. وحسبك لاتزدنى غضبا . ولكن لماذا تجاهلت رجائى وتغاضيت عنه ؟ .. هل اعترضت طريقك عن عمد ؟ »

فزمجر قائلا : « وماذا يهمك من ذلك ؟ .. من حقى أن أقبلها ، اذا رضيت ذلك ، وليس من حقك أن تعترضى ، فاننى لست زوجك ، ولا حاجة بك الى أن تغارى منى ؟ »

فأجابت السيدة : « لست أغار منك ، وانما تأخذنى الغيرة من أجلك ! .. والآن دع عنك هذا التقطيب ، فانك لن تعبس فى وجهى أو تتجهم لى . واذا كنت تحب ايزابيلا فسوف تتزوجها ، ولكن هل تحبها ؟ .. اخبرنى بالحقيقة يا هيثكليف .. آه ! .. انك لا تريد أن تجاوبنى .. وانى واثقة من انك لا تحبها ! »

فتدخلت فى الحديث متسائلة :

ـ وهل يوافق مستر لينتون على زواج شقيقته من هـذا الرجل ؟

فأجابت سيدتى ساخرة : « لا بد لمستر لينتون من الموافقة .. »

فقال هيثكليف : « بل ليوفر على نفسه هذا العناء ، لأننى أستطيع أن أفعل ما أشاء دون حاجة الى رضائه . واما أنت يا كاثرين ، ففى نيتى أن أقول لك كلمتين الآن بهذه المناسبة : أود أن تعرفى بأننى أعلم انك عاملتنى معاملة جهنمية ، هل تسمعين ؟ .. معاملة جهنمية خبيثة . فاذا كنت تهنئين نفسك بأننى لم أعرف ذلك ، فأنت بلهاء . واذا كنت تحسبين أن الكلمات المعسولة تخدعنى وتخفف عنى ، فأنت حمقاء .. أما اذا كنت تتصورين أننى سأحتمل ذلك دون أن أنتقم لنفسى ، فسوف اقنعك عما قريب بعكس ما تتصورين ! .. وفى الوقت نفسه فانى أشكر لك اطلاعى على سر شقيقة زوجك ، وأقسم بأن أفيد من هذا السر الى أبعد حد . وما عليك الا أن تتنحى جانبا ! »

فهتفت مسز لينتون ، فى دهشة وذهول :

ـ ما هذا التطور الجديد فى أخلاقك ؟ .. أتقول اننى عاملتك معاملة جهنمية ، وانك ستأخذ بثأرك ؟ .. ولكن كيف تنوى أن تفعل أيها الوحش الجحود ؟ .. وكيف بالله عاملتك معاملة جهنمية ؟

فأجاب هيثكليف وقد فترت حرارته قليلا :

ـ اننى لا أسعى للانتقام منك أنت ، فان ذلك ليس من خطتى . ان الطاغية يسحق عبيده ، ولكنهم لا ينقلبون ضده ، وانما يسحقون من يلونهم فى المرتبة ! .. ومرحبا بالعذاب أجرعه من يدك حتى الموت ، اذا كان فى ذلك مسلاة لك ، ولكن دعينى فقط أتسلى قليلا بالطريقة نفسها .. ودعك من اهانتى بقدر ما يسعك . لقد هدمت القصر الذى بنيته حجرا

فوق حجر ، حتى سويته بالأرض ، فلا تقيمى لى كوخا ثم تتيهى فخرا بفضلك واحسانك عندما تقدمينه لى منزلا ! .. ولو خطر ببالى أنك تودين حقا أن أتزوج من ايزابيلا ، فانني أكون غرا لا يستحق الحياة !

فصاحت كاثرين :

ـ آه !.. لقد أغاظك اننى لا أحس بالغيرة ، أليس كذلك ؟ حسنا ، لن أعيد ما عرضته من زواجك بايزابيلا ، فذلك أشبه بتقديم روح ضالة الى الشيطان . ولعمرى أن هناءك وسعادتك انما ينبعان من اشاعة الشقاء بين الناس ! .. وهذا ما أثبته لى . لقد هدأت حدة غضب ادجار واستيائه من عودتك ، وبدأت أشعر بالأمن والدعة والهدوء ، ولكنك اذ يهولك أن ترانا نعيش فى سلام ، تصمم على أن تثير المتاعب والشجار . اذهب يا هيثكليف فتشاجر مع أدجار ، اذا طاب لك أن تفعل ، واخدع شقيقته وغرر بها ، فانك بذلك تقع تماما على خير وسيلة تنتقم بها لنفسك منى !

وانقطع الحديث عند هذا الحد ، فجلست مسز لينتون بجوار المدفأة ، متوردة الوجه ، يرتسم على محياها الحزن والكآبة ، فان المارد الذى أخرجته من القمقم ليخدمها قد تمرد عليها ، فلا هى قادرة على اعادته ، ولا هى مستطيعة السيطرة عليه ! .. أما هو فقد وقف أمام المدفأة معقود الذراعين فوق صدره ، مستغرقا فى التفكير فى خواطره الشريرة .. وعلى هذا الوضع تركتهما وذهبت أبحث عن السيد الذى كان يعجب مما أبقى كاثرين أسفل الدار كل هذه المدة ! .. وما كدت ادخل عليه حتى سألنى :

ـ هل رأيت سيدتك يا ايلين ؟

ـ نعم ، انها فى المطبخ يا سيدى ، وقد أغضبها مسلك مستر هيثكليف الى حد يثير الشجن . والحق يا سيدى اننى أرى الوقت قد حان لتنظيم زياراته على أساس آخر ، فمن

الضرر البالغ أن يعامل بالرفق واللين بعد أن وصل الأمر الآن الى هذا الحد !

ثم مضيت أقص عليه ما حدث فى الفناء ، وما تلا ذلك من نقاش حاد ، بعد أن أغضيت عن ذكر ما لم أجرؤ على قوله . وقد خطر لى أن ذلك لن يسىء كثيرا الى مسز لينتون ، ما لم تسىء هى الى نفسها فيما بعد اذا ما اتخذت موقف الدفاع عن ضيفها . أما مستر لينتون فقد نعد صبره قبل أن اتم حديثى ، وكانت كلماته الأولى تنم على انه لا يخلى كاثرين من اللوم ، فقد صاح :

ـ هذه حالة لا تطاق ، ومن العار أن تتخذ كاثرين منه صديقا وتفرض صحبته على فرضا ! .. استدعى يا نللى خادمين الى البهو ، فلن أدع كاثرين تتمهل طويلا فى النقاش مع الوغد المنحط . لقد جاملتها بما فيه الكفاية !

ونزل الى الطابق الأرضى ، وأمر الخادمين بالانتظار فى الممر ، ثم مضى الى المطبخ ، فتبعته ، ورأينا الصديقين قد عاودا مناقشتهما الثائرة .. أو بالأحرى كانت مسز لينتون ممعنة فى تقريعه من جديد بقوة وصرامة . أما هيثكليف فكان يقف عند النافذة ، مطأطىء الرأس ، وقد بدا مرتاعا ـ الى حد ما ـ من ثورتها العنيفة حياله . وكان هو أول من رأى السيد ، فأومأ اليها باشارة سريعة أن تخلد الى الصمت ، وما لبثت أن كفت عن الكلام بغتة وقد اكتشفت سبب اشارته .. وبدأ لينتون يقول :

ـ ما معنى هذا ؟ .. وعلى أى وجه تفهمين الحشمة واللياقة اذا كنت تبقين هنا وتصغين الى الألفاظ التى يصبها فى مسامعك هذا السفيه البذىء اللسان ؟! .. ولكن أحسبك لا ترين فيها شيئا ، اذ هى لغته المعتادة ! .. لقد ألفت ضعته وانحطاطه ، ومن يدرى فلعلك تتخيلين أن بوسعى أن آلفها كذلك !

ـ هل كنت تسترق السمع من وراء الباب يا أدجار ؟

ولقد نطقت السيدة بهذه الكلمات فى لهجة عنيت باستخدامها كى تثير زوجها وتستفزه ، اذ كانت تنطوى على الاستخفاف وازدراء ثورته ، معا ..

أما هيثكليف ، فقد رفع رأسه عند سماعه حديث سيدى ، وما لبث أن أطلق ضحكة ساخرة مستهزئة اذ سمع ما قالته السيدة .. ولعله قصد أن يثير انتباه مستر لينتون اليه ، وقد نجح فى ذلك حقا .. ولكن ادجار لم يكن فى نيته أن يعامله فى غضب جامح ، فقال فى هدوء :

ـ لقد ترفقت بك طويلا يا سيدى ، لا لأننى أجهل سوء خلقك التعس ، ولكن لأننى كنت أشعر أنك غير مسئول عن ذلك تماما .. فلما أرادت كاثرين أن تبقى على معرفتك ، وافقتها فى حمق وبلاهة .. بيد أن وجودك قد غدا سما أدبيا يدنس أكثر الناس فضيلة ونقاء . ولهذا السبب ، ولكى نتقى سوء العاقبة ، فانى أمنعك من الحضور الى هذا المنزل بعد الآن ، وأطلب اليك الانصراف فى الحال .. فان تأخرت ثلاث دقائق ، فسوف يكون خروجك قسرا وبطريقة مخزية !

فنظر اليه هيثكليف وهو يقيس طوله وعرضه بعين ملأى بالزراية والاستهزاء ، ثم قال : « كاثى .. ان حملك هذا يهدد ويتوعد بلغة الفحول ! .. وانه لفى خطر من تهشيم جمجمته على مفاصل قبضتى . ياالهى ! .. شد ما يؤسفنى يا مستر لينتون انك لست أهلا لأن أصرعك ! »

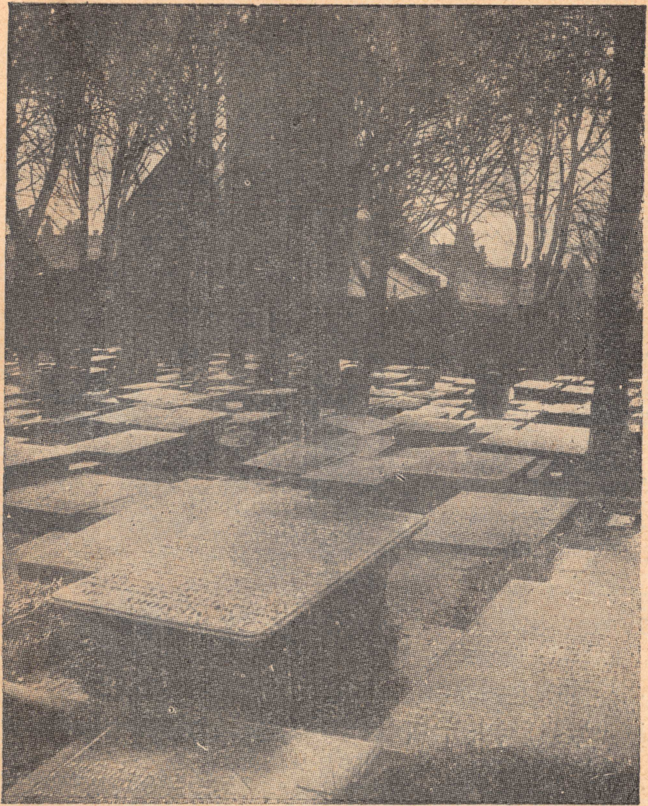
فنظر سيدى ناحية الممر ثم أشار الى أن أدعو الرجلين ، اذ لم يكن فى نيته أن يخاطر بعراك مباشر مع هيثكليف ، فأطعت اشارته ، ولكن مسز لينتون ارتابت فى أن هناك شيئا ما ، وتبعتنى .. فلما حاولت نداء الرجلين ، فطنت للأمر فجذبتنى الى الداخل ثانية ، ودفعت الباب فأغلقته ، ثم أوصدته بالمفتاح !

ونظر اليها زوجها فى دهشـة وغضب ، فقالت ردا على تساؤله :

ـ يا لها من وسائل شريفة تتبعها ! .. اذا كانت الشجاعة تعوزك لمهاجمته ، فاعتذر اليه ، أو دعه يهزمك ! .. وسوف يشفيك ذلك من غرورك وتظاهرك بأكثر مما أنت عليه من قوة وبأس . كلا ، سوف أبتلع المفتاح قبـل أن تأخذه منى .. يا الهى ! .. لقد لقيت منكما أطيب جـزاء على ما أسـديته لكليكما من فضل وعطف .. وبعد طول تسامحى واحتمـالى المستمر لضعف أحدكما وسوء خلق الثانى، أتلقى الشكر منكما ممثلا فى نموذجين من الجحود الأعمى ، والحمق السخيف .. لقد كنت أدافع عنك وعن ذويك يا ادجار ، ولكنى أتمنى الآن أن يجلدك هيثكليف بالسياط حتى تخور قواك، جزاء تجاسرك على سوء ظنك بى !

ولم يكن السيد فى حاجة لهذه التجربة حتى يحل به ذلك الخور ، فقد حاول أن ينتزع المفتاح من قبضة كاثرين ، ولكنها رأت الأسلم أن تلقى به وسط شعلة النار المتأججة فى الموقد . وعندئذ أخذت مستر ادجار رعدة عصبية شديدة ، وشحب وجهه حتى أصبح كوجوه الموتى ـ اذ لم يكن فى وسـعه أن يقهر ذلك الفيض من الانفعال والتـأثر ، ابقاء على حياته ـ وهكذا قهره ذلك المزيج من الألم والهوان ، فاستند الى ظهر أحد المقاعد ، وأخفى وجهه بين يديه .. فاستطردت مسـز لينتون هاتفة :

ـ آه ! .. يا للسماء ! .. لو كنا فى الأيام الخوالى لأحرزت رتبة الفروسية لمسلكك هذا ! ! .. لقد قهرنا ، وغلبنا على أمرنا ! .. ولن يرفع هيثكليف اصبعا عليك ، الا كما يجرد الملك حملة من جيشه لتأديب عصبة من الجرذان ! .. ولكن أبشر وقر عينا ، فلن يصيبك سوء البتة . ان من كان على شاكلتك لا يعد حملا ، وانما هو أرنب رضيع !



فى خطــاب الى « ايلين ناسى » ، كتبت اميلى برونتى تقــول :
« كم جلست هنــاك على أحجار القبور المنخفضة ، وذهنى مركز عــلى
النافذة التى لم يظهر منها غير منظر واحد رتيب للاراضى الجرداء ،
وغير برج الكنيسة الأغبر القائم وسط فنائها المزدحم بالقبور الى درجة
تعذر معها على الحشائش الطفيلية أن تجد لها مكانا بينها تنبت فيه ! »

فقال صاحبها : « شد ما أود أن تتيهى فرحا بهذا الجبان الذى يجرى فى عروقه اللبن بدلا من الدماء ! .. وانى أهنئك بذوقك وحسن اختيارك ، فهذا هو الرعديد الذى يسيل ريقه على ذقنه ، والذى فضلته على .. اننى لا أرضى بأن أضربه بقبضة يدى ، وانما تكفى ركلة من قدمى لترضينى كل الرضاء .. أترينه يبكى ، أم هو مشرف على الإغماء خوفا وفرقا ؟ »

ودنا هيثكليف فركل بقدمه المقعد الذى يستند اليه لينتون . ولقد كان خيرا له ألا يقترب الى هذا الحد ، فان سيدى رفع قامته فى وثبة سريعة ، ولطمه بجمع يده على رقبته لطمة كانت كفيلة بأن تصرع شخصا أضعف بنية من هيثكليف ، الذى انقطعت أنفاسه لحظة .. وفيما كان لا يزال يحشرج بأنفاسه ، خرج مستر لينتون من الباب الخلفى الى الفناء ، ومنه الى المدخل الأمامى .. عندئذ صاحت كاثرين :

ـ أرأيت ؟ .. هأنت قد قطعت على نفسك سبيل الحضور الى هنا .. فانصرف الآن ، لأنه سوف يعود وفى يديه زوج من المسدسات ، ومعه ثلة من الأعوان .. واذا كان قد سمع ما قلناه ، فلن يصفح عنك بطبيعة الحال ، فانك يا هيثكليف قد أسأت اليه اساءة بالغة .. ولكن اذهب .. أسرع .. فانى أفضل أن ارى ادجار فى ورطة عن ان اراك انت ..

فهدر هيثكليف بصوت كالرعد :

ـ أتظنين اننى أذهب وهذه اللطمة ما زالت تحرق حلقى ؟ .. يا للشيطان ! .. كلا ، بل سوف أحطم ضلوعه كبندقة معطوبة قبل أن أخطو خطوة خارج الدار . واذا كنت لا أطرحه أرضا الآن ، فثقى اننى سوف أقتله يوما من الأيام . وما دمت تقيمين وزنا لحياته ، فدعينى أثأر لنفسى منه وأناله الآن !

فتدخلت أنا قائلة ، وقد استبحت لنفسى شيئا من الكذب :

ـ أنه لن يأتى الى هنا ، بل سيرسل الحوذى واثنين من البستانيين . ومن المؤكد انك لن تنتظر حتى يلقوا بك فى عرض الطريق .. ثم ان كلا منهم يحمل هراوة غليظة ، وسوف يرقبهم السيد من نافذة البهو ليرى أنهم قد نفذوا أوامره ..

وكان الحوذى والبستانيان موجودين حقا ، ولكن لينتون كان معهم . وكانوا قد اجتازوا الفناء بالفعل ، ففكر هيثكليف فى الأمر ، وقرر أن يتحاشى العراك مع الخدم الثلاثة ، وتناول محرك النار فهشم به قفل الباب الداخلى ، واتخذ سبيله الى الفرار ، فى الوقت الذى كانوا يدخلون فيه من الباب الآخر ..

وكانت مسز لينتون شديدة الانفعال ، فأمرتنى بأن أرافقها الى الطابق العلوى .. ولم تكن تعرف شيئا عن الدور الذى لعبته فى اثارة هذه المشكلة ، كما اننى كنت متلهفة على أن تظل فى جهلها هذا ..

والقت بنفسها فوق الأريكة فى حجرة الجلوس ، وهى تصيح :

ـ اننى أكاد أفقد عقلى يا نللى .. وأحس بألف من مطارق الحدادين تهوى على رأسى .. قولى لايزابيلا ان تتجنب لقائى ، فان هذه الضجة الكبرى انما نشبت بسببها .. واذا طاب لها ، أولأى شخص آخر أن يزيد من غضبى فى هذه اللحظة ، فسوف أغدو ضارية متوحشة . ثم قولى لادجار يانللى ، اذا رأيته ثانية الليلة ، اننى فى خطر الاصابة بمرض خطير .. وليت ذلك يحدث فعلا . لقد أفزعنى وأحزننى وأصابنى بهم خانق ، ولذلك أريد أن أفزعه بدورى .. ثم انه قد يأتى ليبدأ حلقة جديدة من الاهانات أو التذمر والشكوى . وانى واثقة من اننى سوف أقابل الاهانة بمثلها ، وعندئذ لا يعلم الا الله الى أين ينتهى بنا الأمر .. هل تفعلين ذلك من أجلى ، يا عزيزتى نللى الطيبة ؟ .. انك تعلمين أننى لا يمكن

أن الام ، بحال من الأحوال ، فيما حدث .. فما الذى أصابه حتى جعل منه متسمعا على الأبواب ؟ .. لقد كان حديث هيثكليف مشيننا بعد أن تركتنا ، ولكننى كنت كفيلة بأن أصرفه سريعا عن ايزابلا ، وما بقى بعد ذلك لا يعد شيئا مذكورا .. ولكن كل شىء اندفع فى الطريق الخاطىء الآن ، بسبب لهفة ذلك الأحمق على سماع كلمات السوء التى تقال عنه ، وهى نزوة تتملك بعض الناس كشيطان يسكن أبدانهم ! .. ولو أن ادجار لم يتسمع على حديثنا قط ، لما أصابه من السوء أكثر مما أصابه . والواقع أنه عندما اقتحم على الباب ، وخاطبنى بتلك اللهجة الحمقاء ، وذلك الحنق السخيف ، بعد أن كنت انهال على هيثكليف لوما وتقريعا — حتى بح صوتى — من أجله ، أحسست بأننى لم أعد أبالى ما يفعله كل منهما بالآخر .. خصوصا وقد شعرت بأنه على اى وجه ينتهى ذلك المشهد ، فاننا سوف يتمزق شملنا لمدة لا يعرف أحد مداها . حسننا ، اننى اذا عجزت عن الاحتفاظ بصداقة هيثكليف ، واذا انقلب ادجار حقودا غيورا ، فسوف أحاول تحطيم قلبيهما بأن أحطم قلبى بنفسى .. فتلك أسرع الوسائل لانهاء كل شىء ، اذا ما وجدت نفسى مسوقة الى أبعد الحدود .. ولكنه عمل ينبغى ارجاؤه حتى يخيب الأمل وينقطع الرجاء ، ولن أفاجىء لينتون به . لقد ظل حتى الآن حريصا على الخوف من اثارتى ، فعليك أن تمثلى له خطورة تخليه عن هذه السياسة ، وأن تذكريه بحدة طبعى وسرعة تأثرى ، بحيث أغدو على حافة الجنون اذا اضطرمت نيران غضبى . وكم أود يا نللى أن تصرفى عن أساريرك هذا الجمود والتبلد ، وان تلوحى أكثر لهفة وقلقا على !

ولا ريب أن الفتور الذى كنت أتلقى به هذه التعليمات كان مما يثير الحنق والسخط ، فقد كانت تمليها على بلهجة مليئة بالحرارة والاخلاص ، ولكنى كنت أعتقد أن الشخص

الذى يستطيع تدبير نتائج نوبات غضبه مقدما ، يستطيع بالمثل أن يدبر كيف يسيطر على نفسه، حتى ولو عانى آثارها . ثم اننى لم أكن أريد أن « أفزع » السيد ، كما قالت ، واضاعف من احزانه ، خدمة لأنانيتها .. لذلك لم اقل للسيد شيئا عندما التقيت به قادما الى حجرة الجلوس ، ولكنى أبحت لنفسى أن أعود أدراجى لأنصت الى حديثهما ، واعلم ان كانا سيعودان الى الشجار ثانية . وكان هو البادىء فى الحديث ، اذ قال فى هدوء ، دون أن تشوب صوته شائبة من غضب أو حنق ، بل كانت نبراته تتسم بالقنوط والأسى ، قال :

ــ ابقى حيث أنت يا كاثرين ، فلن أبقى طويلا . وما أتيت لأجادلك أو لتصالحينى . كلا ، وانما أريد فقط أن أعرف اذا كنت ــ بعد احداث هذا المساء ــ تنوين الاستمرار فى صلتك الوثيقة مع ..

فقاطعته السيدة وهى تدق الأرض بقدمها :

ــ رحماك ! .. رحماك ! .. بحق السماء لا تدعنا نسمع المزيد عن هذا الأمر الآن ! .. ان دماءك الباردة لا يمكن أن تجعلك تصاب بالحمى ، كما أن عروقك مليئة بماء مثلج ، على حين بلغت عروقى درجة الغليان . ومجرد رؤيتى لمثل هذه البرودة القارصة تجعلها تتراقص من حرارة الحمى !

فلم تلن قناة مستر لينتون ، بل مضى يقول فى اصرار :

ــ عليك أن تجيبى على سؤالى اذا أردت الخلاص منى ، بل لا بد لك من الاجابة عليه . وهذا العنف الذى يتملكك لا يقلقنى ولا يهمنى ، فقد تبينت أن بوسعك أن تكونى رابطة الجأش قليلة الاكتراث ، كأى انسان آخر ، اذا أردت . فهل تنوين التخلى عن هيثكليف بعد الآن ، أم تريدين التخلى عنى ؟ .. من المحال عليك أن تكونى صديقتى وصديقته فى نفس الوقت ، وانى أصر تماما على معرفة أينا تختارين ..

فصاحت كاثرين ثائرة : « وانى أصر على أن أترك وحدى

الآن . اننى أطالبك بذلك . ألا ترانى لا أكاد استطيع الوقوف؟ .. ادجار .. دعنى .. أتركنى ! »

وراحت تشد حبل الجرس حتى انقطع وهو يدوى برنين متصل .. فدخلت الحجرة متمهلة ، فان مثل هذه الثورات الشريرة الحمقاء خليقة بأن تثير حنق القديسين ! .. ووجدتها مستلقية تضرب رأسها بذراع الأريكة ، وتصرف بأسنانها حتى ليخيل اليك أنها ستحطمها حتى تتناثر شظاياها . وكان مستر لينتون واقفا ينظر اليها وقد تملكه الخوف ، بل ووخز الضمير ، فجأة ! .. وأمرنى بأن أحضر بعض الماء ، على حين كانت متقطعة الأنفاس ، لا تستطيع النطق . وأحضرت كوبا مليئة بالماء ، ولما رفضت أن تشربها ، سكبتها فوق وجهها . وبعد ثوان معدودة كانت قد مدت جسمها المتصلب ، وقلبت عينيها ، بينما ابيضت وجنتاها ثم ازرقتا ، واتخذت سمة الموتى .. فبدا لينتون فزعا مرتاعا ، ولكنى همست أقول له :

ـ لا شىء البتة .. لا شىء بها !

فقد كرهت أن يلين ويستسلم ، ولو اننى كنت أحس بالخوف فى أعماق قلبى .. فقال وقد أخذته قشعريرة شديدة :

ـ ان الدماء تسيل من شفتيها !

ـ لا يأس .. فما بها من شىء !

ثم رويت له كيف صممت ، قبل مجيئه ، على تمثيل نوبة من الصرع أمامه . ولكنى لم أحاذر ، وتكلمت بصوت مرتفع ، فسمعتنى .. اذ انتفضت واقفة ، وقد انسدل شعرها فوق كتفيها ، وومضت عيناها ببريق مروع ، وتوترت عضلات رقبتها وذراعيها على نحو غير طبيعى .. فوطنت نفسى على انها ستهشم عظامى ، على أقل تقدير . ولكنها اكتفت بالتحديق فيما حولها بنظرات نارية ، ثم اندفعت بغتة خارجة من الحجرة . وأمرنى السيد بأن أتبعها ، فتبعتها حتى باب

حجرتها ، حيث دخلت وأغلقته فى وجهى ..

ولما لم تنزل لتناول الافطار فى الصباح التالى ، مضيت اليها لأسألها هل تود أن نحمله اليها ، ولكنها أجابت فى لهجة قاطعة : « كلا ! » .. ثم كررت عليها السؤال ساعة الغداء ، ثم فى موعد تناول الشاى بعد الظهر ، وفى صباح اليوم التالى .. فكنت أتلقى نفس الاجابة الحاسمة . أما مستر لينتون فقد قضى طيلة الوقت فى المكتبة ، ولم يسأل قط عما تفعله زوجته .. وكان قد قضى ساعة مع ايزابيلا على انفراد ، حاول خلالها أن يستخلص منها ما ينم على ارتياعها وفزعها من تقرب هيثكليف اليها ، ولكنه لم يفز بطائل من اجاباتها المبهمة التى لم تقصد منها الا المراوغة والتهرب ، حتى اضطر أخيرا الى انهاء استجوابه ، دون أن يقنع بنتيجته .. غير أنه ختم حديثه معها بتحذير صارم ، وهو أنه اذا كانت هى من الجنون بحيث تشجع ذلك الدعى الحقير ، فان ذلك سوف يقطع كل أواصر القرابة التى تربط بينها وبينه !

الفصل الثانى عشر

بينما كانت مس لينتون تقضى الوقت فى حزن واكتئاب ، متنقلة بين البستان والحديقة ، فى صمت دائم وهم مقيم ، وعبراتها لا تكاد تكف عن الانهمار ، وبينما كان أخوها يحبس نفسه فى المكتبة ، ويعيش بين كتب لم يفتحها قط ، وفى صحبته السأم والكلال ، كنت من ناحيتى أحس ، فى توقع غامض مستمر ، بأن كاثرين لن تلبث أن تندم على مسلكها ، وتأتى طيعة ، فتطلب الصفح من زوجها ، وتسعى الى مصالحته واسترضائه .. وقد ظلت مضربة عن الطعام فى اصرار وعناد ، ولعلها كانت تعتقد أن زوجها كان يغص بالطعام ، فى كل وجبة ، حزنا على غيابها ، وان الكبرياء وحدها هى التى تمنعه من أن

يهرع اليها ويلقي بنفسه تحت قدميها .. ومضيت فى أداء واجباتى المنزلية كالمعتاد ، وقد اقتنعت بأن (الجرانج) لا يؤوي الا نفسا واحدة معقولة ، هي تلك التى تسكن بدنى ! .. وما حاولت قط أن أسرى عن الآنسة ، أو أزجر السيدة وأؤنبها ، اذ كان ذلك عبثا لا طائل وراءه .. كما لم ألق بالا الى تأوهات سيدى الذى كان يحن لسماع اسم زوجته ، ما دام لا يستطيع أن يسمع صوتها ! .. وصممت على أن أدعهم وشأنهم حتى يلجأوا لى بمحض اختيارهم . وعلى الرغم من أن الطريق الى ذلك كان يبدو طويلا مضنيا ، الا اننى ابتهجت أخيرا اذ لمحت بصيصا من الضياء ينبىء ببزوغ فجر التقدم ، كما قدرت من بادىء الأمر .

ففى اليوم الثالث فتحت مسز لينتون باب حجرتها ، وكان الماء قد نفد من الأباريق التى كانت عندها ، فطلبت مزيدا منه ، كما طلبت بعض الثريد ، لأنها كانت ، فيما تعتقد ، مشرفة على الموت . وقد اعتبرت هذا الكلام مهيئا لمسامع ادجار ، ولم أصدق أن حالتها بلغت هذا الحد من السوء ، ولذلك احتفظت به لنفسى ولم انقله لسيدى . وأحضرت لها قليلا من الشاى ، وبعض الكعك الجاف ، فأكلت وشربت بنهم شديد ، ثم استلقت على وسادتها ثانية ، وراحت تشدد الضغط على راحتيها ، وتتأوه قائلة :

ـ آه ! .. اننى موشكة على الموت ، طالما أن أحدا لا يبالى بشىء مما يحدث لى .. ليتنى لم آكل شيئا !

ومضت برهة طويلة ، قبل أن أسمعها تغمغم ثانية :

ـ كلا .. لن أموت ، فسوف يسره موتى .. انه لا يحبنى قط ، ولن يفتقدنى البتة !

وظللت محتفظة بجمودى الظاهر ، على الرغم من الصفرة الشديدة التى كانت تكسو محياها ، وتلك الحالة الغريبة التي اعترتها .. ولكنني سألتها :

– هل طلبت سيدتي شيئا ؟

فقالت وهي ترفع خصلات شعرها المشعثة الكثيفة من فوق وجهها المنهوك : « ما الذي يفعله ذلك المخلوق الجامد الحس ؟ .. هل استغرق في غيبوبة ، أم أنه قد مات ؟ »

– اذا كنت تقصدين مستر لينتون ، فلم يصبه هذا ولا ذاك ! .. انه ، فيما أظن ، في حالة لا بأس بها ، ولو أن دراساته تستغرق معظم وقته وتشغله أكثر مما ينبغي . انه دائما بين كتبه ، وأحسب أن ذلك يرجع الى أنه لا يجد صحبة أخرى يسكن اليها !

وما كان ينبغي أن أقول لها ذلك لو انني عرفت حقيقة حالها ، ولكني لم أستطع التخلص من الفكرة التي كانت تتسلط على وقتئذ ، وهي أن شطرا كبيرا من سوء حالتها انما كان تمثيلا في تمثيل ! .. ولم أكد أفرغ من عبارتي حتى صاحت في دهشة واضطراب :

– بين كتبه ؟ .. بينما أموت هنا ؟ .. بينما أنا على حافة القبر ؟ .. يا الهي ! .. هل يعلم كيف تغيرت ؟

ثم استطردت وهي تحملق في صورتها المنعكسة في المرآة على الجدار المقابل : « أهذه كاثرين لينتون ؟ لعله يحسبني أتدلل ، أو أمثل عليه دورا ! .. ألا يمكنك ان تخبريه ان الأمر جد في جد ، وانه بلغ درجة خطيرة مروعة ؟ .. نللي ، اذا لم يكن الأوان قد فات ، فاني بمجرد أن أعرف حقيقة شعوره سوف أختار بين هذين الأمرين : اما أن أضرب عن الطعام والشراب في الحال – ولن يكون ذلك عقابا له الا اذا كان له قلب يحس ويتألم – واما أن أستجمع قواي ، وأغادر البلاد نهائيا .. ولكن هل قلت الصدق فيما أخبرتني عنه ؟ .. حذار يا نللي ! .. هل هو الآن قليل الاكتراث لحياتي الى هذا الحد ؟ »

فأجبتها : « لماذا ياسيدتي ؟ .. ان السيد ليست لديه

أية فكرة عما أصابك من اضطراب ، ولذلك فانه بطبيعة الحال لم يخامره أى خوف من أنك ستتركين نفسك تموتين من الجوع .. »

ـ أتظنين أننى لن أفعل ؟ .. الا يمكنك أن تخبريه اننى سأفعل حتما ؟.. أوحى اليه بذلك . تكلمى كأنك تفعلين من تلقاء نفسك . قولى له انك واثقة من اننى سأقضى على نفسى جوعا ..

فاعترضت قائلة : « كلا ، لعلك نسيت يا مسز لينتون انك أكلت بعض الطعام الليلة فى شهية وتلذذ ! .. وسوف تبدو عليك آثاره الطيبة غدا .. »

فقاطعتنى قائلة :

ـ لو اننى فقط كنت واثقة من أن ذلك سوف يقضى عليه ، لقتلت نفسى بغير تردد .. لقد قضيت هذه الليالى الثلاث دون أن يغمض لى جفن و .. أواه ! .. لقد لقيت أشد العذاب ، وأقضت مضجعى الأشباح يا نللى .. ولكنى بدأت أشعر بأنك لا تحبيننى . ألا ما أعجب ذلك ! لقد حسبت انهم وان كرهوا بعضهم بعضا ، الا انهم جميعا لا يملكون الا أن يحبونى .. فاذا بهم جميعا ينقلبون أعداء لى فى خلال ساعات قلائل . ان الجميع هنا قد أصبحوا أعداء لى ، انى واثقة من ذلك تماما .. وما أفظع أن يلاقى المرء الموت بينما تحيط به وجوه جامدة غير مكترثة : فايزابيلا ، يملؤها الفزع والنفور وتخشى أن تدخل الغرفة حتى لا تروع لرؤية كاثرين وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة .. بينما يقف ادجار بجانبى فى رصانة ليرقب انتهاء كل شىء ، وبعد ذلك يقيم الصلوات شكرا لله على اعادة السلام الى هذا المنزل ، ثم يعود ثانية الى كتبه ! .. ولكن بحق كل ذى شعور واحساس ، ما شأنه بالكتب بينما أنا مشرفة على الموت ؟

والواقع انها لم تستطع احتمال الفكرة التى بثثتها فى رأسها

عن استسلام مستر لينتون للأمر الواقع فى فلسفة غريبة .. فراحت تدور فى الفراش ، وتزيد من حركاتها المحمومة حتى غدت أشبه بحركات المجانين ، ثم أخذت تمزق الوسادة بأسنانها ، واخيرا رفعت كتفيها ، وهى تحس بحرارة شديدة تسرى فى بدنها ، فطلبت الى أن أفتح النافذة .. وكنا فى وسط الشتاء ، كما كانت الرياح تهب من الشمال الشرقى قوية قارسة البرد ، فاعترضت على فتح النافذة ، وقد تملكنى القلق والذعر من التعبيرات الغريبة التى تتلاعب بأساريرها ، والتبدل العجيب الذى يصاحب حركاتها ، وذكرت مرضها السابق وتحذير الطبيب من عدم معارضتها أو الوقوف فى وجه رغباتها .. وكانت ثائرة عنيفة منذ لحظة ، أما الآن فقد استندت الى احدى ذراعيها ، دون أن تنتبه الى رفضى فتح النافذة ، وبدت كأنما تجد تسلية صبيانية فى جذب الريش من الثقوب التى أحدثتها بالوسادة ، ثم تنسيقه فوق الملاءة الى أصنافه وأنواعه المختلفة .. كان عقلها قد شرد الى آفاق أخرى ، وبدأت تغمغم محدثة نفسها :

– هذا ريش ديكة رومية ! .. وهذا ريش بط برى ! .. وهذا ريش الحمام .. آه ، انهم يضعون ريش الحمام فى الوسائد .. لا عجب اذن اذا كنت لم أجد سبيلا الى الموت ! .. سوف أعنى بالقائه على الأرض عندما أستلقى على الفراش .. وهذا ريش أوز الأحراش ، أما هذا – ولا بد من أن أعرفه وسط آلاف الريش – فهو ريش « القمرى » ، ذلك الطائر الطيب الجميل الذى كان يرفرف فوق رؤوسنا فى وسط الأحراش .. لقد كان يريد الوصول الى عشه ، لأن السحب كانت قد بلغت رؤوس التلال ، فأحس باقتراب المطر .. ولكن هذا الريش جمع من وسط المروج ، فان أحدا لم يصد القمارى قط ، وقد رأينا عشه فى الشتاء مليئا بالهياكل الصغيرة ، لأن هيثكليف كان قد نصب فخاخا حول العش ،

فلم تجرؤ الطيور الكبيرة على القدوم الى العش وتركت أفراخها حتى نفقت .. وقد جعلته يعد انه لن يصيد القمارى بعد ذلك قط ، وقد وفى بوعده ! .. نعم ، ها هنا الكثير منها .. هل صاد قمارى يا نللى ؟ .. وهل كان بينها قمارى حمراء ؟ .. دعينى أرى !

فقاطعتها قائلة : « دعى هذا العبث الشبيه بلعب الأطفال .. »

.. ثم جذبت الوسادة من يدها ، وقلبتها فجعلت الثقوب ناحية الحشية ، لأنها كانت تخرج الريش منها حفنة بعد حفنة ، واستطردت : « أرقدى واغمضى عينيك ، فانك تهذين ! .. لقد ملأت الغرفة بالريش الذى يتطاير فيها كأنه الثلج المندوف ! »

ومضيت التقط الريش من هنا وهناك ، واذا بها تتابع كلامها قائلة :

ـ أننى أرى فيك يا نللى امرأة كهلة ، مجللة الرأس بالشعر الأشيب ، محنية الكتفين ! .. وكأن فراشى هذا قبو الجنيات تحت صخرة (بنستون) ، بينما تنهمكين فى جمع السهام ذات الرؤوس الصخرية المدببة ، لتقتلى بها أبقارنا وماشيتنا ! .. ثم تزعمين عندما ترينني قريبة منك انها ليست الا خصلات من الصوف ! .. هذا ما سوف يصير اليه أمرك بعد خمسين عاما ، أما الآن ، فأعرف انك لست كذلك .. آه ، اننى لا أهذى كما تزعمين . أنت مخطئة ، والا فلا بد لى من الاعتقاد انك كنت حقا تلك الشمطاء العجفاء ، واننى كنت تحت صخرة (بنستون) ، ثم اننى أشعر بأن الليل أرخى سدوله ، وأرى شمعتين على المائدة تنعكس أضواؤهما على المكواة السوداء فتتألق صفحتها كالكهرمان الأسود !

فصحت قائلة : « المكواة السوداء ؟ .. أين هى ؟ .. هل تحلمين ، أم تتكلمين فى نومك ؟ »

ـ انها هناك ، مستندة الى الجدار ، كما كانت دائما ! .. ولكنها تبدو عجيبة الآن ، فانى أرى فى صفحتها وجها !

فعدت الى مقعدى ، وفتحت فرجة فى ستار الفراش حتى أستطيع مراقبتها ، ثم قلت : « لا توجد مكواة فى الحجرة ، ولم توجد بها فى يوم من الأيام .. »

ولكنها مضت تحملق ببصرها فى المرآة فى قلق ، قائلة :

ـ ألا ترين ذلك الوجه ؟

وعبثا حاولت افهامها أن ذلك كان وجهها هى ، فنهضت وغطيت المرآة بشال كبير ، غير انها استطردت فى الحاح ولهفة : « انه لا يزال هناك ، خلف الشال .. ثم أنه يتحرك من هذا ؟ .. أرجو ألا يخرج من مكمنه عندما تغادرين الحجرة .. أواه يا نللى ! .. ان الحجرة مسكونة بالأشباح ، وانى خائفة من البقاء فيها بمفردى ! »

فتناولت يدها بين يدى وطلبت اليها أن تهدأ وتستريح ، اذ كان بدنها كله قد أخذته رعشات متوالية كانت تهزه هزا ، ولكنها ظلت تحدق ببصرها فى المرآة ، لا ترخى عينيها عنها .. فألححت عليها قائلة : « لا يوجد أحد هنا البتة . لقد كانت صورتك أنت يا مسز لينتون ، وقد عرفتها بنفسك منذ لحظات ! »

فقالت لاهثة : « صورتى أنا ؟ .. وها هى الساعة تدق الثانية عشرة ؟ .. هذا صحيح اذن ! .. آه ! .. ما أفظع ذلك ! »

وتشبثت أصابعها بثوبها فرفعته حتى غطت به عينيها .. وعندئذ حاولت أن أسترق الخطى الى الباب وفى نيتى أن أدعو زوجها ، ولكننى اسرعت بالعودة اليها اذ أطلقت صرخة ثاقبة ، وكان الشال قد سقط من فوق اطار المرآة ، فصحت بها قائلة :

ـ ماذا جرى ؟ .. وما هذا الجبن الآن ؟ استيقظى ، فانها

المرآة .. المرآة يا مسز لينتون ، وأنت ترين نفسك فيها ، وهأنذا أظهر فيها كذلك ، الى جوارك ..

وأمسكت بى فى قوة وهى ترتعد فى وجل وذهول ، وما لبث الفزع أن انقشع عن أساريرها تدريجيا ، وتحول شحوبها الى تورد الخجل وهى تتنهد قائلة :

ـ أواه يا عزيزتى ! .. لقد حسبتنى فى منزلى . خيل الى أننى راقدة فى حجرتى « بمرتفعات ويذرنج » ، وقد اختلط عقلى بسبب ما أعانيه من ضعف ، فصرخت بغير وعى أو شعور .. لا تقولى شيئا ، ولكن امكثى معى ، فانى أخشى النوم ، لأن أحلامى ترعبنى وتفزعنى !

ـ بل ان النوم العميق سوف يفيدك يا سيدتى ، وأرجو أن تكون آلامك هذه مانعة لك من الصيام مرة أخرى ..

فعادت تقول فى مرارة ، وهى تعصر يديها وتفركهما :

ـ آه ، ليتنى الآن فى فراشى الصغير بالمنزل القديم ! .. وهذه الرياح تزفزف بين أغصان الشربين بجوار نافذتى . ألا دعينى أحسها واستنشقها يا نللى ، فانها تنحدر من البرارى رأسا . دعينى أرشف منها مرة واحدة !

وفى سبيل مرضاتها واراحتها ، أمسكت بمصراع النافذة وواربته بضع ثوان ، فاندفع منه هواء مثلج ، جعلنى أبادر الى غلقه والعودة الى مكانى .. وكانت عندئذ ترقد فى سكون ، لا تتحرك ولا تتكلم ، وقد سبح وجهها فى بحر من الدموع . كان الارهاق البدنى قد طغى على هياجها النفسى ، ولم تعد كاثرين الغضوب الثائرة أكثر من طفل باك ذليل ..

ودبت فيها الحياة لتسألنى بغتة :

ـ كم مضى من الوقت منذ حبست نفسى هنا ؟

ـ كان ذلك مساء الاثنين ، ونحن الآن فى ليلة الخميس ، أو بالأحرى صباح الجمعة !

ـ ماذا ؟ .. الاثنين والجمعة من الأسبوع نفسه ؟ ..

هذه المدة القصيرة فقط ؟

ـ انها طويلة بما فيه الكفاية لمن لا يعيش الا على الماء القراح وحدة الطبع !

فغمغمت قائلة فى ارتياب : « حسنا ، انها تبدو ساعات كليلة متثاقلة ، ولا بد أن تكون أكثر من ذلك .. فانى أذكر ما حدث لى فى البهو بعد أن تشاجرا ، حين راح ادجار يستفزنى فى قسوة فانطلقت أعدو هاربة الى هذه الحجرة وقد تملكنى اليأس . وما كدت أوصد الباب ، حتى اكتنفتنى ظلمة حالكة السواد ، وتعثرت فسقطت على الأرض .. وما استطعت أن أبين لادجار كيف كنت مقبلة حتما على نوبة شديدة حادة ، وكيف أن الغضب سوف يفضى بى الى الجنون ، لو أصر على التمادى فى مضايقتى ومعاندتى ! .. فلم تعد لى أية سيطرة على لسانى ، أو عقلى ، ولعله من جانبه لم يستشف آلامى وعذابى ، التى لم تدع لى من حاسة التفكير الا القدر الذى يدفعنى الى محاولة الفرار منه ومن صوته !.. وقبل أن أستعيد حواسى بالقدر الذى يسمح لى بأن أرى واسمع ، كان الفجر قد انبثق .. وسوف أخبرك يا نللى بما كنت أفكر فيه ، وما كان يلف ويدور فى رأسى ، حتى خشيت على عقلى أن يذهب بددا . كان يخيل الى ـ وأنا ملقاة على الأرض ، ورأسى مستند الى رجل المائدة ، وعيناى لا تكادان تستشفان ذلك المربع الرمادى الذى يتوسط النافذة ـ اننى كنت فى فراشى الذى تعرفينه هناك ، تلك الخزانة ذات الفتحات المربعة ، المصنوعة من خشب البلوط ، وأن قلبى كان يتقطع من حزن عظيم لم أتذكر سببه عندما استيقظت وقتئذ ، وانما رحت أكد فكرى ونفسى لأكتشف سره وكنهه .. ولكن أعجب ما فى الأمر أن السنوات السبع الأخيرة من حياتى غدت كلها كأنها صفحة بيضاء ، حتى خيل الى أنها لم تكن البتة !.. لم يكن لها يوما وجود !

ترقب الجزء الثانى من (مرتفعات ويذرنج)

فى غمرة هذا الهذيان المحموم الذى اندفعت فيه بطلة القصة المدللة التعسة « كاثرين ايرنشو » – أو « مسز لينتون » – ينتهى الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة لهذه الترجمة الكاملة للصرح الأدبى الخالد (مرتفعات ويذرنج) .

وفى الجزء التالى ، الذى يصدر بعد أسبوعين باذن الله ، نتابع مطالعة هذه القصة الانسانية الرائعة ، فنرى ما يكون من أمر التصدع الخطير الذى أحدثه هيثكليف فى العلاقة بين الزوجين « كاثرين » و « ادجار » ! .. ثم نتابع المطاردة العنيفة التى يشنها هيثكليف على العذراء الغريرة « ايزابيلا » ، والعداء القاتل الذى يكنه الأول لغريمه القديم « هندلى » ! .. الخ

وقلت أغنية من غير ذكرى تحل قلبي بحب الليل

كتابى

يوافيك بانتظام فى أول كل شهر ، ابتداء من الشهر القادم ، فيقدم لك فى كل عدد مجموعة ضخمة من ملخصات أروع الكتب العالمية .. ومنها :

الجحيم .. هو الناس !
(جان بول سارتر)
الشمس تشرق ثانية
(ارنست همنجواى)
كيف تقاوم العصبية
(من كتب علم النفس)
مهنة مسز وارين
(برنارد شو)
ليالى البلقان